

آية الله العظمى
الشيخ محمد أمين زين الدين






من
اشعة القرآن



القسم الثالث

آية الله العظمى
الشيخ محمد أمين زين الدين

الطبعة الأولى



هويّة الكتاب

الكتاب: .... من اشعة القرآن

المؤلف: .... آية اللّٰه العظمىٰ الشيخ محمد امين زين الدين تَيِّنُ

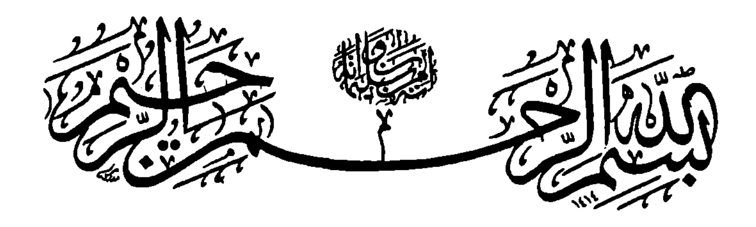
الناشر: .... ابناء المؤلف

الكميّة: .... ٢٥٠٠ نسخة

الطبعة: .... الأولىٰ

سنة الطبع: .... ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

المطبعة: .... امير


بسم الله الرحمن الرحیم

مقدمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمـــد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك الأزمّة، ومدبر الأكوان بالحكمـــة، وواسعها بالرحمة، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، مـــبدئ الأشياء ومعيدها: مكونها بعد العدم ووارثها بعد الفناء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله المطهرين.

﴿ رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادي لِلإيمانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنا فَاغْفِرْ لَـــنا ذُنُوبَـــنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الأَبْرارِ، رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدتَّنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَومَ القِيامَةِ، إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الميعادَ ﴾ .

ربـــنا إنـــنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان مِنْ فِطَرِنا التي فطرتها بقدرتك وألهمـــتها عرفانك، ومن عقولنا التي وهبتها برحمتك وأريتها برهانك، ومن رســـلك الـــتي أرسلتها بلطفك لتهدي بها بريتك، ومن كتبك التي أنزلتها بحكمتك لتوضح حججك وتنير منهجك، ومن آياتك التي ملأت بها الكون، وعجائبك التي بثثتها في الملكوت، ليراها كل ناظر فلا يشك، وليتأملها كل عـــاقل فلا يرتاب، وليستنطقها كل عقل فلا يمتري .. ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّـــماواتِ وَالأَرْضِ ﴾ ربنا إننا سمعنا ينادي للإيمان من كل أولئك فآمنا،

وكل أولئك لطف منك ترشد به عبادك، وتهديهم نـــيّر الطريق، فثبتنا عـــلى ذلـــك ما أحييتنا، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

بين يدي الكتاب *

بسم الله وله الحمد

قبســـاتٌ من أنوار الإسلام، وبصائر من هدى قرآنه ، قبسها سماحة الإمام الشـــيخ الوالد (دام ظله)، وقدّمها لأبنائه النجباء من طلائع المؤمنين، محاضرات وكلمات في مناسبات شتى وبحوثاً في بعض الكتب والمجلات.

وكان من الطبيعي أن تختلف الموضوعات التي تناولها في هذه البحوث، وأن تـــتفاوت طرائق العرض لها وأن يتكرر تقديم بعضها وتختلف نواحي الاستعراض فيها.

فقـــد اختـــلفت المناسبات التي كتب سماحته لها هذه البحوث بين الدعوة الشخصـــية لـــه مـــن بعض أبنائه المؤمنين في أحد البلدان لإلقاء محاضرة حول موضـــوع معيّن شعروا بالحاجة إلى استيضاحه، والاحتفال الجماهيري في مولد أحـــد المعصومين (ع) أو وفاته، والتقديم لكتاب رغب إليه مؤلفه أن يقدم له بما يراه مناسباً للتقديم .. وهكذا .

(*) كـــتب هـــذا الـــتقديم في حياة سماحة الشيخ، وقد حالت ظروف قاهرة دون طبع هذا الكـــتاب قـــبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى يوم الأربعاء ٢٩ من شهر صفر ١٤١٩هـــ المصادف ٢٤ حزيران ١٩٩٨ م ، عن ستة وثمانين عاماً .. إنا لله وإنا إليه راجعون.

واختلفت الأزمنة التي كتب سماحته فيها هذه البحوث بين العقد السابع من القرن الرابع عشر للهجرة النبوية الشريفة والعقد الأول من القرن الخامس عشر لها. واختلفت المستويات الثقافية للمقصودين بهذه البحوث بين الطلائع المتقدمة من المثقفين، وبسطاء الثقافة من القرويين ..

ولكن - ومع كل دواعي الاختلاف هذه وغيرها- تبقى للموضوعات المطروحة في هذه البحوث أهميتها الكُبرى في حياة المسلم، ويبقى لمنهج سماحة الشيخ الإمام فيها أصالته التربوية المعهودة ويبقى لواسع علمه وعميق فكره، ويبقى لبيانه الفريد فيها سحره وتأثيره المعروفان وهي العناصر المشتركة في جميع هذه البحوث والخطوط الجامعة لها .

وهذا ما حداني أن أدأب على جمعها من بين مسودّات مبعثرة كاد يعَفّي على بعضها الزمن كما عفّا على غيرها من محاضرات سماحة الشيخ وكلماته وإجاباته حول مسائل مهمة أسِف حتى هو (دام ظله) على ضياعها؛ إذ لم يكن يهتمّ بجمعها والمحافظة عليها، أو بالأحرى لم يكن يجد الوقت الكافي لاستنساخها قبل أن يرسلها إلى المعنيين بها .

وفي الختام أدعو الله -جلّت قدرته- لسيّدي سماحة الشيخ الوالد مديد العمر، وموفور الصحة، ودوام الظل الوارف على رؤوس أبنائه المؤمنين، كما أدعوه - تعالى- لي ولإخواني المؤمنين الإخلاص له (سبحانه) في العمل، والمزيد من التبصّر لنهجه القويم، والإفادة من عطاء المخلصين من حملة هداه، والتوفيق في السعي لنيل رضاه إنه سميع الدعاء قريب مجيب .

ضياء زين الدين

عقيدة المعاد

رغبتم أن يكون حديثي إليكم عن المعاد في الإسلام .. عن هذه العقيدة الــتي ربطها القرآن في عديد من آياته الكريمة بعقيدة المبدأ ... بعقيدة الإيمان بالله (عز وجل).

وهذان الأصلان يشكلان البداءة والنهاية من خط الحياة المستقيم، كما هما المبدأ والمنتهى من منهج الإسلام العظيم .

وأمــر العقيدة أمر بالغ الخطورة، شديد الأثر في تلوين هذه الحياة، وما بعــد هذه الحياة، وهو كذلك أمر تتوقف عليه النجاة من مخاوف ومعاطب منتظرة، فلا بد للإنسان أن يقف فيها موقفاً حازماً، يرضي العقل، ويرضي القــلب، ويرضــي الوجــدان، ولا يسوغ له أن يجعل النظر فيها من نوافل الأمور، ومن ترف العقل الذي لايضر جهله ولايجب الإمعان فيه.. إنها مسألة هلكة ونجاة، ولايجوز التسامح فيها بوجه من الوجوه:

قــال المنجم والطبيب كلاهما: لا تبعث الأجساد قلت:إليكما
إن صح قولكما فلست بهالك أو صح قولي فالخسارعليــكما

حتمية السؤال عن المبدأ والنهاية:

يفــتح الإنسان بصره على نفسه -لأول عهده بالإدراك ولأول قدرته

على التفكير- يفتح بصره على نفسه.. على جسده: لحمه ودمه وعروقه وعصبه وقصبه وأجهزته وأنسجته. وعلى روحه: حياته وعقله وحواسّه ومشاعره وغرائزه وقواه وطاقاته، ومايستطيع أن يعدده من أشيائه وأجزائه..

.. يفتح بصره على نفسه وعلى إتقان الصنعة فيها، فيتحدث إلى نفسه : لقد وُجدت وكنت معدوماً -ولا ريب-، فمن الذي أوجدني؟ وإلى أي شيء تكون نهايتي؟

ثم يعمم نظرته فيقول: والكون الذي يحيط بي من ناس وحيوان ونبات، والسماء التي تظلّنا والأرض التي تقلّنا، والأكوان الأخرى. والعوالم الفسيحة التي لايزال العلم يكشف عنها، ويأتي في كل يوم بأمر جديد.. إنها موجودة.. فمن الذي أوجدها؟ وإلى أي شيء تكون نهايتها؟

وهكذا يرتبط في شعوره السؤال عن المبدأ بالسؤال عن النهاية.

وأول شيء يسترعي الانتباه والملاحظة في هذا التساؤل، هي الطريقة التي يحدث بها، فهو يأتي بصورة حتمية. تفرض على الإنسان فرضاً من داخل أعماقه، ولا يستطيع التخلص منها ولايستطيع التغافل، وإن بذل الجهد أن لايلتفت وأن يتغافل.

ومن أجل ذلك كان هذا التساؤل عن بداية الكون عامّاً لايفلت منه أحد مهما كانت ثقافته، ومهما كانت فطنته .. من أول متمدْين إلى أبسط بدائي في مجاهل الغابات، ومن أعظم فيلسوف مفكر إلى أصغر تلميذ متعلم.

ومن أجل ذلك كان هذا التساؤل ملحّاً ملحّاً، يقضّ على الإنسان مضجعه، ويضايقه في أغلب حالاته، حتى يحصل على الجواب المقنع الذي

يطمئن إليه، خطأً كان الجواب أم صواباً، وحقاً كان التحليل أم باطلاً.

وهـــذا التســـاؤل.. التساؤل عن العلة الأولى لهذا الكون، هي الفكرة الوحيـــدة الـــتي تأتي بهذه الطريقة الحتميّة، ولايشبهها فيها شيء من الفِكَر أبـــداً، فمن طبيعة الفكرة -أية فكرة كانت- أن يكون الذهن خالياً منها، غافلاً عنها، حتى يلفته إليها لافت ويثيرها مثير، ثم لا تضايق الإنسان بأكثر ممـــا يطلبه العلم، أمّا هذه الفكرة على الخصوص فمثيرها ذاتي ينبع من داخل الإنســـان، فلابـــدّ من التوجّه، ولابد من الالتفات، ثم لاهدوء ولاقرار إلاّ بالإجابة المقنعة كما قدّمنا.

دليل الفطرة

وهـــذه الطريقة الحتميّة الملحّة التي يحدث بها هذا التساؤل هي الركيزة الأولى للجواب.

إنها تشعر الإنسان شعوراً تلقائياً بحاجته الذاتية إلى علة كبرى مسيطرة.

نعم، وهذه العلة الكبرى المسيطرة هي التي تفرض عليه بقوّتها، وبنفوذ سلطانها أن يعلم فلا يجهل، وأن يلتفت فلا يغفل.

وقلت في بعض أحاديثي عن الإسلام وعن دلالة الفطرة على الله: (في أعمـــق الأعماق من نفس الإنسان يوجد الدليل على الله. بل والدليل الأول على توحيده، وتنـــزيهه، والحافز الذاتي للإنسان على التوجّه إليه.

(في أعمـــق الأعماق من نفس هذا المخلوق المفكّر، حتى لو أنه أطبق عينيه عن عجائب الكون، وصرف فكره عن التأمل فيها والتدبّر في قوانينها.

(في فطرته حين يدع لها الحكم ويسند إليها الرأي.

(في فقـــره الذاتي وهو يشير إلى غنيّ مطلق يأمل منه الغنى، وفي نقصه الطـــبيعي وهو يتوجّه إلى كامل أعلى يرجو منه الكمال. وفي ضعفه الشديد وهو يتعلق بقويّ غالب يستمد منه القوة، وفي عجزه المتناهي وهو يلجأ إلى قـــادر قاهر يبتغي منه القدرة والنصرة، وبكلمة جامعة: في قصوره الذاتي من كل ناحية، وهو يتوجّه إلى قوة عليا كاملة من كل ناحية، متعالية عن الحدود مرتفعة عن الحاجة، تفيض الخير وتكفي السوء.

(بلى، وكل إنسان له ساعات لايخادع فيها نفسه، أو هو لايستطيع أن يخادعهـــا .. ســـاعات تتعرى له فيها الحقائق، فيؤمن أنه لايملك شيئاً مما في يديه، وإن يك أغنى الأغنياء، أو أقوى الأقوياء في مقاييس الناس [1]).

والفطـــرة -أيها الأعزاء- لاتخادع في حكم، ولا تُلبّس حقاً بباطل في هتاف ولانداء.

أرأيتم الفطرة لَبّست حقاً بباطل في يوم من الأيام، أو خادعت أحداً في حكمهـــا، وهـــي تشـــعره بـــالجوع أو العطش أو الحر أو البرد أو إحدى الضرورات الطبيعية الأخرى؟

كـــلاّ، كلاّ، إنه نداء الضرورة، إنه نداء الواقع.. إنه نداء الحق، لامرية فيه ولا لبس، ومن أجل ذلك لم يشك في تصديقها عقل.

والشـــعور بـــالقوة العليا المدبّرة، ضرورة طبيعية ذاتية كذلك، وشعور

١ـــ الإسلام: ينابيعه، مناهجه، غاياته. ط١ ص٢٢٠ .

الفطرة بها أعمق وأوكد من شعورها بالضرورات الأخرى.

وحكم الفطرة يكون أشد وضوحاً، وأكثر جلاءً حين تلتحم على الإنسان شدائد تقطع رجاءه من سائر الأسباب، وتفصله عن التفكير فيها. هنا يشعر شعوراً واضحاً بسبب واحد قوي يشدّه إلى أعلى .. إلى القوة الغيبيّة العظمى التي يوقن أن بيدها تقدير الأمور، وبأمرها تفريج الكُرب الشداد.

وقد أرشد القرآن الإنسان في عديد من آيِهِ إلى هذا الشعور الذي لايكذب، قال (تعالى):

﴿ هُوَ الّذي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ وَالبَحْرِ، حَتَّى إذَا كُنْتُم في الفُلْكِ، وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبةٍ، وَفَرِحُوا بِها جَاءَتْـهَا رِيْحٌ عَاصِفٌ وَجاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَـانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ: لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِن الشَّاكِرِيْنَ [1] ﴾ .

وقد جلّى معنى الفطرة تجلية كاملة، وذكر لزومها للإنسان في كل حالاته، فلا تدعه يغفل عن دعوتها ولايُشغل، فقال:

﴿ وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَني آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُم على أنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكمْ؟ قَالُوا: بَلَى شَهِدنا؛ أنْ تَقُولُوا يَومَ القِيامَةِ: إنّا كُنّا عَنْ هذا غَافِلِينَ، أوْ تَقُولُوا: إنَّمَا أَشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِم،

١ـ يونس : ٢٢.

أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الـمُبْطِلُونَ؟ وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعلَّهُم يَرجِعُون [١]﴾

أسمعتم؟... إن الله (تعالى) جعل الفطرة لابن آدم ليشهد بها على نفسه، ليقيم عليه بها الحجة، وليدفع به إلى اليقين، فلا يعتذر بغفلة، أو بعدم بلوغ دعوة، أو بعدم اتضاح سبيل.

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعلَّهُمْ يَرجِعُونَ ﴾.

دليل السببية:

وجاء دور العقل الواعي ليتمم دعوة الفطرة، ويجلو حكمها، ونظر في آيات التكوين.. في نفسه وفيما بين يديه.. فيما قرُب منه وما بَعُد.. في عجائب النفس وعجائب الكون، وما في كل شيء إلاّ عجيبة تُدهش العقول، وتذهل الألباب:

﴿ ماتَرَى في خَلْقِ الرَّحمنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ؟ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَينِ يَنقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وهُوَ حَسِيرٌ [٢] ﴾

ونظَر وفكّر، وقلّب وقدّر، وحكم بحكمه القاطع الذي لايقبل التشكيك: أن كل شيء يمكن وجوده ويمكن عدمه فمن المحال أن يكون موجوداً دون سبب، وقرّره قانوناً لايتخلف ولا يختلف، ولايعرف الانتقاض أبداً، ولا الاستثناء، وسمّاه (قانون السببية).

وإذن، فكل هذه الأمور التي يراها، والأخرى التي لايراها، أمور معلولة

١ـ الأعراف: ١٧٢

٢ـ الملك: ٤

لابـــدّ لها من سبب أعلى ينتهي إليه كل سبب، لأن هذه الأمور كلّها أشياء يمكـــن وجودهـــا ويمكن عدمها، ولما وُجدت علمنا يقيناً أن لها سبباً آتاها الوجـــود، لأن نسبة الوجود والعدم إليها -لولا ذلك السبب- على سواء. وإذن، فلابد لهذا الكون من سبب أعلى هو موجود بذاته لابعلّة سواه، لأن الدور والتسلسل من المحال.

إن الدور يعني أن يتقدم الشيء على نفسه في الوجود، لأنه يكون علّة لمـــا هو علة لوجوده، وهذا يعني أن الشيء متقدم في الوجود في حال يكون هو بذاته متأخراً فيها، متقدّم بما هو علة ومتأخر بما هو معلول وهو محال.

وإن التسلسل يعني أن تذهب الممكنات متسلسلة إلى مالانهاية له، وهو كذلك محال، لأن مجموع السلسلة كلّها -بما فيها من حلقات مترابطة سابقة ولاحقة-، مجموع هذه السلسلة شيء يمكن وجوده ويمكن عدمه فمن المحال أن يكـــون موجوداً بدون علة أخرى من غير هذه السلسلة، لقانون السببية المتقدم.

ولاستحالة التسلسل براهين عديدة حسبنا أن نكتفي بهذا الواحد منها.

وقد ذكر القرآن قانون السببية، وحاكَمَ الإنسان إليه، فقال:

﴿ أَمْ خُـــلِقُوا مِـــنْ غَيرِ شَيءٍ، أمْ هُمُ الخَـــالِقُونَ، أمْ خَلقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لايُوقِنُونَ[١] ﴾ .

واعـــترف العلم بقانون السببية، وربط به كل كشوفاته وكل معلوماته

١ــ الطور: ٣٦

وسار على وفقه في جميع خطواته.

وتقدّم العلم خطوة كبرى في هذا السبيل، فأنكر أزلية المادة، للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، فقال: إن المادة -بمقتضى هذا القانون- تسير نحو الفناء، نحو الصفر المطلق، وهذا يعني أنها محدودة الآخر، وإذا كانت المادة محدودة الآخر، فهـي محدودة الأول كذلك؛ لأنها لو كانت أزلية غير محدودة الأول لكان مقتضى ذلك القانون أنها قد استوعبت طاقتها وفنيت منذ أمد بعيد. وقد اعترف بهذه الحقيقة كثير من علماء الطبيعة الراسخين[١]. وشرح هذا القانون، وإيضاح النتيجة المذكورة التي توصل إليها العلم لايسعهما هذا الموقف.

من الذي أوجد الله؟

ويفكـر بعـض الناس تفكيراً ساذجاً ليردّ القول بالقول — على ما يزعم —.

يقول: إن قانون السببية الذي ذكرتموه يفيد: أن كل شيء موجود فمن المحـال أن يكون موجوداً دون سبب، وإذن فلنا أن نسأل عمن أوجد الله، لأنه موجود، فيحتاج إلى سبب، بمقتضى قانون السببية.

وهـذا قِصَـرٌ في النظرة، وعدم استيعاب لمعنى قانون السببية، الذي لم يختلف فيه العقلاء من الناس.

إن العقل يقرر أنّ كل شيء يمكن وجوده ويمكن عدمه، فمن المحال أن

١ـ يراجع كتاب الله يتجلى في عصر العلم.

يوجـــد دون سبب، لأن نسبة الوجود والعدم إلى ذلك الشيء سواء بسواء، فلا يمكن أن يوجد دون علّة، هذا هو قانون السببية، وهذا هو مجاله.

وهذا يعني أن الأشياء على نحوين:

شيء يمكن وجوده ويمكن عدمه، وهذا هو مجال قانون السببية.

وشيء يجب وجوده ويستحيل عدمه، وهذا يستغني بذاته عن العلة، لأنّا فرضناه واجب الوجود مستحيل العدم، فكيف يعقل أن يكون غير موجود؟ وكيف يعقل أن يفتقر إلى علة؟

كمــا أن لنا أن نتصور شيئاً يجب عدمه ويستحيل وجوده، وهذا هو الممتنع الذي يستحيل له الوجود وتستحيل له العلة.

وإلـــه الكون واجب الوجود، مستحيل العدم فهو غنيّ بذاته عن العلة، وكلّ هذا واضح أتم الوضوح .

وهكذا يتآزر الدّين والعلم، والعقل والفطرة على إثبات حقيقة الحقائق، عـــلى إثبات وجود الله، منـــزل الدين، وملهم العلم، وفاطر العقل والفطرة وهي تـــتآزر جميعاً على توحيده وتـــنـــزيهه.

﴿ بِسْــمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ[1]﴾ .

والنهاية..؟

ومسألة النهاية ترتبط ارتباطاً ذاتياً قوياً بمسألة البداية.

١ــ سورة الإخلاص.

فــإذا كان مبدأ الكون هو الله (تعالى) فإنّ مآبــه – دون شك – إليــه. فإنّ حكم الفطرة الذي أشعرنا بالقوّة العليا المدبّرة المسيطرة، وقانون السببية الذي دلّنا على وجود إله الكون وانفراده بالتدبير، وبراهين العقل التي أثبــتت لنا توحيده وقدرته، وتنــزّهه عن الشريك والمثيل.. كل هذه تدلنا عــلى أنّ بيده الختام، كما أنّ بيده الابتداء، وبأمره السكون، كما أنّ بأمره الحركة.

﴿ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَــمينَ (١) ﴾.

وإنّ الإبداع الذي صمّم عليه جميع أجزاء الكون، والحكمة التي تجلّت في كل صغيرة وكبيرة منه، والغرضية التي ظهرت في كل خليّة يشتمل عليها الكــائن الحــيّ، من حيوان ونبات، وفي كل ذرة يحتويها الموجود من حيّ وجامد، ومتحرك وساكن، تدلّنا دلالة قطعيّة على أن هذه الحكمة لايمكن أن تنتهي بالموت، وأن تتحدد بالفناء.

والمسألة مسألة قدرة وحكمة، فإذا استبنّا قدرة الله التي لاتحدّ، وحكمته التي لاتتناهى، انفسح أمامنا الطريق، وزالت العقبات .

ضرورة الدين:

والمسألة – مع كل أولئك – مسألة عقيدة يقوم عليها دين .

فالإيمــان بــالله – سبحانه– يستتبع الإيمان بأن له ديناً يهتدي إليــه

١ــ المؤمنون: ١١٥

البشـــر أو يضـــلون .. بأن له شريعة يطيعها البشر أو يعصون.

إن الله حـــين خلق الأشياء جعل لكل شيء منها منهجاً وسنّة، يلتزمها ذلك الشيء فيصل بها إلى منـــزلته من التكامل .

والإنسان بعض مخلوقاته، وقد كرّمه فمنحه الفكر الذي يُسيطر به على قـــوى الطبيعة، ويسخّر لإرادته الأشياء، ويستخدم لمصالحه ومنافعه قوانينها، ومـــن الممتنع - بعد ذلك - أن يدعه يتخبّط في متاهة عمياء، دون هداية، ودون منهاج، ودون رادع أو وازع.

إن ذلـــك تحـــدٍّ للحكمة التي تجلّت في جميع أجزاء الكون، وفي خلق الإنسان على الخصوص.

وإنـــه مســـخٌ للإبداع الذي بانت مظاهره في كل الأشياء وفي تصوير الإنسان على الخصوص.

﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاتُرْجَعُونَ[1] ﴾.

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَىً [2] ﴾ .

والحـــقّ الذي وسع السماوات والأرض أعظم من أن تضيق سعته عند الإنسان وحده.

﴿ وَمـــا خَلَقْنا السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ ومَابَيْنَهُما لاعِبِينَ، مَاخَلَقْنَاهُمَا إلاّ بِالحَقِّ ولَكِنَّ أَكْثَرَهُم لايَعْلَمُونَ [3] ﴾ .

١ـ المؤمنون : ١١٥

٢ـ القيامة: ٣٦ .

٣ـ الدخان: ٣٩ .

إن الإيمان بالله يستتبع الإيمان بأن له ديناً يهتدي إليه البشر أو يضلّون.. بأن له شريعة يطيعها البشر أو يعصون، وكل ذلك واضح من مسيرة الكون.

وإذا كان لله دين وهداية، انقسم الناس - دون شك - إلى مطيعين وعاصين، ومهتدين وغاوين، واحتاج القانون إلى الجزاء، واحتاج إلى موعد يتعين فيه المطيع ويتعيّن جزاؤه، ويتعيّن فيه العاصي ويتعيّن جزاؤه، وينفّذ الحكم على الفريقين.

احتاج إلى كل أولئك وإلا كان عبثاً من العبث، أو خيالاً من الخيال، وتنزَّه عنهما ذو الجلال.

الحاجة إلى اليوم الآخر:

وهذه الحياة ليست داراً للجزاء – ولاريب– .

فطالما تمادى المعتدي، وأكبّ الآثم، ومضى الزمان ولم ينالا شيئاً من الجزاء. وطالما أوفى المحسن، وأخلص المطيع، ومضى العمر ولم ينالا شيئاً من الجزاء، وإذن فالجزاء في غير هذه الدّار، وإلا حالت الحكمة، واستحالت النتيجة.

والمسألة مسألة قدرة وحكمة -كما قلت-، فإذا استبنّا قدرة الله التي لاتحدّ، وحكمته التي لاتتناهى، انفسح أمامنا الطريق وزالت العقبات.

والعقل إذا آمن بالله، وآمن بدينه، وصدّق بقدرته وحكمته، صدّق باليوم الآخر، وأيقن بالجزاء فيه.

والجزاء ضرورة لابد منها للقانون وفرض احترامه. وقد قلت في بعض

أحاديثي عن المعاد: (ما أبعد القوانين من غاياها إذا لم تكلأها عين حارسة على التنفيذ، وعقوبة محذورة على المخالفة !

(ما أبعد القوانين عن غاياها إذا لم تكن لها تلك الرقابة الحازمة من بين يديهـــا، وهـــذه القـــوة المرهوبة من خلفها!! إن أحكامها -لولا هاتان- ســـتنقلب نصـــائح خاوية، وإن حكمتها ستتحول فلسفة صامتة، وكم في العالمين من يؤمن بالمثالية للمثالية، ومن يحذر الإسفاف لأنه إسفاف؟

(نعم، لابد لاحترام القانون من الجزاء..

(ولابد للحثّ على عمل الصالحات من المكافأة..

(ثم لامحيـــص من يوم للدينونة تقاس فيه الأعمال، وتُنال فيه الغايات، وتستوفى فيه التبعات.

﴿ والوَزْنُ يَومَئذٍ الحَـــقُّ فَمَنْ ثَقُـــلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ، وَمَـــنْ خَفَّـــتْ مَوَازِينُه فَأُولَئكَ الّذينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُم بِمَاكَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُون[١]﴾)[٢].

من أدلة المعاد في القرآن:

وقد استعمل القرآن في الاستدلال على هذه العقيدة عدة طرائق:

فمنها دليل الغاية..

الغاية التي بها يفترق الفعل الحكيم عن الفعل العابث .

---

١ و ٢ ــ الآية: الأعراف: ٨-٩ ، ــ راجع كتاب الإسلام: ينابيعه، مناهجه، غاياته ص٢٨٨ ط١.

وخلاصة هذا الدليل: أن الإنسان ينظر في أشياء هذا الكون.. كلها.. الكبير منها والصغير، فلا يرى إلاّ شيئاً يتوجّه في سبيل معين إلى غاية.

﴿ ماخَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَابَينَهُمَا إلاّ بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى[١]﴾

وليس من الممكن أن يُستثنى الإنسان وحده من هذه القاعدة.

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى [٢]﴾.

﴿ إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَومَ الحِسَابِ، وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً، ذَلِكَ ظَنُّ الّذِيْنَ كَفَرُوا، فَوَيلٌ لِلّذِيْنَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، أَمْ نَجْعَلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِيْنَ في الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ[٣] ﴾.

ومنها دليل القدرة المسيطرة التي خضعت لها الكائنات، والتي تعالت على الحدود والأزمنة والأمكنة، والجهات والحيثيات.

وليس من الممكن مطلقاً أن تعجز هذه القدرة المهيمنة عن إعادة بعد ابتداء، وعن حياة بعد موت.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أنَّ اللهَ الّذي خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتى؟ بَلَى، إنّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ [٤]﴾.

ومنها دليل النشأة الأولى..

١ـ الأحقاف: ٣

٢ـ القيامة: ٣٦.

٣ـ ص: ٢٦ - ٢٨

٤ـ الأحقاف: ٣٣.

﴿ وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ من سُلالَة منْ طِين، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِـينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عظَاماً، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً، ثُمَّ أنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالقين[١] ﴾.

خـلية ملقحة موحّدة تنقسم وتتكثر وتتصنّف، وينصرف كل صنف مـنها لعملـه الذي يخصّه، وغرضه الذي يهمّه، وتتوزع بناء الهيكل وبناء الأجهـزة، ويـتمّ التصميم، وتتنقل في أطوارها وأدوارها، تصرّفها القدرة ويـلهمها العـلم وتوجّههـا الحكمة، ويستقيم الهيكل، ويتمّ البناء، وتنفخ الروح، ويخرج إنسانا سويّاً كامل الموائز والغرائز والمواهب والطاقات.

إن أمـر الابتداء أعظم من أمر الإعادة، فهل يستكثر على المهندس أن يعيد ما بناه إذا استهدم؟

﴿ أوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ أنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَضَرَبَ لَـنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ: مَنْ يُحْيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيْمٌ؟ قُلْ: يُحْيِيها الّذي أنْشَأها أوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُو بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ[٢] ﴾.

ومنها إعادة الأرض حية بعد الهمود والجمود.

إن الأرض تموت كما يموت الإنسان، وتهمد كما يهمد.. فلا حركة، ولانبتة، ولازهرة، ولاثمرة. ثم يجدّ العطاء، وتجدّ الروح، وتنتعش الأرض بعد الموت. أليس هذا من البعث بعد الموت؟

١ــ المؤمنون: ١٤.

٢ــ يس: ٧٧.

﴿ وَتَرَى الأرْضَ هامِدَةً، فَإذا أنْزَلْنا عَلَيْها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَـــهِيْجٍ، ذَلِكَ بِأنَّ اللهَ هُو الحَقُّ، وأنَّـــه يُحْيي المَوْتى وأنَّه عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ[١] ﴾.

إلى طـــرائق كثيرة استعملها القرآن للتدليل على هذه العقيدة، وكلّها عطاء، وكلها إشراق، وكلها إيضاح.

مواقف بلهاء ومعاندة:

واتخذ بعض الناس من هذه العقيدة موقف الأبله الذي لايعي ما يقال.

واتخذ بعضهم موقف المعاند الذي لايلذّ له إلاّ أن ينكر، ودليله على ما يقول هو الاستبعاد.

﴿ أإذا ضَلَلْنا في الأرْضِ أإنّا لَفِي خَلْقٍ جَديْد؟ [٢] ﴾.

﴿ أإذا مِتْـــنا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أإنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟ لَقَد وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هَذا مِنْ قَبْلُ. إنْ هَذا إلاّ أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ[٣] ﴾.

﴿ إنْ هِي إلاّ مَوْتَتُنا الأُولى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَـــرِينَ، فَأْتُوا بِآبَائِنَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[٤] ﴾.

١ـ الحج: ٦.

٢ـ السجدة: ١٠.

٣ـ المؤمنون: ٨٣.

٤ـ الدخان: ٣٥.

بهذا الاحتجاج الأبله، وبهذا التفكير الساذج يستقبل هؤلاء هذه العقيدة الخطـرة، وتـلك الاستدلالات المشرقة من القرآن الكريم، والإنسان غريب الأطوار والأحوال.

القرآن والتذكير بيوم الجزاء:

وقـد أطال القرآن في تذكير الإنسان بيوم الجزاء، وفي عرض مشاهده، ووصف شدائده وتفصيل أحواله.

وإنّ الـتالي لكـتاب الله، المتبيّن لمرامي آياته، يجد أنه قد ربط تعاليمه كافة بهذه العقيدة. حتى أوشك أن لا يُغفل ذكرها عند حكم، وأن لا يدع التصريح بها أو التلميح إليها في توجيه أو وصيّة أو إرشاد.

وهو يحذّر الإنسان أهوال يوم البعث، ويُنذره فزعه، ويخوّفه عدله[1].

وقد سمّاه بأسماء كثيرة تستحضر معنى الهول والشدة[2].

١ــ يُقرأ أمثال قوله (تعالى) : ﴿ وَاتَّقُوا يَوماً لاتَجزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنهَا عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾. (البقرة: ٤٨).

وقوله تعالى: ﴿وعُرِضُوا عَلى ربِّكَ صَفّاً، لَقَدْ جِئتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُم أوَّلَ مَرَّةٍ بل زَعَمْتُم أنْ لَن نـَجْعَلَ لَكُـم مَوْعِداً، وَوُضِعَ الكتابُ فَتَرَى الـمُجْرِمين مُشْفِقين ممّا فِيه وَيَقُولُونَ ياوَيْلَتَنا مَالِهَذا الكِـتابِ لايُغَـادِرُ صَغِيرةً ولا كَبِيرةً إلاّ أحْصَاها، وَوَجَدوا ما عَمِلُوا حاضِراً ولا يَظْلِمُ ربُّك أحَداً ﴾ (الكهف: ٤٩-٥٠).

٢ــ إذ سمّاه يوم الدين في سورة الفاتحة – الآية: ٣، وسمّاه يوم الحسرة في سورة مريم – الآية: ٣٩، وسمّاه الواقعة في سورة الواقعة الآية الأولى، ويوم التغابن في سورة التغابن – الآية: ٩، والحاقة في سورة الحاقة

وهـــو يصوّر المواقف المرعبة ليوم الفصل، ويعرض المشاهد المخيفة التي تنتظر الإنسان فيه، والنهايات المسعدة أو المخزية التي تعقبه[١].

وهـــو يهزّ المشاعر المختلفة، ويكشـــف للبصيرة ما ينتظرها من عاقبة مسّــرة، أو مغــبّة مُحزنة. ويحذّره الغفلة ويخوّفه النكسة، وما يكون له أن يغفل، وما يكون له أن يهزل، وما يكون له أن ينتكس، وقد عرف أسباب ذلـــك وعواقبه، وما يكون له أن يتردّى، فكل عمل عليه رقابة، و كل عمل عليه جزاء.

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [٢] ﴾ .

﴿ وَكُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ [٣] ﴾ .

- الآية: ١، والقارعة في سورة القارعة - الآية: ١، والطامّة الكبرى في سورة النازعات - الآية: ٣٤، والصـــاخّة في سورة عَبَس - الآية: ٣٣، و الغاشية في الآية الأولى من سورة الغاشية - إلى غيرها من الأسماء.

١ـ إذ يقـــول مثلاً -في سورة الحج- الآية ١: ﴿ يا أيُّها النّاسُ اتَّقُوا ربَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ، يـــومَ تَروْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرضِعةٍ عَمّا أرْضَعَت وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَـــمْلَها، وتَرى النَّاسَ سُكارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ولَكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾.

ويقـــول في ســـورة إبراهيم - الآيات (٤٢-٤٣، ٤٨-٥٠): ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّـــالمون، إنمـــا يُؤَخِّـــرُهُم لِيَومٍ تَشْخَصُ فيه الأبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِم لايَرْتَدُّ إلَيْهِم طَرْفُهُم وأفْـــئِدَتُهُم هَـــواءٌ ... يَـــومَ تُبَدَّلُ الأرْضُ غَيرَ الأرْضِ والسَّمَاواتُ، وَبَرَزُوا لِلّه الوَاحِدِ القَهّار. وَتَرَى الـــمُجْـــرِمِين يَومَئذٍ مُقَرَّنِين في الأصْفَادِ. سَرَابِيلُهُم مِنْ قَطِرانٍ وتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النّارُ ﴾. إلى غير هذه السياقات الكريمة.

٢ـ القمر: ٥٣.

٣ـ الطور: ٢١.

وحـــتى مـــا تـــنطوي عليه الجوارح، عليه رقيب لا يجهل ولا يغفل، وحسيب لا يضّل ولا ينسى، ومُجازٍ لا يحيف ولا يُخادع.

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُم أوِ اجْهَرُوا بِهِ، إنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُو الّلطِيفُ الخَبِيرُ [١] ﴾ .

وبعـــد كل هذا، فعون الله ورحمته ورأفته ومغفرته تقيل العاثر، وتقبل الـــنادم، وتجيـــب المضـــطر، وتؤمـــن الخائف، وتقوّي الضعيف، وتؤنس المستوحش.

هكذا يشد القرآن أزر المسلم، ويُمسك بعَضُده، ويسدّد خطاه، ويقيه المـــزالق. فلا يدع للغفلة عليه سبيلاً، ولايترك للضعف ولالليأس على إرادته دليلاً، وهذه بعض مرامي الأدلة الغفيرة التي حثّت على تلاوة الكتاب والتدبّر في آياته.

إن المســـلم لـــن يغفل، ولن يجهل، ولن يخور، ولن يذل، فكتاب الله قائده، وسائقه. يُرشده في كل خطوة، ويسدّده عن أي كبوة. ومن الله أتمنى لكم ولي التوفيق لأن نجعل من أنفسنا مثال المسلم الصحيح.

١ــ الملك: ١٣.

مشكلة الكون

كـــنت تعرضـــت لمشكلة الكون في حديث ألقيته سابقاً حول المبدأ والمعـــاد، أجمـــلت فيه القول عن المشكلة، ووقفت فيه وقفة الناقد، السريع العـــرض، المجُمِل النقد، وقد كان ذلك مني استجابة لوحدة الموقف وقِصَره، وتعـــدّد أنحاء البحث فيه، ووجدت من حسن تقبّل مستمعي الحديث، وبالغ إقبالهم وتقديرهم، وطلب بعض الأحبة أن أعود للمشكلة مرة ثانية، فأبسط القول بعض البسط، بما يحتمله الموقف الواحد القصير أيضاً، وضمّ موقف إلى موقف، وقصير إلى قصير، سيكون أوفر استيعاباً -ولاشك-، وأكثر تسليطاً للنور على مواضع النقد، وخصوصاً إذا كان موضوع الحديث في هذه المرة خاصّاً في مشكلة الكون لايشمل سواها.

الفكرة السوفسطائية:

وأول مهـــزلة يـــأتي بهـــا العقـــل البشري في هذا السبيل هي فكرة السوفسطائيين.

فكـــرة إنكار مافي الكون من حقيقة، فلا وجود، ولا مادّة، ولاطبيعة، ولاسماء، ولا أرض، ولا إنسان، ولاحيوان، ولانبات، ولا .. ولا ..

لاشيء أبداً أبداً، وإنما هي صور ترتسم في الأذهان.. صور وهميّة غير

مادية يختلقها الذهن، ولاتخضع لما تخضع له المادّة من طرق علمية توجب اليقين.

هذا هو كل ما نستطيع أن نعرفه عن الكون.. وهمٌ خالص، ولاطريق لنا إلى معرفة الكون سواه، فكيف نثبت حقيقة الكون ؟!

ولست أدري هل يسري الأمر إلى أبعد من ذلك أم لا؟!

فهل ينكر (سير جيمس جينز) -رأس السوفسطائيين المعروف- وجود نفسه ؟ وهل يفتقر في معرفة ذاته إلى صورة ذهنية، ليقول عنها: إنها وهميّة غير مادية، لاتخضع لما تخضع له المادة من طرق علمية تُوجب اليقين ؟

إن معرفة الإنسان ذاته -أيها الأعزاء- لاتفتقر إلى صورة ذهنية، وعلم الإنسان بذاته حضوري كما يحسّه كل أحد .

إن معرفتي بوجود غيري من الأشياء والأحياء تفتقر إلى صورة يرسمها ذهني لذلك الشيء الذي أُريد معرفته، لأن الأشياء لايمكن أن تكون في الذهن بذواتها، وإنما ترتسم فيه صورها، أما معرفتي بوجودي أنا، فهي نفس حضور ذاتي لذاتي، فأنا معلوم لنفسي بالذات لابالصورة، لأن العالِم هنا عين المعلوم، وهذا الأمر واضح جداً لايقبل المناقشة.

وإذا علم الإنسان بذاته كان للكون حقيقة ما، تكون منطلقاً للبحث، وهي كافية لإبطال فكرة السوفسطائيين.

على أن الإنسان إذا لم يستطع حتى معرفة نفسه إلاّ بالصورة الذهنية، وكان كسائر مظاهر الكون وهماً لاحقيقة له -كما يدّعون-، كانت تصوراته وأحكامه وأفكاره وهماً من الأوهام كذلك، لأنها من آثاره وتوابعه،

ولذلك فيصحّ لنا أن نحكم حكماً قاطعاً بأن قول السوفسطائيين بنفي حقيقة الكـــون إنمـــا هو وَهْمٌ من الأوهام لأنه من آثارهم، وأثر الوهم وهمٌ -بلا ريب-، هذا من ناحية.

ومـــن ناحيـــة أخـــرى، فإنّ معرفتنا بقولهم إنما هي صورة ترتسم في الأذهان، وهي وهميّة غير مادية، لاتخضع لما تخضع له المادة من طـــرق علمية توجـــب اليقـــين، ولا طريق لنا إلى معرفته سوى ذلك - كما يقولون عن الكون سواء بسواء -، فهو وَهْمٌ لايمكن التعويل عليه.

إن هذا القول شبهة في مقابل البداهة -كما يقول القدماء - والمشكلة التي يعانيها هؤلاء هي مشكلة إنكار الأوليات والبَدَهيّات التي يملكها العقل، ويجعلها أساساً لمعرفته الأشياء، وهي شيء لايعتني به العقل الحصيف .

وهـــذا القول مثال واضح لإسفاف الفكر البشري حين يركب رأسه، ويترك أسُسَه وأولياته، ويسير خابطاً على غير هدىً.

مع قانون السببية:

وحين يترك الإنسان هذه البؤرة، ويرتفع بنفسه عن هذه الخِطة، ويفتح بصره على النور، يحسّ إحساساً هو فوق الشكوك والشبهات، أنه في كون فسيح عجيب، يعج بالبدائِع ويزدحم بالمُدهشات، أقربُه منه نفسه -إذا صحّ مـــنّا هذا التعبير- وأبعده منه هذه العوالم المترامية التي يحيط بها هذا الفضاء العظيم. وإذا كانت شـــمـــسنا هذه بقدر الأرض مليـــون مرة -كما يقول العـــلم- فمـــا شـــأن النـــجوم الأخـــرى التي يقـــدّر بعـــضـــها بقدر

الشمس أربعمائة مرة كالشعرى اليمانية، ويقدر بعضها بقدر الشمس ألفي مرة كسهيل؟!!

ثم ما شأن المجرّات التي ليست هذه النجوم الضخمة إلاّ نقطاً صغيرة في بناء هيكلها ؟!!

ثم ما شأن الفضاء الذي يعوم فيه مائة مليون مجرة، وكل مجرة تحوي مائة مليون نجم – عدا الكواكب والتوابع – وهي لاتشغل منه إلاّ كما تشغل السفن الصغيرة القليلة من المحيط اللّجي العظيم، على فارق كبير جداً بين المحيطين؟؟!

إن العلم لَيكتشف ويكتشف ويكتشف، وسيبقى يكتشف إلى آخر أيامه، ثم لايُبصر حدّاً تنتهي إليه عجائب هذا الفضاء العظيم.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ - لَو تَعْلَمُونَ عَظِيْمٌ [١] ﴾.

أحسّ الإنسان بذلك إحساساً لايقبل الشك، وعَلِم به حقّ العلم، وارتقى يستزيد من الإحساس ويستزيد من العلم، ووقف بفكره عند النقطة الأولى التي ابتدأ منها هذا الوجود.

إنه لايستطيع أن يصدّق أبداً أن يكون هذا الوجود كلّه مسبوقاً بالعدم الشامل، إن البداهة الفكرية تقول له بصراحتها: لاشيء يحدث من لا شيء، وكيف يمكن أن يحدث وجود ولم يكن قبله وجود يتولّد منه، أو يحدث بتأثيره؟

إن العدم لا يلد وجوداً ولا يؤثر فيه، وهذه بديهة من البدائه.

١ـ الواقعة : ٧٥ ، ٧٦

أمـــا أن يكون هذا الشيء الموجود الحادث بعد العدم قد أوجد نفسه بنفسه، فهو أشد استحالة وامتناعاً، لأنه يعني أن الشيء كان موجوداً قبل أن يوجد، ليصح أن يكون مُوجِداً لنفسه، فإن المعدوم لايمكن أن يكون مؤثراً، ثم هـــو يجب أن يكون معدوماً في ذلك الآن ليمكن له أن يتلقى الوجود من ذاته، فإن إيجاد ما هو موجود من تحصيل ماهو حاصل، وذلك محال..

وقـــف بـــه التفكير عند بداية هذا الوجود، يلحّ ويلحف في التساؤل، إلحاحـــاً وإلحافـــاً ما عليهما من مزيد، ولو أنه التفت إلى ركيزة الإيمان من فطرته، أو إلى ركائز البرهان في فكرته، لاختصرا له الطريق، ووفّرا له الجهد، ولاســـتبان له النور الذي يُبصر به المعالم، ولم يتحيّر، ولم يتردّد، أو لم تَطُل حيرته وتردّده –على أدنى التقادير– .

مع الفطرة:

والفطرة هي نداء الخلقة في الإنسان.. في شعوره، وفي وجدانه، وفي عقله.

هـــي نداء الحاجة الذاتية في كل معلول إلى علّته التي تسدّ له الحاجة، وتُفيض عليه الوجود بعد العدم، والكمال بعد النقص.

.. إن لكلّ معلول حاجة ذاتية تشدّه إلى علته، وتعقد كيانه بها، وتحوّل وجهـــه إليهـــا أنّى كان، وأنّى توجّه، هي فاقة الشيء إلى مصدر وجوده، ومصـــدر كماله بعد أن يوجد، ومصدر تدبيره ومده بالطاقة والنشاط طوال حياته وبقائه.

وهـــــذه الحـــاجـــة الذاتية في المعلول، وهذا التوجه الطبيعي بوجهه شطر

علته، هما سرّ الدلالة الطبيعية الفطرية للمعلول على العلة، والأشياء كلّها مشتركة في هذه الحاجة، وفي هذه الدلالة، أو في هذا الاعتراف الطـــبيعي بالحقّ.

والأمـــر الذي يختصّ به الإنسان في هذا المجال –دون غيره من الأشياء والموجودات– أن الإنسان كائن ملؤه الشعور، والشعور الكامل والتفكير من المميـــزات الأصيلة لإنسانيته، أوهما من المقوّمات لها. ونتيجة لذلك فلابدّ له مـــن الشـــعور الكامل بحاجته الذاتية إلى علّته، ولابد له من الشعور الكامل بتوجهه نحوها.

وقـــوة الشـــعور في الإنسان، وقوة العقل بذاهما من الهبات الموجودة بعطـــاء العلة وتأثيرها، فهما كذلك شاعرتان بحاجتهما الذاتية، وبانقطاعهما إلى العـــلة الموجـــدة، وأخيراً فهما معترفتان بها اعترافاً طبيعياً يؤمنان به في قرارتيهما، وقد ينكرانه تحت تأثير التقاليد والأهواء.

هـــذه الفطرة التي أرجع الله (جل وعلا) الإنسان إلى حكمها في كثير مـــن آيـــات الكتاب العزيز، أرجع الله الإنسان إلى حكمها عند وقوعه في الشدائد، وعلوقه في حبائل القدر، فإن هذه المآزق ترجع الفطرة إلى سلامتها وتنفض عنها غبار المؤثرات.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً [١] ﴾.

ولا أطيـــل في التحدّث عنها ولكني أشير إلى سرّ هذه الركيزة، وإلى

١ــ الإسراء: ٦٧

أهمّية وجودها في بناء الإيمان.

مبدأ الغرضية:

وقانون السببية وهو الآخر كنت قد وقفت عليه في حديثي السابق عن المبدأ والمعاد ، وتحدثت عن معناه وعن مجاله، فلا أعيد، ولكنني أودّ أن أشير إلى دخالة هذه الركيزة الطبيعية في بناء الإنسان.

إن علم الأجنّة يحدّثنا -وهو الخبير العليم بصدق ما يقول-: إن الحوين المنوي المذكر يندفع بنشاط وقصد في طلب بويضة الأنثى، يشق إليها طريقه المعـــنت الطويـــل، وإن بويضة الأنثى قد تدنت في انتظاره وتهيأت لملاقاته، فكلاهمـــا قاصـــدان، والفـــارق ما بينهما في ذلك هو الفارق بين الموجب والسالب، اللذين تتألف منهما الشحنة الكهربائية الموحّدة، فالموجب طالب، والسالب مطلوب في الأكثر.

ويقتربان فينشطر كل واحد منهما بالطول لا بالعرض ، وتنشطر كل جزيئاته ومحتوياته وكروموسوماته، فيلقي منها نصفاً، ويلتقي النصف الباقي مـــن خلية الذكورة بالنصف الباقي من خلية الأنوثة قاصدين، فيكون الاتحاد ويكـــون التلقيح. وتنشأ الخليّة الملقحة الموحّدة، ثم تبدأ طريقها بالتكاثر عن ســـبيل الانقســـام، فتصـــبح الخليّة الواحدة خليتين، ثم تكون الثنتان أربعاً، والأربـــع ثمـــاني، وهكذا في سبيل محدّد ميسّر، فكل خلية تسير في سبيلها لاتعدوه.

ثم تتصنف الخلايا أصنافاً، وتتوزع أعمالها توزيعاً، ويختصّ كل صنف في بناء

ناحية أو جهاز أو جارحة من الجسم لايعدوه إلى سواه، حتى أن الخلايا المنصرفة إلى تكوين العين -مثلاً- لايمكن أن تصنع إلاّ عيناً، وإن نقلناها إلى غير موضعها الطبيعي مـــن الجسد، وكذلك الخلايا الموكلة بصنع الأذن أو اليد أو الرجل، هن قولة علم الأجنة الحديث، يقولها دون شك ولاتحفّظ.

ومعنى ذلك، ولندع هنا -ولو مؤقتاً- قول الإلهيين الذين يقولون بوجود إله يصـــدر عنه الكون، ويوجّه الخلايا بإرادته إلى بناء هيكل الجنين كما تشاء الحكمة، لندع ذلك -ولو مؤقتاً- لتتسنى لنا مداورة الحديث مع منكر الألوهية.

أقـــول: ومعنى ذلك أن خلايا الإنسان كلّها، ومنها خلايا مخّه التي بها يشعر ويفكر ويلاحظ.. أن خلاياه كلها تسير على مبدأ الغرضية، فالغرض يســـوقها إلى الغايـــة المحـــدّدة، وهي لا تحيد أبداً عن هذا السبيل. تسير إلى أغراضها المعيّنة مُذعنة بهذا المبدأ وبهذا السبيل.

والغرضـــية عبارة عن ارتباط السبب المحدّد بغرضه المحدّد، فهي عبارة أخرى عن قانون السببية، أو هي نتيجة بيّنة من نتائجه.

ومعنى ذلك بالعبارة الأخرى الواضحة: أن خلايا الإنسان كلها، ومنها خلايـــا مخّه التي بها يشعر ويفكّر ويلاحظ .. أن خلاياه كلّها مفطورة على قـــانون السببية، وارتباط الأسباب بغاياتها، وأن قانون السببية ومبدأ الغرضية هما ركيزة التكوين في بناء الإنسان ، وبناء خلاياه الصغيرة التي منها يتكوّن.

ونعـــتقد أننا لانبعد كل البعد إذا قلنا: إنهما ركيزة التكوين كذلك في بـــناء جزيئاته الدقيقة التي تتكوّن منها الخلايا والأمصال والإفرازات، ولعل العلم قال كلمته في ذلك.

ولا نبعد كل البعد إذا قلنا: إن مبدأ الغرضية وقانون السببية هما ركيزتا التكوين في بناء كلّ خليّة حيّة يتألف منها تركيب الحيوان والنبات، بل والذرة التي يتقوّم بها بناء الكون كلّه، حيّه وجامده، متحركه وساكنه، فإن القصد ظاهر في كل أولئك، ولامكان للخبط والعشوائية والمصادفة في شيء من مظاهر هذا الكون العظيم.

هذا هو قانون السببية. ركيزة في فطرة كل حيّ، وفي كيان كل شيء، وفي طبيعة كل بسيط ومركّب.

وركيزة في فطرة الإنسان وفطرة عقله، وفطرة خلاياه وجزيئاته، وهو مذعن به، وبثبوته في كل أولئك المراحل فهل يفتقر بعدها إلى برهنة وإلى إثبات؟

ومرة أخرى وقف التفكير بالإنسان عند بداءة هذا الوجود يلحّ عليه ويلحف بالسؤال إلحاحاً وإلحافاً ما عليهما من مزيد، ولو أنه التفت إلى ركيزة الإيمان من فطرته، أو إلى ركيزة البرهان في فكرته لاختصرا له الطريق، ووفّرا له الجهد، واستبان له النور الذي يبصر به المعالم، ولم يتحيّر ولم يتردّد، أو لم تَطُل حيرته وتردّده على أقل التقادير.

ولكنه لم يأبه لركائز اليقين فتمادى به التفكير وتمادت به الحيرة.

مع النظرية المادية:

وافترقت به السبل إلى فرقتين: فرقة أنكرت ما وراء المادة وما وراء الحسّ.

فالمادة وتوابعها ونتائجها هي الشيء المحسوس، فهي الموجود على

الحقيقــة، ومـــا وراء المادة غير محسوس ولا تناله التجربة فهو غير موجود، وفرض وجوده وهمٌ وخداع.

المـــادة هي الموجودة، وهي أزلية لاصانع لها ولاموجد، ولاشيء غير المادة، وغير قوانينها التي تحكمها، وتوجّهها في مختلف الاتجاهات.

وخيّـــل لها أنها -بهذا- قد حلّت المشكلة التي يلحّ بها الفكر: (مشكلة الكون).

والفكـــر الواعـــي يوجّه إلى هذا الفريق عدداً من الأسئلة لابّد له من الإجابة عنها:

كيـــف اســـتوجبت المادة صفة الأزلية، وهي التي لاتستوجب بذاتها الوجود إلا بعلّة مؤثّرة سواها؟

إن المـــادة ممكنة الوجود ولاريب، ولايدّعي أحدٌ لها وجوب الوجود، وممكـــن الوجود لايوجد إلاّ بعلة تامّة تفيض عليه الوجود، وإذا كانت المادة محتاجة إلى العلة في أصل وجودها، فكيف تكون بذاتها أزلية الوجود؟ إنها لن تكـــون موجودة ولن تكون أزلية بذاتها، ولن تكون كذلك إلاّ بِعلة مؤثّرة خارجة عنها.

وكيف استوجبت المادة صفة الأزلية، وهي المتغيّرة التي تتبادلها الصّور، وتتـــنازعها القوانين، وتتقاسمها العلل والمؤثرات؟ وما كان شأنه كذلك فهو حادث، ومجموعة من الحوادث لايمكن أن تكون أزلية.

وكيف تنحصر طرق المعرفة بالحسّ والتجربة؟!

والأوليـــات والبدهيات التي يستيقن العقل صدقها بذاته، ولا يفتقر في

تصـــديقها إلى إثـــبات، أليســـت طرقاً للمعرفة كذلك، ومنها حكم العقل باستحالة اجتماع النقيضين؟

والتجربة والحسّ، بماذا أثبت العقل أنهما طريقان للمعرفة الصحيحة ؟

أبالتجربة والحسّ ذاتهما؟! وهل يثبت الشيء بنفسه؟!

أم بطريق آخر هو أوضح ثبوتاً عند العقل منهما؟!

وإذن فلـــلعقل معلومات أوليّة يرجع إليها، هي قبل الحسّ والتجربة، وهي أوضح ثبوتاً عند العقل منهما.

كيف ينحصر الوجود بالمحسوس؟! فإن كثيراً من الأمور نعلم بوجودها يقيـــناً لوجـــود آثارها وهي غير محسوسة ولا مشاهدة، حتى بأدق الآلات والمجاهـــر، منها الطاقة والرّوح والجزيئات التي تتألّف منها الذرّة، بل الذرّة ذاتها.

إن جزءاً من عشرة ملايين جزءاً من المليمتر الواحد لاتستطيع المجاهر القويـــة، ولا الأدوات الدقيقـــة أن تراه، ولكنه موجود على أي حال، وهو الذرّة التي كشف العلم في تركيبها وفي تفجيرها العجب العجاب.

إن هـــذا الجـــزء الصغير لايرى ولايحس إلاّ بآثاره -كما يقول بعض عـــلماء الطبيعة-، فما شأن نوية الذرّة؟ وهي تصغر عنها مليون مرة – كما يقول العلم -، وما شأن الجزيئات التي تحوم حول النواة؟ وما شأن الدقائق الأخرى التي تتألف منها الشحنة؟ إنها أمور لم يدّع أحد إلى الآن رؤيتها، و لم يشكّ ذو عقل بوجودها، لوجود آثارها.

وما أكثر الشواهد من أحاديث الفلك وأحاديث الطبيعة على ذلك!!

إنّ العــلم لاينكر مالايحسّ، ومواقفه في اكتشاف المجهولات التي رأى آثارهــا و لم يشــاهد أعيانها كثيرة معروفة، ومن أجل ذلك عرف بالمصابرة والمثابرة، وعرف العلماء بقوة الجلد وطول المران.

إنّ العلم لاينكر مالا يحسّ، ولكن الفلسفة الوضعية تبنّت قولة العلم في اعــتماد الحس والتجربة في ميادين المادة، ثم أفرطت في الاستنتاج فأنكرت مالا يحسّ، وهو قول يعوزه الإثبات.

وقوانين الكون الثابتة التي تحكم المادة وتسيّرها وتوجّهها.. مَن الذي وضعها، وأطلق حكمها في تدبير الطبيعة وتصريفها؟ أهي المادة نفسها أم ماذا؟

وهل من الممكن أن تكون موجودة وأزلية بذاتها ولا واضع لها؟

إن العقل الواعي يقف عند كلّ واحدٍ من هذه الأسئلة وأمثالها، وهو يوجّههــا، ولايجد الجواب عنها فيرى أن (مشكلة الكون) لم تحلّ بذلك ولن تحل، بل ازدادت تعقيداً وإعضالاً.

مع اللاأدريين

وفرقة أخرى ارتابت في الأمر، ووجدت نفسها بين حلّين لاثالث لهما، فعليها أن تبيّن أمرها، أيّ الحلّين أدنى إلى الصواب.

إما أن تقول بأزلية العالم، واستغنائه بوجوده عن العلة المؤثرة ... عن الإله.

وإما أن تقول بحدوث العالم وحاجته إلى مكوّن مُحدث.. إلى إله.

وكأنها ظنت أن حاجة العالم إلى العلة آتية من جهة حدوثه، ولذلك فإذا كان أزلياً فلا حاجة إلى صانع مدبّر.

وهذا هو موطن الضعف في القول، فإن حاجة العالم إلى العلة آتية من جهة إمكانه لا من جهة حدوثه، ذلك أن الشيء الذي يمكن وجوده بذاته ويمكن عدمه، يستحيل أن يترجح وجوده على عدمه بدون مرجّح من خارج ذاته.. بدون علّة تفيض عليه الوجود.

وهذا هو مجال قانون السببية، وقد أوضحت ذلك في حديثي عن المبدأ والمعاد.

ونتيجة لذلك فالعالم يستحيل أن يكون موجوداً بذاته، بدون علّة وإن كان أزلياً.

هذا حكم العقل الواعي، والبرهان المنير في أصل المشكلة، وأمّا حكمه في أزلية العالم، فقد أشرت إليه في غضون هذا الحديث.

إن العالم ممكن -كما قلت-؛ فهو لايستوجب الوجود بذاته، بل يفتقر في وجوده إلى علة، وإذا كان لايستوجب الوجود إلاّ بعلة؛ فكيف يستوجب أزلية الوجود بذاته ودون علة؟ إنه تناقض وإحالة.

وإن العالم المادي متغيّر متصرّم، والمتغيّر حادث، فإن كل موجود خاص من موجوداته حادث ولاشك، ومجموعة من أشياء حادثة لايمكن أن تكون أزلية.

وأما قولة العلم في ذلك فقد أشرف إليها في حديثي السابق، وأودّ أن أتناولها بشيء من الإيضاح.

إنّ الطاقة الكونية الموجودة التي تمدّ الأحياء والأشياء محدودة، ولا إشكال.

وإن الطاقة الميسورة تتحوّل إلى طاقة غير ميسورة، ثم لاتعود -كما

يقول القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية-.

إذن فليس للطاقة الميسورة مدد غير هذا الركام الموجود المحدود، وكل ما يفنى من الطاقة الميسورة فليس له بدلٌ يخلفه، وإذن فلابدّ وأن تفنى الطاقة الميسورة، ولاتجد الأشياء والأحياء طاقة تمدّها.

وإذن فـــلا محيـــد من أن يصل العالم كله إلى درجة الصفر المطلق، إلى الفناء العام.

هذا ما يقوله العلم ويثبته، ولايبقي فيه مجال للتشكيك.

ويتدخّل الفكر الواعي، ليتم الاستنتاج فيقول:

وإذا كان العالم محدود الآخر، فهو غير أزلي كذلك، لأنه لو كان أزلياً غـــير محـــدود الأول، لكان العالم قد أدركه الفناء منذ زمن بعيد، لأن طاقته الميسورة مهما بلغت، فلا يمكن لها البقاء طوال هذه القرون.

ولمـــا وجدنا العالم لايزال موجوداً، ووجدنا الطاقة الميسورة لاتزال تمدّ الأشـــياء والأحياء، علمنا يقيناً أنّ العالم إنما نشأ منذ أزمان يتسع طولها لبقاء هذه الطّاقة وبقاء مددها، فالعالم المادي محدود الأول كما هو محدود الآخر، حدّدته الطاقة التي تمدّ ثم لاتتجدد.

النظرية الإسلامية:

أمـــا قولـــة الإسلام في ذلك فهي قولة الفطرة السليمة، وقولة الفكر الســـليم، وقولة البرهان المنير، وقولة الآيات البيّنة، التي ملأت آفاق السماء ومـــناكب الأرض ، وقولة الموجودات من حيّ ونبات وجماد، وقولة أديان

السماء التي أنزلها ربّ السماء، وقولة الرّسل المطهّرين لأممهم:

﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوات وَالأَرْضِ[1] ﴾.

إنها التسبيحة الكبرى التي يردّدها كلّ رطب ويابس، ويجهر بها كل صامت وناطق، ويحني بها هامته كل صغير وكبير.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوات وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالشَمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ[2] ﴾ .

إنّ الكون كُلّه ليتآزر ويتعاضد ويقول كلمته الواحدة الواضحة يعيها من يعي، ويُصمّ سمعه عنها من يُصمّ: إنّ كل ما هنا أثر رحمة، وتجلّي حكمة، وكل ما هنا آية قدرة، ودليل علم وبرهان، وجود لايُشبهه شيء مما في هذا الوجود.

إنّ كلّ ما هنا فقرٌ يدلّ على غنى مطلق، وكلّ ما هنا نقصٌ يدلّ على كمال مطلق، وكلّ ما هنا عجزٌ يدلّ على قدرة مطلقة، وكل ما هنا جهلٌ يدلّ على علم مطلق، وكل ما هنا حدود ونهايات تدلّ على وجود لا ابتداء له ولا حدّ ولانهاية.

إنّ صانع الكون يجب أن يكون منزّهاً عن نقائص المادة، ولوازم الحدوث والإمكان، ولو كان له بعض هذه الشؤون لكان مفتقراً بدوره إلى

١ــ إبراهيم: ١٠

٢ــ الحج: ١٨

صانع .. إلى إله.

هــذه قولة الإسلام، وقولة الفطرة في الإنسان، وفي كل شيء، وقولة البرهان المنير.

يــريد ليرفع النور لهذا الإنسان فيبصّره السبيل، ويرتفع به إلى الغاية، ويقيــه شــرّ التخبّط، ولكن الإنسان يصرّ إلاّ أن يُطبق عينيه، ويوقِر سمعه، ويوصد أبواب قلبه، ويسير خابطاً في متاهة، ثم يصرّ إلاّ أنْ يسمّيها: (مشكلة الكون)، على ارتفاع النور، ووضوح المعالم.

﴿ قَــدْ جَــاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُــبُلَ السَّــلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ[1] ﴾.

صدق الله العلي العظيم.

١ـ المائدة: ١٦

آيات الهدى والضلال

كثر السؤال من بعض الأبناء عن آيات الهدى والضلال في القرآن الكريم، وكثر الاستفهام عن معناها، وعمّا تتلقفه بعض الأذهان من دلالتها على معنى الجبر على الهدى لبعض الناس، والجبر على الضلال لبعضهم.

كثر السؤال عن هذا في مناسبات شتى، وهي شبهة أثارها القائلون بالجبر يقيمون عليها مذهبهم، ويؤلّفون من هذه الآيات - بحسب ما يتراءى لهم من معناها - حجتهم.

وحديثي الليلة سيكون حول عقيدة العدل في الإسلام، وبعض مثبتاها، وأنوارها وظلالها. وسأتعرّض - في خلال ذلك - لمذهب الجبر، ومذهب التفويض، وحديث الأمر بين أمرين أو المترلة بين مترلتين، الذي يقول به أهل البيت(ع)، وبالأحرى: الفكرة التي يقوم عليها الإسلام وتبتني حقائقه، وترتبط بها مناهجه وغاياته، وسأتعرض في خلال ذلك لهذه الآيات التي يسأل عنها السائلون، ونتبين بمشيئة الله – تعالى - معناها.

وعقائد الإسلام لاتَبْتَني إلاّ على برهان منير، ولا تقوم إلاّ على سندٍ متين، ولا يمكن مطلقاً أن تؤخذ من نظرات ابتدائية في ظواهر ألفاظ من آيات.. من نظرات ابتدائية لا أصالة لها ولا ثبات، ولا يقرّها منطق، ولا تسندها حجة، وخصوصاً في مثل هذه العقيدة التي تمسّ جوهر الدّين، وتلوّن حقائقه، وتحكم بالعقم أو الإنتاج على مناهجه.

إله الكون منّزه عن النقائص :

ينظر العقل الحصيف الواعي في أغوار هذا الكون، وفي مظاهر الإبداع والجمال فيه، فيستيقن أن كل ما هنا آية بيّنة، وحجة قاطعة، وبرهان منير.

إنّ كل ما هنا أثر يدلّ على مؤثر، وكل ما هنا حركة تدلّ على محرّك، وكل ما هنا إبداع وتكوين يدلّ على مكوِّن مبدع.

وينظر العقل الحصيف الواعي في أغوار هذا الكون، وفي آفاقه وأبعاده، فيرى لهذا الكون وحدة كبرى تربط بين أشيائه وأجزائه، فكل أشيائه وأبعاضه تسير في مدى واحد إلى اتجاه واحد، ولا اختلاف ولا تباين، ولا تصادم في القوانين، ولا تخالف في الغايات، فيعلم - حق العلم - أن الإرادة التي تسيّر الكون، وتحكم قوانينه وموازينه إرادة واحدة.

إن العقل يرى مياه البحر اللجّي تسير كلها بحركة واحدة، وتتجه إلى وجهة واحدة، فيوقن ولا يشك أن القوة التي سيّرت هذه المياه قوة واحدة.

ويرى الجيوش العظيمة تتحرك متفقة في الجهة، وفي المدى، وفي الغرض، فيعلم أن القيادة التي توجّه هذه الجيوش الكثيرة وتشرف على حركتها قيادة واحدة.

ويرى المصنوعات الكثيرة المتنوعة تحمل طابعاً واحداً، وتتميز بعلامة معيّنة، فيعلم أنها من إنتاج مصنع واحد، ولايمتري في شيء من هذه النتائج وأمثالها، ولا يقبل جدلاً من مجادل.

وقد أرجعه القرآن إلى هذه الركيزة ليستدل بوحدة الكون على وحدة مكوّنه العظيم.

﴿ الّـــذي خَلَقَ سَبْعَ سماوات طِباقاً ماتَرَى في خَلْقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كرَّتَين يَنْقَلِبْ إليْك البَصَرُ خاسئاً وهو حَسيرٌ [١]﴾.

ويـــرى العقل الحصيف الواعي حياة فيعلم أنها من صنع حيّ، لأن غير الحيّ لا ينتج حياة.

ويرى تصويراً وتقديراً فيعلم أنهما من فعل عالم قدير.

ويرى إتقاناً في التكوين، وفي الغاية، فيعلم أنه من إيجاد حكيم خبير.

ويـــرى في الأشياء كمالاً بعد نقص، وغنى بعد فقر، وقوّة بعد ضعف، فيعـــلم أنها من آثار كامل غني قوي، لأن الفقر لا ينتج غِنى، والعدم لا يُثمِر وجـــوداً، وفـــاقد الشيء لا يعطيه، وكل هذه أمور يُدركها العقل ببداهته، وكلّها من أبعاد قانون السببيّة.

ثم إن الحياة في هذا الكون تدلّ على أن موجد الحياة حيّ بالذّات، وأن بدائع القدرة فيه تدل على أن مصدر هذا البدائع قديرٌ بالذّات، ومجالي العلم والحكمـــة تـــدّل عـــلى أن مـــبدأها عالم وحكيم بالذّات، وشواهد الغنى والاستكمال فيه تدل على أن سببها غنيٌّ وكامل بالذّات، لأن إله الكون لو لم تكـــن له هـــذه الصفات بالذّات لكان ناقصاً ومحتاجاً في حياته وفي قدرته وعـــلمه وحكمته وغناه وكماله، فيكون محتاجاً إلى من يسدّ له هذا العوز، ويـــتم له هـــذا النقص، فيكون مدبَّراً مربوباً. وتعالى الله عن سمات النقص

١ـ الملك: ٤.

ولوازمه.

إلــه الكون موجود بذاته لابعلّة سواه، وهو حيّ وقدير وعالم وحكيم وغنيٌّ وكامل بذاته لابعلّة سواه، ولا بصفات زائدة على ذاته توجب له هذه المعاني.

إله الكون يجب أن يسدّ عوز الكون المطلق، ولا يمكن أن يكون محتاجاً إلى ســواه في وجــه من الوجوه، ولا في مجال من المجالات، فله الغنى المطلق والكمال الأعلى، فهو منــزه عن الحاجة، منــزه عن النقائص، منــزه عن الحــدود في معاني كماله وغناه، منــزّه بذاته حتى عن الصفات الزائدة على ذاته.

هذه نتائج ينساق إليها العقل، ويثبتها بثاقب الفكرة، وصحيح النظرة، وهذا هو القول الفصل في التوحيد الخالص الذي يمتاز به مذهب أهل البيت (عليهم وعلى جدهم الرسول أفضل الصلاة والسلام).

العدل الإلهي :

ومــن أبعاد هذا التتريه الكامل لله، وهذا التوحيد الخالص لجلاله الذي يعــترف بــه العقل الواعي، حينما يفكّر تفكيراً سليماً، وينساق مع البرهان انسياقاً طبيعياً لاتكلف فيه ولا عناء .

أقــول: ومــن أبعاد هذا التنــزيه الكامل لله: إثبات صفة العدل له – سبحانه–. و في القرآن الكريم:

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّه لا إلهَ إلاّ هُوَ وَالملائكَةُ وَأُوْلُو العِلْمِ قَائماً بِالقِسْطِ، لا إله إلاّ

هُو العـــزيزُ الحكيمُ (١)﴾.

وهذه هي شهادة الله، وشهادة الملائكة، وشهادة أولي العلم من خلقه « لا إله إلاّ هو قائماً بالقِسْطِ »، والقيام بالقسط كلمة أخرى عن صفة العدل.

ويُعْنى بصفة العدل التي يجب إثباتها لله، أنه -سبحانه- لا يُهمل واجباً ولا يُخلّ بحكمة..

لا يهمل فعلاً تحتّمه المصلحة، ولا يصدر قبيحاً تمنعه الحكمة.

فإن إهمال ما تحتّم المصلحة فعله، وفعل ما تمنع الحكمة وجوده، إما أن يكـــون السبب فيهما حاجة في الفاعل تدفعه إليهما فتضطره إلى أن يترك ما توجـــبه المصلحة، أو يفعل ما تمنعه الحكمة، وقد عرفنا أن إله الكون منـــزّه عن أي حاجة واضطرار .

وإما أن يكون السبب فيهما جهل الفاعل بما تقتضيه الحكمة في ذلك، فهـــو حيـــنما ترك الشيء الأول لم يكن يعلم أنه ممّا توجب المصلحة فعله، وحينما فعل الشيء الثاني لم يكن يعلم أنه مما تمنع الحكمة وجوده، وقد عرفنا أن إله الكون عالم بالذات، منـــزّه عن الجهل.

وإمـــا أن يكون السبب فيهما هو ابتغاء العبث واللهو، فالفاعل حينما تـــرك ما تُوجبه المصلحة أو فَعَل ما تمنعه الحكمة، كان لاهياً عابثاً في فعله، وقـــد عرفنا أن إله الكون حكيمٌ بالذات، منـــزّه عن ابتغاء اللهو والعبث في جميع أفعاله وشؤونه.

١ــ آل عمران: ١٨.

﴿ ما خَلَقْنا السَّماءَ والأرْضَ وما بَيْنهُما لاعِبين، لَو أَرَدْنا أَنْ نَتّخذَ لهْواً لاتّخَذْنـــاه مِنْ لَدُنّا إنْ كُنّا فاعِلينَ، بَلْ نَقْذِفُ بالحقِّ عَلى البَاطِلِ فيَدْمَغُه فإذا هو زاهِقٌ وَلكم الوَيلُ مِـــمّا تَصِفُون[1] ﴾.

من مجالي عقيدة العدل :

هذه حصيلة عقيدة العدل، وبعض براهينها.

إنها ترتبط بعقيدة التوحيد الخالص ارتباط الجزء بكله.

ومـــن مجالي هذه العقيدة: قيام كل شيء في التكوين على مبدأ العدل والـــتوازن الكامل، فقد وفّرت القدرة الخالقة لكل موجود صغيرٍ أو كبيرٍ في هـــذا الكونِ كلّ ما يستدعيه التوازن الخلقي الدقيق، فلم تُنقِصه شيئاً تقتضيه حكمـــة التكوين، و لم تزد فيه أمراً لا تستدعيه المصلحة، بل استواء واتزان، وإبداع وإتقان .

﴿ إنّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ [2] ﴾.

﴿ وَإنْ مِن شَيءٍ إلاّ عِنْدَنا خَزائنُه وما نُنَزِّلُهُ إلاّ بِقَدَرٍ مَعْلوم[3] ﴾.

فكل شيء كائن وفق ما تدعو الحكمة، وما يقتضي النظام، وما يحقّق الإبداع، دون زيادة ودون نقص، بل اتزان شامل، وإتقان كامل.

ومن مجالي هذه العقيدة: قيام الشريعة على مبدأ العدل، فكل حكم من

١ــ الأنبياء: ١٨.

٢ــ القمر: ٤٩.

٣ــ الحجر: ٢١.

أحكامها، وكل تشريع من تشريعاتها لم يوضع إلاّ وفق موازنة دقيقة وكاملة، بـــين دوافع المرء وحاجاته، وغرائزه ومتطلّباته، وضروراته المختلفة ونواحيه المــتعددة، ثم بين مطاليب الفرد ومطاليب الأمة، وإعطاء كل جهة من هذه الجهـــات المختلفة ما تستحق دون سرف ولا تقتير، فهي عدل في كل مجال من مجالات الحياة.

﴿ لَقَـــدْ أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّـــناتِ وأنْزَلْنا مَعَهم الكِتابَ والميزانَ لِيقومَ الناسُ بالقِسْط [١] ﴾.

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبّي بالقِسْط[٢] ﴾.

﴿ وهذا صِرَاطُ رَبِّك مُسْتَقيماً قَدْ فَصَّلْنا الآياتِ لقومٍ يَذَّكَّرُون [٣] ﴾.

﴿ إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَان[٤] ﴾.

﴿وتَمَّتْ كَلِمةُ ربِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً لامُبَدِّلَ لِكَلِماتِه وهُوالسميعُ العليمُ [٥]﴾

من توابع عقيدة العدل :

ومن توابع هذه العقيدة، بل ومن محققات معناها، تتريه الإله عن الظلم والحيف، فإنه قبيح تمنع منه الحكمة، ويجّل عنه الحكيم، وظلم العبد الضعيف

١ــ الحديد: ٢٥.

٢ــ الأعراف: ٢٩.

٣ــ الأنعام: ١٢٦.

٤ــ النحل: ٢٩.

٥ــ الأنعام: ١١٥.

الـــذي لا يملك حولاً ولا قوة، ولا سنداً أمام القوة القاهرة التي بيدها الحول والقـــوة أكـــثر قبحاً، وأعظم مباينة للحكمة، وأشدّ منافاة للعدل، وللقيام بالقسط الذي دلّت عليه الآيات .

﴿ وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلعَبِيدِ (١) ﴾.

﴿ وَلا يَظْلِمُ ربُّك أحَداً (٢) ﴾.

ولنسلّم - ولو موقتاً - بما يقوله بعض الفرق الأخرى من المسلمين: إن العقل لا يحكم بحُسنٍ ولا قُبح، وإن الأمر في ذلك بيد الشرع، فالحَسَن هو ما أمر به الشرع، والقبيح هو ما نهى عنه، ولا حَسَن ولا قبيح غير ذلك .

لنســلّم ذلك لهم -ولو موقتاً-، فإنه تعنت ظاهر، وتحدٍ لكرامة العقل، بـــل وإنكار لما هو معلوم بالبداهة، فإن العقل يستقلّ بقبح كثير من الأفعال والمظاهر، وبحسنِ كثيرٍ منها، ولا يرتاب ولا يتردّد في حكمه بذلك .

أقـــول لنسلّم بما يقوله بعض الفرق الأخرى من المسلمين: إن العقل لا يحكم بحَسَنٍ ولا قبيح، وإن أمر التحسين والتقبيح بيد الشرع وحده، أفليس الظـــلم ممـــا نهت عنه الشريعة، ودلت على قبحه؟! أفلا يكون قبيحاً على الحكيمِ – سبحانه – ومنافياً لحكمتهِ، ومما يجب تنـــزيهه عنه ؟

وخصوصـــاً بعد أن دلت الآيات الوافرة العدد على أنه (تعالى) القائم بالقســـط، وأنه لا يظلم أحداً، وأنه ليس بظلام للعبيد، وأنه لا يأمر بالسوء،

١ــ فصلت: ٤٦.

٢ــ الكهف: ٤٩.

ولا يأمر بالفحشاء، وأنه لا يحب الظالمين.

والتفرقة بين الإرادة التشريعية والإرادة التكوينية في هذا المجال مما لا يمكن أن يقول به عقل رصين.

تنزيه الله عن الجبر :

ومن توابع هذه العقيدة، بل ومن محققات معناها: تنزيه الباري (تعالى) عن الجبر في الأفعال: فإنه نحو من الظلم، ومن الظلم الشديد، ومن منافيات الحكمة.

وأي ظلم، وأي غشم هو أبشع من أن يقتسر السيد عبده الضعيف اقتساراً، ويجبره على معصية أمره، وتعدّي حدوده إجباراً، وهو لايقدر على الفعل، ولا يقدر على الامتناع، ثم يحمّله تبعة هذا العصيان، فيرصد له أليم العذاب، وشديد النكال على فعلته التي لم يفعلها باختياره، و لم يمكنه الامتناع عنها بإرادته ؟؟

وهو من منافيات الحكمة من ناحيتين :

فهو مناف للحكمة من حيث إنه ظلم والظلم قبيح، ﴿وَلا يَظْلِمُ ربُّك أحَداً﴾، وقد أسلفت القول عن هذه الناحية.

وهو مناف للحكمة من التشريع، فإن الغاية من جعل الدين، ومن تشريع أحكامه، هي الارتقاء -بسببها- في مراقي الخير، والاستكمال - بإطاعتها- من حظوظ السعادة، والفوز -بتطبيقها- في حلبات التقوى، وتنظيم هذي الحياة، وحلّ مشكلاتها بحلول الإسلام وتطبيق مناهجه.

﴿ لِكُلٍ جَعَلْنا مِنْكُم شِرْعَةً ومِنْهاجاً، وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدةً ولكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ في مَاآتاكم، فاسْتَبِقُوا الخَيراتِ[١] ﴾.

أجـــل، هـــذه هـــي الغاية، « ولكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ في ماآتاكُم، فاسْتَبِقُوا الخَيراتِ»، فالدين وأحكام الدين دِربة وامتحان، تُنال الدرجات فيه بالإطاعة أو العصـــيان، ومـــن الضروري أن ذلك يقوم على الاختيار والإرادة، وأي حكمة وأي بلاغ في أن يشرع الله حكماً لايمكن أن يمتثل؟!

وأي حكمة وأي بلاغ في أن يشّرع الله شريعة ثم لايترك لعباده الخِيَرة في أن يطيعوها أو يعصوها مختارين؟؟!

والجـــبر وهمٌ سبق إلى أذهان بعض الناس فحسبوه حقيقة، ثم بالغوا في الأمر فاعتبروه عقيدة من عقائد الإسلام، وهي فكرة حرفت خطاً كبيراً من خطـــوط الإسلام في أذهان فريق من المسلمين، فآتت أكلها مُرّاً مضاعفاً في سلوكهم فجمدت حركة الإسلام في نفوسهم وفي قلوبهم.

ومـــاذا يســـتطيع الـــرجل أن يصنع في إصلاح نفسه، وتوعية ضميره وتهذيـــب إرادته، فضلاً عن إصلاح غيره إذا أيقن أنه مُجبر على كل عمل يعملـــه، مقسور في كـــل صنع يصنعه .. أنه آلة صمّاء بكماء بيد محركها، ولا حيلة له في جلب خير، أو دفع شر، أو إصدار حركة، أو توجّه إلى غاية.

هكذا يعتقدون. ويدينون لله بهذه العقيدة، ويتعبّدون له بها، والمخلص في هـــذه العقيدة هو من يذهب بها إلى أبعد شوط وأبعد غاية، ونتيجة ذلك

١ـ المائدة: ٤٨.

جمود وهمود.

وأي انحراف في خط الإسلام يكون أكبر من هذا الانحراف ؟ ولا أُطيل ولا أتوّسع في بيان ذلك.

من أدلة القائلين بالجبر:

ومجـــال القول بالجبر والقول بالتفويض هو أفعال الإنسان التي يُصدرها ويعملها بإرادته، وقد ذهب القائلون بالجبر إلى أن الإنسان لايمكن أن يكون مختاراً في فعله أبداً .

والعلّة التي يحتجون بها لذلك: هي أن الإنسان لو صّح أن يكون مختاراً في أعمالـــه التي يعملها لأصبح شريكاً لله في التكوين، والله عامٌّ القدرة على كل شيء، فلا قدرة للإنسان ولا خيَرة.

ويقـــف العقل حول هذه الفكرة،فيتساءل: لماذا يكون الإنسان شريكاً لله في التكوين إذا كان مختاراً في فعله، ألِأنه أوجد فعله باختياره؟!

إن الله (ســـبحانه) قد جعل هذا الكون الطبيعي كلّه مسرحاً للأسباب والمسبّبات، وربط النتائج بأسبابها وعِلَلها ربطاً كاملاً، فلا شيء يحدث دون عـــلّة، وهـــذا واضح لاينكره أحد، فلماذا لاتكون هذه الأسباب الطبيعية شريكة لله في الإيجاد — على ما يزعمون –؟!

إن الله (سبحانه) هو الذي أوجد الأسباب بقدرته، وهو الذي أعطاها الطاقـــة المؤثّرة، وهو الذي ربط المسبَّبات بها، وأعدّ بقدرته كلاً لما خُلِق له، فالسبب إنما يؤثّر في مسبَّبه بقدرة الله وإرادته، فلا يكون شريكاً لله، وإنما هو

مجرى لفيضه وأثر لقدرته.

وكذلك الإنسان بعض مخلوقيه، والله هو الذي آتاه القدرة والعقل والإرادة والاختيار والطاقة، والإنسان إنما يصدر فعله بإقدارٍ من الله، ومددٍ متّصل من رفده، ولو انقطع مدد الله عنه لم يستطع أن يعمل، ولم يستطع أن يتحرك، فكيف يكون شريكاً لله إذا كان مختاراً في فعله؟!

وقد شاءت الحكمة أن تكرّم ابن آدم هذا التكريم، فتجعل له جهاز الاختيار، فيُصدر عملَه أو يتركه مختاراً، ليستكمل سعادته باختياره، ويخطّط مصيره بإرادته، فيستوجب جزاء المطيعين أو العاصين، وهذا كله واضح أتمّ الوضوح.

إن الرجلين يكونان على سطح المنزل، فيهبط أحدهما في السلّم ويسقط الآخر من جانب السطح هاوياً، فإن العقل لا يشكّ أبداً في معرفة أيهما المجبَر وأيهما المختار، وهذا يعني أن التمييز بين الجبر والاختيار بَدهيّ من بدهيّات العقول لا خفاء فيه ولا غموض.

آيات الهدى والضلال :

واحتج القائلون بالجبر بآيات الهدى والضلال وهي كثيرة العدد منها قوله (تعالى):

﴿ مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ ومَنْ يَشَأْ يَجْعَلْه عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[1] ﴾.

١ــ الأنعام: ٣٩.

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهوَ المهْتدي ومَن يُضلِلْ فأولئك هُم الخاسِرون[١]﴾.

وقوله تعالى﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ويَهْدي مَنْ يَشاء وهو العزيزُ الحكيمُ[٢] ﴾.

وأمثالها من آيات الكتاب الكريم...

والهدى والضلال لايكونان إلاّ بعد إقامة الحجة من الله، وإيضاح السبيل، وتبيين المعالم:

﴿ وَمَاكُنّا مُعَذِّبينَ حَتى نَبْعَثَ رسُولاً[٣] ﴾.

﴿ إنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كَفُوراً [٤] ﴾.

﴿ وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْن[٥] ﴾.

وهما بعد ذلك إنما يكونان باختيار الإنسان واتباعه أي السبيلين شاء:

﴿ وقُلِ الحقُّ مِن ربِّكُم فَمَن شَاء فَليُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرُ[٦] ﴾.

أما بعد أن يختار الإنسان بإرادته أحد السبيلين، ويدأب عليه ويصرّ على اتباعه، فإن هداية الله تعني توفيقه ومدده لمن اختار طريق الحق وسار عليه،

١ــ الأعراف: ١٧٨.

٢ــ إبراهيم: ٤.

٣ــ الإسراء: ١٥.

٤ــ الإنسان: ٣.

٥ــ البلد: ١٠.

٦ــ الكهف: ٢٩.

وإضلاله يعني خذلانه لمن اختار طريق الباطل وسار عليه، وكلاهما - وكما قلنا - بعد بيان الحق وبيان الباطل لهما أتمّ البيان، وتعريفهما أوضح التعريف، وإتمام الحجة عليهما أبلغ الإتمام.

والسائر على الهدى -بعد وضوح الأمر- مستحق للمدد والتوفيق من الله، ولا ريب.

والسائر على الضلال -بعد وضوح الأمر- مستوجب للخذلان من الله، وإيكاله إلى نفسه، ولاشك، وهذا هو معنى الآيات الكريمة المسؤول عن معناها « مَنْ يَشَأ اللهُ » وهو الذي اختار الضلالة بعد وضوح البيان وإقامة الحجة عليه « يُضْلِلْه » فيوكله إلى نفسه فتصل به إلى أبعد المهاوي من الضلال، « وَمَنْ يَشَأ » وهو الذي اختار الهدى بعد وضوح البيان وإقامة الحجة « يَجْعَلْه عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » بمدده بتوفيقه وبعونه فيرتقي في مسالك الهدى حتى يصل إلى الغاية.

ومثلها الآيات الكريمة الأخرى.

والتفويض :

وذهب القائلون بالتفويض إلى أن الإنسان حر تام الحرية، مختار تام الاختيار في أفعاله، ولا سلطان لأي أحدٍ عليه، ولا على إرادته حتى لله خالقه، الذي كوّنه وبرأه وصوّره.

وهذا القول -كما نراه- يتضمن سلب سلطان الله على عبده، وهي نتيجة معاكسة للقول بالجبر.

وكأنهم عرفوا من معنى الاختيار للإنسان أنه لا يكون إلاّ حين يسلب أي سلطان عنه، حتى سلطان خالقه العظيم.

وهذا القول يعادل الجبر في الشذوذ وفي البعد عن سمة الحق.

الأمر بين الأمرين :

والحق هو الاعتدال بين التفريط والإفراط: بين الجبر والتفويض، (فلا جبر ولا تفويض ولكن منزلة بين منزلتين).

إن الله خلق الإنسان وآتاه القدرة والخِيَرة، فهو يفعل -حين يفعل- مختاراً، ويترك -حين يترك- مختاراً ولا نقص في موازين اختياره أبداً. هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى، فإن الله هو الذي خلق الإنسان، وهو الذي خلق له جهاز الاختيار، من عقل وتصميم وإرادة وقوى مختلفة، يوازن بها ويُصمّم ويختار ويفعل، وهو الذي يمدّه بالطاقة والنشاط طوال حياته وفي كل حركاته وسكونه، فهو لا يفكّر، ولا يوازن، ولا يُصمّم، ولا يختار، ولا يعمل إلاّ بمدد من الله، ولو أن المدد انقطع عنه آناً مّا لوقف كل ذلك.

فلا جبر ولا تفويض ولكن منزلة بين منزلتين، وهذا هو المعنى الذي تجتمع عليه آيات الكتاب ونصوص السنة، وهو الذي يقوم على أُسس المنطق والبرهان الصحيح.

عرَّفَنا اللهُ وإياكم معالم الحق وهدانا سواء السبيل وكفانا مزالق الفكر ومزالق النفس ومزالق القلب ومزالق الإرادة.. إنه سميع عليم.

مجالي العدل الإلهي

مـــا أســـعدني أيها الأحِبّاء !.. أقف بينكم لأحدثكم ببعض أحاديث الإسلام، وأحييكم بتحية السلام وشعار الإسلام : (السلام عليكم).

ما أسعدني !.. أقف بينكم لأذكر بعض محاسن دين الله العظيم، وأشير إلى بعض أسراره..

﴿ مِلَّةَ أبيكُم إبْراهيمَ هو سَمّاكُمُ المسْلِمين مِن قَبْلُ[1] ﴾.

﴿ وَمَـــنْ يَرْغَبُ عَن مِلّةِ إبْراهيمَ إلاّ مَن سَفه نَفْسَه، وَلَقَد اصْطَفَيْناهُ في الدُّنيـــا، وإنَّه في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحين. إذْ قال لَهُ ربُّه: أسْلِمْ، قَالَ: أَسْلَمْتُ لِـــرَبِّ العَالَمِين. وَوَصّى بها إبراهيمُ بَنِيْهِ ويَعقوبُ يابَنِيّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّيْنَ فلا تَمُوتُنّ إلاّ وأنْتُم مُسْلِمُون[2] ﴾.

بلى –أيـــها الأحِبّة– « إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّيْنَ فلا تَمُوتُنّ إلاّ وأنْتُم مُسْلِمُون » .

ومحاســـن ديـــن الله (تعالى) أسمى من أن يستوفيها حاسب، أو يحدّدها كـــاتب، وأســـرار شـــريعة الله –سبحانه– أدقّ من أن يستبطنها عقل، أو يستنفدها مفكّر، ولكنها النور المشع، تقتبس الأفكار منه، كلٌّ حسب طاقته.

١_ الحج: ٧٨.

٢_ البقرة: ١٣٠-١٣٢.

والغيث الصيّب تنتهل الأحياء منه، كلٌّ بمقدار حاجته، وتأخذ الأواني منه كلٌّ بمقدار سعته.

إنها السعادة أو الشقاوة :

ما أسعدنا -أيها الأحبّاء- !! وما أكرمنا على الله !!.. يَصطفي بحكمته وبلطفه لنا دينه العظيم، ويضمن لنا السعادة والفوز والفلاح، إذا نحن اتّبعنا مناهجه، وسرنا على هداه، وبلغنا إلى غاياته..

..إنها سعادة ليس فوقها منتهى، وإنها كرامة ليس وراءها منزلة، وإنها رفعة ليس بعدها مطمح.. أن يكون الله -سبحانه- هو الذي يختار لنا بحكمته ما يريد، وأن يكون رسوله الأعظم (ص) هو المرشد لنا إلى هذه الغاية، وأن يكون كتابه الأكبر هو الدليل لنا إلى السبيل:

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى المؤْمِنينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أنْفُسِهِم، يَتْلُو عَلَيهِم آيَاتِه وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُم الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ[1] ﴾.

ثم إنها الشقاوة التي ليس دونها دَرَك، والمهانة التي ليس بعدها ضَعة، والخزي الذي ليس منه منجى.. أن نجتنب هداية الله -سبحانه- ونتنكّب سبيله، بعد أن بلّغ المرشد، وأوضح الدليل.. أن نتخوّن هداية الله، ونستجهل حكمته، ونستصغر مقْته، فنستبدل بدين الله ديناً، وبمبدأ الله مبدأ، وبنظام الله

١ــ آل عمران: ١٦٤.

نظاماً:

﴿ أَفَحُكْمَ الجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، ومَنْ أَحْسَنُ مِن اللهِ حُكْماً لِقَومٍ يُوقِنون[١] ﴾.

وإنما الشقاوة والمهانة، والخزي الكبير، والبوار العظيم، أن نوزّع شريعة الله حسب أهوائنا ومشتهياتنا التي لا تقرّ على حال. فنأخذ من أحكام الله (عزّ وجلّ) ما نريد، ونترك منها ما لا نريد.. كمن يتعّرض للسِّلَع المعروضة في السوق، فلا يبتاع منها إلاّ ما يوافق هوى نفسه، أو رغبة ذويه، ثم لا يبتاع منها إلاّ ما يخفّ عليه في السَّوْم:

﴿ أَفَتُؤمِنونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وتَكْفُرُون بِبَعْضٍ، فمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُم إلاّ خِزيٌ في الحياةِ الدُّنيا، ويومَ القيامةِ يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذابِ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عمَّا تَعْمَلُون. أُولئك الّذين اشْتَرَوُا الحياةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ، فَلا يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذابُ وَلا هُم يُنْصَرون[٢] ﴾.

أيها السادة:

مـا أوضح حقائق الإسلام !! وما أرسى قواعده !! وما أجلى حكمته وما أسماها عن الحدود !! وما أبْين دلائله وما آباها عن الحصر !!.. إنها ملء الكون، وملء الأزمان، وبعدد ما في الأكوان والأزمان من ذرّة وجسيمات ذرة، وطاقة ووحدات طاقة، وقانون وتجلّيات قانون.

مـا أوضح حقائق الإسلام، وما أجلى حكمته، وما أبْين دلائله !! وما

١ـ المائدة: ٥٠.

٢ـ البقرة: ٨٥-٨٦.

أجهلنا -نحن المسلمين- بهذه الحقائق، وما أبعدنا عنها، وما أشد استغرابنا إياها حين تذكر لنا، كأنها لم تمتزج بعقولنا ونفوسنا، بل وبعواطفنا ومشاعرنا ولحومنا ودمائنا !!

حديث مع مهندس كبير :

تحدثت في ليلة من لياليّ في القطار إلى مهندس كبير كان يزاملني في المقصورة..

تحدثت إلى هذا الزميل عن عدل الله العظيم، الذي يظهر في كل منحى من مناحي هذا الكون، وفي كل موجود من موجوداته، والذي لا يزال العلم الحديث يكشف في كل يوم منه جوانب، ويترصّد إلى جوانب أخرى لا تزال خفية، ثم هو يعترف أنّ ما كشفه من هذه الجوانب لا يزيد على مقدار قطرة صغيرة من محيط عظيم.

نعم لقد اعترف العلم التجريبي الحديث بكل ذلك، وسبّح بحمد ربه، وأحنى رأسه للقدرة القاهرة، وللحكمة الباهرة، وللتدبير الحكيم، والعدل العظيم.

.. تحدّثت إليه عن مظاهر هذا العدل الكوني العظيم، ثم قلت له – في مجرى الحديث:

والعدل في الإسلام -أيها الأخ- امتداد للعدل الأعظم في الكون، لأنّ الإسلام نظام من أنظمة الحياة، وواضع هذا النظام هو واضع أنظمة الكون.. وأخذت أشرح له أبعاد هذه الكلمة، وأبيّن بعض الشواهد الدالة عليها،

ولست أدري كم طال الحديث، فقد كنت راغباً في القول، وكان راغباً في الاستماع.

فقال متعجباً -بعد نهاية الحديث-: ما أغرب هذه الحقائق عنا ! وما أشد بلاهتنا إذا كانت صحيحة لا يتطرّقها ريب !

فقلت له: يا صاحبي ليست هذه الحقائق هي الغريبة، ولكنّكم أنتم الغرباء.

فوجم من قولي، ثم أطرق طويلاً، واسترشدني - بعد صمته- إلى بعض المصادر، واستوضح مني بعض المفاهيم، و لم أعلم بحاله بعد تلك الليلة.

العدل الإلهي في مجالَي التكوين والتشريع :

نعم، -أيها السادة- العدل في مجال التكوين، والعدل في مجال التشريع.. كلاهما مظهر من مظاهر العدل الإلهي الأعلى؛ الذي أوجبته الحكمة المطلقة، والكمال المطلق، والغنى المطلق، والتنزّه المطلق عن الحاجة، والتقدّس المطلق عن النقص.

وإذا قلت: الحكمة المطلقة، أو الكمال المطلق، أو أحد المفاهيم المتقدمة الأخرى، فأعني بها صفات الكمال الذاتية له (تعالى)، الأزلية، الأبدية، التي لا بداية لوجودها ولا نهاية، ولا حدّ تقف عنده، ولا علّة تؤثر فيها..

وقد جعل - سبحانه - في كتابه هذه الصفة : (صفة العدل) متمّمة لعقيدة التوحيد، إذ قال (عزّ مِنْ قائل):

﴿ شَهِدَ اللهُ أنَّه لا إلهَ إلاّ هُو وَالملائكةُ وأُولُو العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ، لاإلهَ

إلاّ هُو العزيزُ الحكيمُ[١] ﴾.

علـى هـذه الركيـزة يقوم الإسلام في عقيدته، وعليها يقوم في بناء مفاهيمه، وعليها يقوم في تأسيس شريعته وشمول نظرته.

العدل في التكوين ..

فلا يؤتي أي ذرّة من أي عنصر إلاّ مقدار ما تفتقر إليه من الجُسيمات، ولا يودعهـا إلاّ قـدر ما تحتمله من الطاقة، ولا يضع لها إلاّ ما يدبّرها من النظام، ولا ينقصها شيئاً ممـا تحتاج إليه في حال الانفراد، أو في حال التركّب..

وهكذا في كلّ مركّب وفي كلّ بسيط، وفي كلّ حي، وفي كلّ جامد، وفي كـلّ صغير، وفي كلّ كبير.. وما عسى أن يعدّ القائل من ذلك ؟ وما عسى أن يذكـر مـن الشواهد ؟ وقد اعترف العلم أن هذه هي الظاهرة المحسوسة الملموسة في جميع محتويات هذا الكون الرّحب، ما استطاع كشفه منها وما لم يستطع.

﴿ وإنْ مِن شَيءٍ إلاّ عِنْدَنا خزَائنُه وَمَا نُنزِّله إلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ[٢] ﴾.

﴿ وَخلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْديراً [٣] ﴾.

١ـ آل عمران: ١٨.

٢ـ الحجر: ٢١.

٣ـ الفرقان: ٢.

والعدل في التشريع ..

فلا يضع الحكم إلاّ وفق ما تقتضيه النظرة المستوعبة في الركائز العميقة في الفرد، والركائز الأصيلة للمجتمع، والموازنة الدقيقة بين جميع المقتضيات والمؤثّـــرات والبواعث والموانع والطاقات والضرورات والحقوق والواجبات، والملاحظـــة الشاملة للأفراد والأمم والأجيال والأزمان. فلا يؤتي ناحية من نواحـــي الفرد، ولا من نواحي المجتمع أكثر مما تستحق ولا يُنقصها شيئاً مما تستوجب.

عـــلى هذه السمة، وعلى هذه الركيزة تأسس الإسلام، وقامت جميع تشريعاته:

﴿ وَنزَّلْـــنا عَـــليك الكـــتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدىً ورَحْمَةً وبُشْرَى للمُسْـــلِمين. إنّ اللهَ يَأمُـــرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وَإيتاءِ ذي القُرْبى، وَيَنْهَى عَن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْي، يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون[1] ﴾.

بـــل وعلى هذه الركيزة، ومن أجل تحقيق هذه الغاية أرسل الله (تعالى) الرسل السابقين (ع)، وزوّدهم بالوحي:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتَابَ والميزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْط[2] ﴾.

﴿ وتَمّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِه وَهوَ السميعُ العليمُ[3] ﴾

١ـ النحل: ٨٩-٩٠.

٢ـ الحديد: ٢٥.

٣ـ الأنعام: ١١٥.

ومـــا أكـــثر الآيـــات التي ذكرت هذا الشأن، ووصفت دين الله بهذا الوصف، وحفّزت الناس إلى هذه الغاية، ودعتهم إلى هذه السعادة !!

هـــذا هـــو العدل الذي أرسل به محمد (ص) وأنزل به كتابه وأقيم به نظامـــه، وهذا هو العدل الذي أراده الله (تعالى) للمجتمع المسلم الذي أقام صِلاته على الحب في الله (تعالى)، والتآخي في دينه، والتناصر في سبيله.

العدل الإسلامي في الحكم :

أما الحكم في الإسلام -أيها السادة- فإنه مشتق من هذا النظام، وقائمٌ على هذه الركيزة، ومستمدّ من هذه الأسس.

الحكم في الإسلام قوامة عامة على المجتمع المسلم، وعلى التطبيق الكامل لعـــدل الإسلام، والرعاية اليقظة لكتاب الإسلام، والسعي الدائب لأهداف الإسلام.

وتمشّياً مع هذه النتائج، فلابدّ وأن يكون الحاكم الأعلى مثالاً شاخصاً للعدل الأعلى في الإسلام..

وهـــذه نتـــيجة لا يشكّ في صدقها من عرف أنظمة الإسلام، وتبيّن أهدافه، وعلم صفات مجتمعه..

وتطبيقاً لهذه النتيجة وجب أن يكون الحاكم الأول للمجتمع المسلم هو الرسول العظيم (ص) .

نعم - أيها الاخوة- وما قولة الرسول (ص) التي رواها المسلمون على

السواء: (علي مع القرآن والقرآن مع علي[1]).

أو قولــته الأخــرى: (عــلي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث دار[2])..

.... ما هاتان الكلمتان وأخواهما إلاّ شهادات نبويّة باستحقاق علي (ع) لهذا المقام الكريم بعد الرسول (ص).

ومــا شهادة القرآن لأهل البيت بالعصمة[3] ، وما النصوص التي تواترت عن الرسول (ص) في حقّهم إلاّ وهي واردة في هذا الشأن.

أمــا أولياء هذه الزعامة بعد انتهاء أدوار المعصومين (ع) فهم تلاميذهم الأطهار الذين يَرِثون مقامهم بالعلم، ويمثّلون عدلهم الأعلى في العمل.

١ــ راجع المستدرك على الصحيحين ج٣ص١٢٤ للحاكم النيسابوري وقال بعد روايته للحديث عن أم سلمة: هذا حديث صحيح الإسناد، وراجع أيضاً المناوي في فيض القدير ج٤ص٣٥٦، وكتر العمال ج٦ص١٥٣، ومجمع الزوائد ج٩ص١٣٤، والصواعق المحرقة ص٧٤، ونور الأبصار ص٧٢ .

٢ــ يراجع صحيح الترمذي ج٢ص٢٩٨، والحاكم في المستدرك ج٣ص١٢٤و١١٩، والخطيب في تاريخ بغداد ج١٤ص٣٢١، ومجمع الزوائد للهيتمي ج٧ص٢٣٥، وكتر العمال ج٦ص١٥٧ .

٣ــ قال (تعالى): ﴿ إنما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (الأحزاب:٣).

الإمامة والعصمة

الإمامة والعصمة في الإسلام

الإمامة والعصمة في الإسلام -وهي الفكرة التي أردت أن أتحدث لكم عنها في هذه الليلة المباركة- فكرة عريقة في القدم، عريقة في الأصالة، ارتبطت بالعقيدة وبالنظام وبالمنهج، ارتباطاً قوياً مكيناً حتى لايمكن التفكيك ولايمكن الفصل، وكيف يمكن فصل جزء من كله؟

وأقول: كيف يمكن أن ينفك أو ينفصل جزء من كله، ولا أعني الأجزاء التي يمكن الاستغناء عنها في بناء المركّبات، فقد قلت: إنها مرتبطة بالعقيدة وبالنظام وبالمنهج، وأجزاء العقيدة والنظام والمنهج أجزاء مقوّمة لايمكن الاستغناء عنها أبداً، وسأوضح أبعاد قولي هذا في غضون الحديث — إن شاء الله (تعالى) -.

ارتبطت بعقيدة الإسلام وبنظامه ومنهجه في الحياة، وفي علاج المشكلات منذ أول نزوله من السماء في صوره الأولى على الأنبياء السالفين (ع).

والإسلام هو الدين الذي أرسل به جميع الأنبياء سالفهم وخالفهم، فهو الدين الذي أرسل به أوّل رسول، وأنزل به أول كتاب، ووضعت له أولى شريعة.

وهو الدين الذي تتابع عليه الأنبياء (صلوات الله عليهم)، واتفقت عليه

دعواهم، وبذل في بلاغه جهدهم.

فكانت الإمامة والعصمة جزءاً لاينفصل من دعوة الإسلام في تأريخها المديد الناصع، فلابدّ من الإمامة، ولابدّ من العصمة في دور كل نبيّ وكلّ دعوة، ولابدّ من إمام معصوم يتلقّى العهد من الله والنصّ من الرسول، والأدلة اليقينية التي تثبت لنا وجوب الإمامة ووجوب العصمة بعد الرسول الأعظم (ص) تثبت لنا -بذاتها- وجوب الإمامة ووجوب العصمة في كلّ دور وبعد كلّ رسول.

فهي فكرة الإسلام في كل نشآته وفي كل دعواته، وإن اختص بها مذهب أهل البيت (عليهم السلام) في ظاهر الحال.

وليست هذه أول شيء اختص به مذهب الطاهرين (ع) من فِكَر الإسلام، وهذا أحد بواعث فخاره.

الإمامة في مجالها اللغوي:

وكلمة الإمامة في مجالها اللغوي تعني صفة الإمام، وهو المتقدم في القوم، وموضع قدوتهم، يقال: أمَّ القوم بمعنى تقدمهم، وصار لهم قدوة في عملهم، ويقال: ائتممت بفلان، أي جعلته إمامي وترسّمت خطاه في سبيلي، واقتديت بفعله أو رأيه في عملي، والإمام هو مَن يُقتدى به، ويُتّبع عمله أو رأيه، والإمامة صفته، وبهذا الاعتبار أطلقت على إمام الجماعة، وموجّه القوم ومرشدهم.

والإمام: الطريق الجليّ الواضح الذي يُتّبع، وبهذا المعنى قد يطلق على

القـــرآن وأخواته من كتب السماء، وفي القرآن الكريم: ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً [١] ﴾.

وقوـــله (تعالى): ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِيْنٍ [٢] ﴾، بناء على تفسير الإمام في الآية الكريمة بالكتاب.

والإمامة: الرئاسة العامة؛ فالإمام رئيسهم العام، وبهذا الاعتبار أطلقت على بعض الرؤساء والملوك.

الإمامة في المصطلح الإسلامي:

والإمامة في المصطلح الإسلامي الخاص -وفي مذهب أهل البيت (ع) عـــلى الخصوص- هي الرئاسة العامة في أمور الدنيا والدين، وهذا المعنى هو الذي استقر عليه اصطلاح علماء الكلام من جميع فرق المسلمين.

والخـــليفة مـــن يخلُف مَن قَبْلَه في موضعه ويقوم عند مقامه، والخلافة صفته، وفي القرآن الكريم: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيْفَةً [٣] ﴾.

والخـــليفة: الإمـــام الذي ليس فوقه إمام، وفي القرآن ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ [٤] ﴾.

والخلافة في المصطلح الخاص هي: النيابة عن الرسول (ص) في زعامته

١ـ الأحقاف: ١٢.

٢ـ يس: ١٢.

٣ـ البقرة: ٣٠.

٤ـ ص: ٢٦.

العامة للأمة في دينهم ودنياهم.

وهي -بهذا المعنى- تصادق الإمامة في أكثر الموارد، والإمامة أعمّ منها بحسب المفهوم؛ فالرسول (ص) بذاته إمام وليس خليفة.

وفي القرآن الكريم عن نبيّ الله إبراهيم (ع):﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً (١) ﴾.

دور الإمامة في الإسلام:

وقد اتفقت كلمة المسلمين على أن الإسلام دين يحكم الحياة وينظّمها، كما يوجّه الحياة الأخرى ويضمن سعادتها .. فلابد في الإسلام من الرئيس الأعلى للحكم الذي يقوم باسم الإسلام، ولابدّ من نصبه والخضوع لأمره.

ثم اختلفوا في من يجب عليه نصب هذا الرئيس الأعلى، وفي مدى مهمته التي يقوم بها.

فقالت الجمهرة من المسلمين: إنها رئاسة دنيوية تنظّم شؤون الدنيا باسم الإسلام، ووفق تعاليمه، ولا دخالة لها في الدّين بأزيد من ذلك.

وعلى قولهم هذا فنصب الإمام شأن من شؤون الأمّة، يقوم به أهل الحلّ والعقد منها على مبدأ الشورى، أو على مبدأ الانتخاب، فهو فرع من فروع الدين، ووجوبه وجوب تكليفي على المسلمين.

وقالت الإمامية: إنها الرئاسة العامّة على الناس في جميع شؤونهم، ومرجعيتهم الكبرى في أمور دنياهم ودينهم، وزعامتهم المطلقة بعد فقد

١ـ البقرة: ١٢٤.

زعيمهم الأعلى، ومرجعهم الأكبر الرسول العظيم (ص).

والإمـــام ينوب عن الرسول في كلّ ما له من وظيفة، وفي كل ما يقوم بـــه مـــن مهمّة، وفي كل ما حمل من أعباء، باستثناء مهمّة الرسالة والنّبوة، فتلك خاصة لا يشاركه فيها أحد.

فـــإذا استثنينا مهمّة الرسالة والقوامة على الدين وعلى أحكامه في دور التأسيس، فجميع مهمّات الرسول وواجباته الأخرى موكولة من بعده للإمام ينوب عنه فيها، ويتحمّل أعباءها.

فالرســـول هـــو الأمين الأول على الشريعة والحارس الأول للأحكام، والقائم الأول على بلاغها وصيانتها، والإمام هو الأمين الثاني على الشريعة، والحـــارس الثاني للأحكام، والقائم الثاني على بلاغها وصيانتها وتطبيقها .. هـــو الأمين الحارس الدؤوب الذي يستلم أمانة السماء لأهل الأرض، ويقوم على حفظها، ويرعاها حق الرعاية في أدوار بقائها.

والرسول هو المزكّي الأول لنفوس الأمة، والطبيب الأعلى لأمراضها، يمدّها من زكاته ويميرها من طبّه ويشعّ عليها من روحه ومن رشده.

﴿ هُـــوَ الّذِي بَعَـثَ فِي الأُمِّـيِّينَ رَسُـولاً مِنْهُم يَتْـلُو عَـلَيْهِم آيَـاتِـهِ وَيُزَكِّيْهِم[1] ﴾.

والرسول هو القدوة الأولى للأمة، والمثال الأعلى الذي برأه الله (تعالى) لهـــم.. يصـــوغون عليه نفوسهم، ويقتفون أثره في خطاهم، ويقتدون به في

١ــ الجمعة: ٢.

سلوكهم، والإمام هو المزكّي الثاني والطبيب الأعلى والقدوة العظمى للأمة بعد فقدِ رسولها، تتبيّن فيه صفاته، ويتمثّل فيه خُلقه وسلوكه، ويشعّ منه رشده ونوره.

والرسول هو الزعيم الأول لحكومة الإسلام، والرئيس الأعلى للأمة وللمجتمع المسلم، وللمجتمع البشري كله -على أصدق التعابير وأوفاها بالمعنى وبالمهمة-، والقائد الأعظم لصفوفه، والمنظّم الأوّل لحركته وحركة الحكم فيه، والعادل الأول الذي يتجلّى فيه عدل الله (سبحانه) في الأرض، ويتجسّد فيه عدل الإسلام في الحكم، وعدل الرسالة في الصفات والخلال. والإمام هو الزعيم الثاني والممثّل الصادق الكامل، الذي تتحقّق فيه كلّ هذه السمات، وهذه المؤهّلات سواء بسواء، دون نقص، ودون تفاوت.

ونتيجة لذلك؛ فالرسالة والإمامة كلاهما عهدٌ من الله (سبحانه)، ولن يكونا إلاّ بتعيين منه وجَعْل لمن يتحمل هذه الأعباء.

إنها أمانة الله ووديعته، فلا توضع إلا بيدٍ يأتمنها الله، ويعلم صدقها في القول والعمل.

والأمر في الرسالة ثابت لاخلاف فيه و ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [1] ﴾. فالرسالة لا تكون إلاّ بجَعْل، والرسول لا يكون إلاّ بتعيين.

فإذا علمنا أن سبيل الإمامة هو سبيل الرسالة، وإذا علمنا أنّ الوظيفة مشتركة، أيقنّا - دون شكّ - أن الإمامة كذلك لا تكون إلاّ بجَعْل، وأن

١_ الأنعام: ١٢٤.

الإمام لا يكون إلاّ بتعيين.

ضرورة العلم والعصمة في الإمام:

وليس من المسلمين من يشكّ أن الشريعة أمانة الله لخلقه، فلابد وأن تودع بيد رسول أمين معصوم، يتلقّى الرسالة من الله كاملة لا نقص فيها ولا تحريف، ويسلّمها إلى خلقه كاملة لانقص فيها ولاتحريف، والله (سبحانه) هو العليم بالسرائر المطّلع على الحقائق، فلابدّ وأن يختار لأمانته من هو أهل للأمانة، ومن تقوم على الخلق به الحجة.

والعباد -بدَورهم- جاهلون، ومِن أين لهم أن يعرفوا صحة الأمانة وصدق الأمين، إذا لم يعرفوا عصمته، ولم يستيقنوا بها؟

ومن طِباعهم وخلائقهم: أنهم يقيسون الشيء بالشيء، ويحملون العمل على العمل؛ ولذلك فهم يرتابون في المبلّغ، وفي صدق قوله لهم إذا وجدوا في بعض أقواله أو أفعاله ما يريب، أو ما يباين الدعوة والمناهج التي يدعوهم إليها.

ومن هذه الجهة؛ قال جمهور المسلمين بوجوب عصمة الرسول في التبليغ. والنظرة الصحيحة في الأسباب الآنفة الذكر، وفي غيرها، تحتّم أن يكون الرسول معصوماً كامل العصمة في كل الحالات.

وليس من المسلمين من يشكّ أنّ نظام الحكم في الإسلام قائم على العدل الكامل الشامل الذي لايحيف قيد شعرة ولا مثقال ذرّة، ومن الواضح - أشد الوضوح- أن الضمان الأول والأكبر لتحقيق هذا العدل الشامل أن

يكـــون الـــرئيس الأعلى للحكم الإسلامي مثالاً شاخصاً للعدل الأعلى في نفسه، وفي خاصّته وعامّته.

وليـــس أدعى لانتقاص القانون، وامتهان حرمته من أن يكون القائم الأول عـــليه مخالفـــاً لنصوصـــه، ومـــن هذه الجـــهة وجب أن يكـــون الرسول(ص) هو رأس الحكم الإسلامي ما دامت حياته، لتوفّر هذا الضمان فيه.

فـــإذا أيقـــنّا أن الإمام هو الذي يستلم أمانة الله لخلقه بعد فقد الأمين الأول .. بعد فقد الرسول.

.. وإذا أيقـــنّا أن أهميـــة هذه الأمانة لاتزال هي أهميتها الأولى، وأن قدســـيتها لاتزال هي قدسيّتها -وإن انقضى دور التأسيس-، فيجب أداؤها للحاضـــرين والمستقبلين من الناس والأجيال، كما وجب أداؤها لمن سلف، وأن طباع الخلق وصفاهم وخلائقهم لاتزال هي الصفات.

.. وإذا علمـــنا أن زمـــام الحكـــم في الإسلام يستلمه الإمام بعد فَقْد الرســـول، وأنـــه الرئيس الثاني للحكومة، والقائد الثاني للصفوف، والزعيم الثاني للحركة.

.. إذا علمـــنا ذلـــك، ثبت لدينا -دون شك- أن الإمام لابد فيه من العصـــمة التي تدعم حجته، وتُثْبت قوله، وتُثبّت حكمه، ولابد فيه من العلم الذي يسدّ حاجة العباد، ويكفي لسدادهم ورشادهم وتنظيم شؤوهم وتدبير أمرهم، وإلاّ لكان المنهج مختلاً، وكان التدبير ناقصاً، وتعالى الله، وتقدست شريعته، وعظم تدبيره عن سمات النقص واختلال المناهج.

لابـــد فيه من العلم والعصمة، وهذان هما الشرطان الأساس في فكرة الإمامـــة، أمّـــا بقيـــة الشـــرائط التي يذكرها علماء العقائد فهي متمّمات ومكمّلات.

مصدر العلم والعصمة في الإمام:

لابـــد في الإمـــام من العلم، وإلاّ لم تقم به حجة ولم تتحقق به غاية، ولابـــد وأن يكون غير محتاج إلى غيره في ذلك، وإلاّ كان ذلك الغير الذي احتاج هو إليه أحقّ منه بالإمامة، وفي القرآن الكريم:

﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبعَ أَمَّن لايَهِدّي إلاّ أَنْ يُهْدَى، فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ [1] ﴾.

ولابد وأن يكون علمه غير مأخوذ عن تقليد ولا عن اجتهاد؛ لأنه إذا كان مقلّداً كان مرجعه أعلم منه، فهو أحقّ منه بالإمامة. وإذا كان مجتهداً؛ لم تجـــب طاعته على المجتهدين الآخرين الذين يخالفونه في الحكم، ولا على مُقـــلّديهم، وهذا واضح أتمّ الوضوح، فلابد وأن يكون علمه عن مصدر هو أرقى من الاجتهاد والتقليد.

إن الله الذي ارتضاه للحكم، وعيّنه للإمامة والزعامة، واختاره للأمانة، هـــو الذي يفيض عليه العلم ويمدّه بالعصمة. وفي القرآن يصف بعض العباد الذين شملتهم هذه العناية، يقول: ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ

١ــ يونس: ٣٥.

عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً [١] ﴾.

نتائج منطقية متسلسلة، يسلسلها العقل، ويقود إليها البرهان، ولايشكّ فيها أحد يحترم فكره بعد أن يتبيّن معناها ويتحقق مبناها.

ولا يشكّ فيها أحد عرف الإسلام وعرف غايته وخبر استبطانه للأمور.

وفي القرآن الكريم:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيْمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً، قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: لايَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِيْنَ [٢] ﴾.

والآية الكريمة صريحة الدلالة على أن إمامة الناس جَعْلٌ من الله (عز وجل)، وعَهْد يختص به من يشاء من عباده، ولعلّ في الآية إيماءة خفيّة إلى أن الناس عبادٌ مربوبون لله، وهو -سبحانه- ربُّهم، ومدبّر أمرهم، فيكون نصبُ الإمام لهم حقاً خالصاً لله، لأنه (تعالى) وليّ أمرهم.

والآية صريحة الدلالة -كذلك- على أن هذا العهد المجعول من الله - سبحانه - لاينال مَن كان ظالماً، أيّ ظلم كان، سواء أكان الظلم لغيره أم لنفسه، ومن يتعدّ حدّاً من حدود الله، أو واجباً من واجباته فقد ظلم نفسه؛ فلا يناله عهد الله.

والمعنى الصريح لذلك أن هذا العهد المجعول من الله لاينال إلاّ المعصوم

١ـ الكهف: ٦٥.

٢ـ البقرة: ١٢٤.

الذي تصونه عصمته أن يرتكب ظلماً لغيره أو ظلماً لنفسه.

ومــن المحال على حكمة الله (عز وجل) ومن الممتنع على شريعته أن يُســلّم قيــاد البشرية كلّها بيد من لايُؤمَن أن يرتكب، أو يخون، أو يخالف بعض أحكام الله عامداً أو مخطئاً.

ومن المحال على حكمة الله (تعالى) ومن الممتنع على شريعته، أن يجعل قيــاد الأمــة بيد من لايُؤمَن عليه أن يرتكب أو يخون أو يخالف، ثم تفرض شــريعة الله على الأمة طاعته وتحرّم الخروج عن أمره قيد شعرة، فإن ذلك تناقض صريح.

وإذا كــان في الأمــة مــن يسدّده إذا أخطأ كان أولى منه بالإمامة ووجوب الطاعة بنص الآية الكريمة المتقدمة:

﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّن لايَهِدّي إلاّ أَنْ يُهْدَى، فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ﴾ .

إنهــا نتائج منطقية يسلسلها لنا العقل، ويقودنا إليها البرهان، واحدة واحدة، وتُثبتها لنا الحجج الناصــعة القــاطعة، من الكتاب وأقوال الرسول (ص)؛ حــتى لانــشــكّ، ولايحوم حولها ريب. وهذه النتائج المنطقية هي حصيلة مذهب أهل البيت (ع) في عقيدة الإمامة والعصمة.

لابــد من نصب الإمام ومن وجوده بعد الرسول (ص) لحفظ الشريعة التي أسستها النبوة، وما دامت شريعة الله (تعالى) شريعة للعصور، ولايختص بهــا عصر الرسالة وحده، وحفظها وضمان غايتها، وبلاغها للناس واجب عــلى الله (جــلّت حكمته) في أدوار بقائها، كما هو واجب عليه في دور

تأسيسها.

ولابــد من نصب الإمام ومن وجوده بعد الرسول (ص) لتربية الأمة وتــزكية نفوسها في جيلها المقبل، فإنّ غاية الرسالة من تزكية الناس وتطهير قلوبهم وأرواحهم لا تتأدّى بتربية الناس في عصر الرسول (ص) وحده.

ولابــد من نصب الإمام ومن وجوده بعد الرسول (ص) ليتسلم أزمّة الحكم في الإسلام، ويحقق العدل الأعلى بين الناس.

إن هذه الغايات وهذه الضروريات لاتتأدّى إلاّ بنصب الإمام ووجوده بعد الرسول (ص)، فيكون نصبه وتعيينه ضرورة إسلامية لابدّ منها.

ثم لابد في الإمام المنصوب المعيّن من العلم، ولابد فيه من العصمة، لأنّ تلك الغايات الإسلامية، وتلك الضرورات لاتتأدى إلاّ بهما، فهي ضمان إلهي لغايات الإسلام وضروراته، وهي عقيدة لايسع الناس جهلها، ولا الانحراف عنها، ولا مكان فيها لاجتهاد ولاخيَرة.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُه أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الــخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم، وَمَنْ يَعْــصِ اللهَ وَرَسُــولَه فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيْناً [١] ﴾

معنى العصمة:

والعصــمة هــي الدرجة العظمى من العدل الإسلامي في الفرد، هذه الدرجــة الكــبرى الــتي توقظ مشاعر المعصوم وركائزه، وتعتلي بدوافعه

١ــ الأحزاب: ٣٦.

وبواعــثه، وتسمو بها نفسه وعقله وملكاته وأشواقه وإرادته، فلا يهبط، ولا ينحرف، ولايشذّ.

والعصمة -كما قلت في بعض أحاديثي- (رصيد نفساني كبير يتكون من تعادل جميع قوى الإنسان النفسانية وبلوغ كل واحدة منها أقصى درجة يمكـــن أن يبـــلغها الإنسان، ثم سيطرة القوة العقلية على جميع هذه القوى والغرائز والركائز سيطرة كاملة حتى لاتشذ عنها في أمر ولا تستقل دونها في عمل.

(هـــذه الحصانة الذاتية التي يرتفع بها الإنسان الأعلى عن الاتضاع في طبيعته، ويمتنع بها عن الانزلاق في إرادته، ثم عن الانحرافات والالتواءات التي تترسّب في منطقة اللاشعور وتتحول -كما يقول العلماء النفسانيون- عُقَداً نفسية تتحكم في دوافع المرء وفي سلوكه، وفي اتجاهاته وملكاته، وتسوقه من حيث لايريد إلى النشوز عن الحق والشرود عن العدل.

(هـــذه الحصانة الذاتية التي توقظ مشاعر الإنسان الكامل فلا يغفل، وتعتلي بملكاته وأشواقه فلا يتزلق ولايكبو، والتي تكفل له صحته النفسية من كـــلّ وجـــه، هذه هي العصمة التي يشترطها مذهب أهل البيت في الرئيس الأعلى لحكومة الإسلام[١]).

العصمة هي الدرجة العظمى من العدل الإسلامي في الفرد.. هي الأثر الكـــامل الذي يتركه الالتزام الكامل بمناهج الإسلام وعقائده في نفس الفرد

١ــ الإسلام:ينابيعه. مناهجه. غاياته. ص٣٣٢-٣٣٣ ط٢.

وقواه ومشاعره.

إن الفــرد قــد يؤمن بالدين ويلتزم به التزاماً متوسّطاً، فتتأثر به نفسه وقـــواه ومشـــاعره تأثيراً متوسطاً كذلك، وتأثره بإيمانه لايمنع عليه أن يواقع الخطيــئة، أو يخــلّ بالواجب عامداً، فهو مؤمن مرتكب، وهذه هي حال الكثرة من الناس.

وإن الفرد قد يؤمن بالدين، ويلتزم به التزاماً قوياً بالغاً، فتتأثر به نفسه وقواه ومشاعره تأثراً قوياً بالغاً كذلك، وهذا التأثّر القوي البالغ يمنع عليه أن يواقــع الخطيئة أو يخل بالواجب عامداً، وإذا طرأت عليه في بعض الأحيان طــوارئ من الضعف الإنساني، فواقَع الخطيئة أو أخلّ بالواجب فإنه سرعان ما ترجع إليه قوته الإيمانية فيسترد الموقف، ويبادر إلى التوبة، ويمحو بها الأثر الطارئ:

﴿ إِنَّ الَّذيْــنَ اتَّقَــوا إذا مَسَّهُمْ طَــائفٌ مِنَ الشَّــيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ (١) ﴾.

وهــذه هي درجة التقوى، ومنــزلة العدالة على تفاوت بين الناس في درجاتها.

أما الإنسان الأعلى.. أما الإنسان الكامل الإنسانية، فإنه يؤمن بالدين، ويلتزم به التزاماً كاملاً، وينصهر به انصهاراً شاملاً، حتى يصبح حقاً مجسّداً، وعــدلاً شاخصــاً، وصدقاً ماثلاً، فلاميل، ولا ضَعَة، ولا نشوز، بل توازن

١ـ الأعراف: ٢٠١.

شامل كامل، ويقظة شاعرة حية، وسموّ في كل معنى، وفي كل اتّجاه، وهذه هـــي درجة العصمة، فالعصمة فيض إلهي يفيضه - سبحانه- على النفوس الســـامية الـــتي تستوعب كلمة الله وتستوعب رشده، وفيضُ الله ومواهبه لاتعطى محاباة، ولاتؤتى جزافاً دون مؤهّلات واستعدادات، والله أعلم حيث يضع هبته ويؤتي فيضه.

لا جَبر في العصمة:

والعصـــمة حصانة نفسانية ذاتية - كما قدّمت- تُعِدُّ لَها مؤهلات في نفس المعصوم، وتمهّد لها كمالات في ذاته، ثم يتمّها فيض الله (تعالى) وهبته لتـــلك النفس السامية الطيّعة، وهي لاتوجب للمعصوم جَبراً على طاعة، ولا اقتساراً عن معصية، كما يظنّ بعض الناس، فيُشكِلون ويَستشكلون.

ولكـــنَّها نفس قدسيّة تسمو عن الضَّعة، وعقل منير يجلّ عن الهبوط، وإرادة مهديّـــة تعظـــم عـــن الانزلاق، وروح عظيمة تكبر عن الاتجاهات المنحرفة والغايات الصغيرة، وقلب متّقد الشعور والإحساس لاتجد الغفلة ولا النكسة ولا الخطْأة إليه سبيلاً.

وكـــأن الأمـــر قـــد التبس على هؤلاء الناس في ذلك من جهة القول بعصـــمة الملائكة، والعصمة فيهم قد تفيد معنى الجبر والقسر. وهذا المعنى في الملائكـــة آت مـــن قِبَل خلوّ الملَك في تكوينه من عوامل الشهوة والغضب والانفعـــالات والدوافع التي تدفع بالإنسان إلى الشر، فهي قوى مجبولة على الخـــير، ولا نزوع فيها إلى الشرّ، أقول: وهذا المعنى في الملائكة آت من هذه

الناحية، لا من جهة معنى العصمة.

إن معنى العصمة واحد، هو الحصانة عن الوقوع في الذنوب، والاختلاف إنما هو في الأسباب والمعطيات، ومرجعها الأول هو فيض الله الذي يمدّ كّلاً بما يستحق.

الاعتقاد بالإمامة والأئمة:

هذه هي فكرة الإمامة والعصمة في الإسلام، نيّرة بنور الإسلام، جليّة بجلاء حكمته، واضحة بوضوح مقاصده وغاياته، وعلى نور هذه الفكرة وجلاء أهدافها يجب أن نسير في بحث الإمامة، وفي عقيدتنا بالإمام وفي سلسلة الإمامة، فالإمام مَن عيّنه الله (تعالى)، وعَهَد إليه بنصٍّ صريحٍ واضحٍ، ومَن استجمع شرائط التعين، فهو المعصوم الذي ليس في الأمة أعلم منه، ولا أهدى للحق ولا أبرّ ولا أتقى.

وأول السلسلة الطاهرة هو علي (ع) الذي جعلته آية المباهلة نفس الرسول (ص)،[1] ونفس المعصوم معصوم.

١ــ وهي قوله (تعالى): ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوا نَدْعُ أَبْنَاءَنا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنا وَنِسَاءَكُم وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ٦١).
أخرج مسلم في صحيحه في كتاب (فضائل الصحابة) باب (من فضائل علي بن أبي طالب (ع)) عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه – من حديث – ، ولما نزلت هذه الآية (قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي. ورواه الترمذي في صحيحه (ج٢ ص٣٠٠) وأحمد بن حنبل في مسنده (ج١ ص١٨٥) والسيوطي في الدر المنثور في تفسير آية المباهلة من سورة آل عمران، وقال أخرجه ابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه

وجعلته آية التصدق بالخاتم[١] شريكاً للرسول (ص) في ولايته على الأمة.

وجعله حديث الغدير[٢] مولى كل مؤمن ومؤمنة.

وجعلته أحاديث الرسول قرين الحق يدور معه حيثما دار[٣]، وباب مدينة العلم أنّى توجّه[٤]، وبمنزلة هارون من موسى من

عن سعد بن أبي وقاص، كما روى القصة كثير من المفسرين وأئمة الحديث. راجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج١ ص٢٤٤-٢٥٠.

١ـ وهي قوله (تعالى): ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُه وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيْمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾(المائدة: ٥٥).

قال السيوطي في (الدر المنثور): أخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال (تصدّق علي (ع) بخاتمه وهو راكع فقال النبي (ص) للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذاك الراكع فأنزل الله ((إنما وليكم الله ورسوله))). وروى القصة بطرق عديدة أخرى كما رواه غيره من الرواة والمفسرين. راجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج٢ ص١٣ وما بعدها.

٢ـ حديث الغدير وقول الرسول (ص) فيه (من كنت مولاه فعلي مولاه) مّما تواتر بين المسلمين ورواه من الصحابة مائة وعشرون -حسبما أحصاه صاحب كتاب الغدير- ومن التّابعين أربعة وثمانون ومن طبقات العلماء في مختلف القرون ٣٥٣؛ إذ رواه أحمد بن حنبل من أربعين طريقاً، والطبري من نيف وسبعين، وابن عقده من مائة وعشرين. يراجع كتاب الغدير ج١ كله للوقوف على التفصيل.

٣ـ روى الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج٣ ص١٢٤ عن النبي (ص) قال: (رحم الله علياً اللهم أدر الحق معه حيث دار) ورواه الترمذي في صحيحه كما روى الخطيب البغدادي في تاريخه ج١٤ ص٣٢١ بسنده عن أبي ثابت مولى أبي ذر قال: دخلت على أم سلمة فرأيتها تبكي وتذكر علياً (ع) وقالت: سمعت رسول الله (ص) يقول: (علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة).

٤ـ روى الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج٣ ص١٢٦ بسنده عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص): (أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب). وقال الحاكم: هذا

الرسـول (ص)[١] وبقيـة السلسـلة هم المعصومون (ع) الذين أجملتهم آية الـتطهير[٢] ، وقرناء الكتاب لن يفترقا حتى يردا على النبي (ص) الحوض في حديث الثقلين[٣] ، والذين فصلتهم السنة المطهرة، وعرّفتهم وعرّفت سماهم

حديـث صحيح الإسناد، ورواه بطرق أخرى كما رواه غيره من أئمة الحديث. يراجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج٢ ص٢٥٠ وما بعدها.

١ـ حديـث المنـزلة الذي يقول فيه الرسول (ص) لعلي: (أنت مني بمترلة هارون من موسى)، حديث متواتر بـين المسـلمين وممن رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب (مناقب علي بن أبي طالب)، ومسـلم في صحيحه. كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب، وابن ماجة في سننه ص١٢ ، وأحمد بن حنبل في المسند ج١ ص١٧٤ وغيرهم .

٢ـ هـي قوله (تعالى) في سورة الأحزاب (آية: ٣٣) ﴿ إِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْراً ﴾. روى الترمذي عن عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي (ص) قال: لما نزلت هذه الآية عـلى النبي (ص): (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) في بيت أم سلمة فدعـا فاطمة وحسناً وحسيناً فجلّلهم بكساء، وعلي خلف ظهره، ثم قال: (اللهم هؤلاء أهل فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك وأنت إلى خـير) صـحيح الترمذي ج٢ ص٢٠٩ كما رواه غيره مثل مسلم في صحيحه والحاكم في المستدرك وصححه، والسيوطي في الدر المنثور وابن حجر في تهذيب التهذيب وغيرهم، راجع فضائل الخمسة ج ١ ص٢٢٤ وما بعدها.

٣ـ روى الحاكم في المستدرك ج٣ ص١٠٩ بسنده عن زيد بن أرقم قال: لمّا رجع رسول الله (ص) من حجـة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقُمِّمْن فقال: (كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. ثم قال (ص): إن الله (عز وجل) مولاي وأنا مولى كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي (ع) فقـال: من كنت مولاه فهذا وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)..وذكر الحديث ثم قال: هـذا حديـث صـحيح على شرط الشيخين، وروى حديث الثقلين جميع أئمة الحديث كمسلم في صـحيحه وأحمـد بن حنبل والبيهقي والدارمي والمتقي في كتر العمال وغيرهم، راجع كتاب فضائل الخمسة ج٢ ص٤٣ وما بعدها.

وأسماءهم وأعيانهم النصوص المتواترة التي لم تدع شكاً لذي شكّ، ولا جدالاً لذي جدال.

وآخرهم هو النور الذي تعاقدت الأديان على التبشير به، والحقّ الذي تواترت الأدلّة على التعريف به، والعدل الذي تسالمت الأمم على انتظاره.

هـــذه هي فكرة الإمامة والعصمة، وهذه هي السلسلة المطهرة نور من نور، وهدىً من هدىً، ودليل من دليل، وقبس من قبس، عرّفنا الله حقّهم، وثبّتنا على ولائهم وغذّانا حبهم.

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِيْنَ[١] ﴾.

﴿ رَبَّـــنَا لاتُـــزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ [٢] ﴾

١ـ آل عمران: ٥٣.

٢ـ آل عمران: ٨.

دعونا يا أدعياء[1]

دعونا يا أدعياء..

دعوا الإسلام يضمِّد جراحه، ويؤلّف شتاته..

دعوا المسلمين يُجمعوا أمرَهم، ويوحّدوا كلمتهم، ويثـــبّتوا أقدامهم..

دعونا يا أدعياء..

دعـــوا دين الله يأسُ جراحه التي تركتها المناحرات الشديدة بين أبنائه، والغارات اللئيمة من أعدائه.

دعـــوا الغيـــارى مِن أنصار الله ، وحملة الحقّ ، تُنبه الراقدين، وتدعو الشـــاردين، فقد هُدّد الحق، وأنذرت الكرامة، واقتحمت الحدود، ولم يبق مساغ للغفلة، ولم يبق مجال للإبطاء.

دعـــوا أنصـــار الله الغيارى تُجمِّع أوصال الأمةِ المتفرقة، وتؤلّف قواها المبعثرة، وتسمعها – من جديد – قولة الله (تعالى) في كتابه العزيز:

﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيْحُكُم واصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِيْنَ[2] ﴾.

١ــ كتبت جواباً عما كتبه الجبهان في مجلة (راية الإسلام) التي تصدر في الرياض من التهجُّم على أئمة أهل البيت(ع) وشيعتهم.

٢ــ الأنفال: ٤٦.

دعـــوا المصلحين يسمعوا الأمة هذه القولة الكريمة، وأخواتها من آيات الله بلهجة جديدة وبلحنٍ جديد ..

.. بــلحن جديــد هـــو لحن السماء يوم أنزلت هذه الآيات ، ولهجة جديدة هي لهجة الرسول (ص) يوم قرأها أول مرة على أسلافنا الصالحين من المؤمنين.

دعونا يا أدعياء..

إن الأمـــر أشدّ خطراً من أن نشتغل عنه بكم، أو نكترث لأغاليطكم، وإنّ أقوالكم أتفه وأسفه من أن تصرف المسلمين عن عمل ، أو تؤيسهم من أمل..

دعونا، فلسنا بمبتعدين عن إخوان كرام أعزة علينا، مدّوا إلينا أيديهم، وصـــافونا بقـــلوبهم، وأيقـــنّا بصدقِ العزيمة فيهم .. لسنا بمبتعدين عنهم، وليسوا بمبتعدين عنّا أبداً، وإن جُدعت أنوف، ووُغِرت صدور.

دعونا يا أدعياء ..

دعـــوا أمة القرآن تتعارف وتتآلف، وتتصافح كفّاً بكفٍ، وتتلاثم فماً بفـــمٍ، فقد آن لها أن تفيد من عِبَر الماضي ما يقيها أخطار الحاضر وأخطاء المســـتقبل، وقد آن لها أن يفهم بعضها بعضاً، وأن يشدّ بعضها أزر بعض، وآن لها أن تعي أن منابذة بعضها بعضاً إنما تعني هدم كيان الإسلام، ونسفَ هيكله العام.

دعـــوا جـــنود الله تتناصـــر، وكتائب الله تتآزر، ولاتشغلوها بهرير.. وعـــواء..، فقـــد عـــرف المسلمون - سنّيّهم وشيعيّهم- قيمة القول الذي

تقولـــون، وضـــعف الهدف الذي تستهدفون.. نعم، وعرفوا القوى الدافعة والأيـــدي المحرّضة التي استخدمتكم لهذا الإفك ، وحرّضتكم على دسّ هذه السموم.

لقـــد عـــرف المسلمون أجمعون أكتعون، وعرفت حكومات الإسلام، وعرفت حكومتكم المسلمة قيمة ما تقولون، ولستم بالغين -بعون الله ويقظة أنصاره- ما تأملون.

دعونـــا، فلستم مُلْقين علينا حديثاً جديداً لم نسمعه منكم، كالحيوان يجترّ أخبث ما في أمعائه.

وما ضرّ المطهّرين من آل رسول الله (ص)؟: أن يجهل عليهم جاهل، أو يـــنال مـــن قدسهم نائل، وهم وديعة النبوّة وقرناء الكتاب - بنصّ الرسول (ص)، واعتراف جميع المسلمين - .

وما ضرّ علياً والميامين من أبنائه (ع) ؟: أن تنالهم الفئة التي:

كَنَّتْ عن النبي بابن عمّه فهي تريد شتمه من شتمه

نعـــم، ومـــا ضرّ الإمام جعفر بن محمد الصادق (صلوات الله وسلامه عليه) ؟ وما ضـــرّ آباءه وأبناءه المصـــطفين (ع)؟: أن يفتري عليهم مفترٍ ، أو يمـــتري فيهم ممترٍ، فقد قال شانئون في جدهم الأعظم (ص): إنه ساحر كذاب ، وقالوا: إنه شاعر مجنون .

وقال ملحدون في الله - تبارك اسمه -: إنه وهمٌ اختلقه الإنسان..

وقالوا: إنه خدعة وضعها الإقطاع يمدّ بها نفوذه ويحرس حدوده..

وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقال المبشِّرون المعاصرون في الرسول (ص) ما هو أمضّ وأنكى.

ولقــد كان الاستعمار هو الدافع إلى هذا القول على ألسنة عملائه من المبشّرين، فلا نستكــثر على الاستعــمار أن يقول في حفيد الرسول (ص) ما أوحى على ألسنة عملائه من...

دعونا يا أدعياء ..

إن شيعة أهل البيت (ع) قد أمرهم كتاب رهم -إذا مرّوا باللغو- أن يمرّوا كراما، و -إذا خاطبهم الجاهلون- أن يقولوا سلاماً.

بلى! لقد عوّدها القرآن الحكيم على هذا الخلق الكريم..

.. الكــتاب الحكــيم العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي تستمسك به، وتدين الله بتحليل حلاله وتحريم حرامه.

وتقــول: إنــه معجــزة الله الخالدة لشريعة الله الخالدة، فلا تغيير فيه ولاتحريف.

هذه عقيدتها في القرآن، وهي مشروحة مثبتة في كتبها، فافهموا – إن شئتم تفهمون –، أو ارغموا – إن شئتم تُرْغمون –.

وإن الشيعة تؤمن إيماناً ثابتاً لاتزلزل فيه، ولا اضطراب معه، ولا التواء عنه، بأن لا إله إلاّ الله وحده، لاشريك له في وجوب وجوده، ولا شريك له في كماله، ولا شريك له في ألوهيّته، ولاشريك له في ربوبيّته، ولاشريك له في تقديــره وتدبــيره، وهو أحدٌ في الصفات وفي الأفعال، وهو منــزّه عن الحــدود، مــنــزّه عن الحاجة، منــزّه عن العلّة، ليس بجسم، وليس كمثله شيء، ولاتدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

وهـــي تشهد كما ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ وَالمَلائكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائماً بالقِسْطِ ، لا إِلهَ إِلاّ هُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ. إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ [١] ﴾.

وتؤمـــن كما ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ وَمَلائِكَـــتِهِ وَكُتُـــبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيْرُ[٢]﴾.

هـــذه عقيدة الشيعة، وهي مشروحة مبسوطة في كتبها، وقد عرفها فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر[٣] ، وعرفها المسلمون أجمعون لما مدّوا أيديهم إلى الشيعة، وصافحوها مصافحة الأخوّة، وحيّوها تحية الإيمان، فاجحدوا أنتم - إن شئتم الجحود - .

نعم، تقول الشيعة بالإمامة..

.. بإمامـــة علي (ع) من بعد الرسول (ص)، وإمامة الأحد عشر من أبنائه المطهّـــرين (ع) مـــن بعده، نوراً بعد نور، وهادياً بعد هاد، وأدلّتهم على هذه العقيدة مسطورة، وكتبهم فيها مشهورة ليس فيها اختفاء ولا التواء، فليقرأها من يشاء القراءة، ولينتقدها من يريد النقد .

١ـ آل عمران: ١٨-١٩.

٢ـ البقرة: ٢٨٥.

٣ـ المقصـــود هـــو فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وفتواه المعروفة في اعتبار المذهب الشـــيعي الاثـــني عشري مذهباً خامساً للإسلام ، وتصحيح اتّباعه والعمل به مع المذاهب الإسلامية الأربعة المعروفة.

ولا تقول الشيعة بتأليه بشر، وتـــبرأ ممن يجعل لله شريكاً في خلق أو رزق، وتتحدّى الكاذبين أن يقيموا بيّنة على ما يقولون .

رَبَّنَابلى، هنا غلاة غلت في دينها غير الحق، وقد حكمت الشيعة الإمامية الاثنا عشرية بكفر هذه الطائفة، وذرّت شبهاتها واحدة واحدة.

وحُكمهـــم بكفر هذه الطائفة وبنجاستها موجود في كتب الفقه، معروف عند المطّلع، وأجوبتهم عن شبهاتها مذكورة في كتب التوحيد وفي كتب الفلسفة، ميسورة لمن أراد التبيّن .

وليـــس عند الشيعة علوم باطنة تخفيها عن النـــاس، ولكنـــها تقول كما قال الله (عز اسمه):

﴿ هُـــوَ الّـــذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ، وَأُخَـــرُ مُتَشَابِهَاتٌ. فَأَمَّا الّذينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُوْنَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيْلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إلاّ اللهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ، وَمَا يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُو الأَلْبَابِ[1] ﴾.

أمـــا الهراء والافتراء الذي شحنت به صدوركم وسطوركم، فإنّ الله – وحده– هو الحسيب على الكاذبين، العليم بما في صدور العالمين .

١ــ آل عمران: ٧.

دعونا يا أدعياء..

فقـــد عرفنا هدفكم وهدف أسيادكم، ولن نمكّنكم - إن شاء الله - من بـــلوغه أبداً، وسيكون - بإذن الله - سكوتنا عنكم هو الجواب الفاصل والسهم القاتل.

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

المجتمع في الإسلام

أود أن أفتتح حديث الليلة عن المجتمع في الإسلام، وهو الموضوع الذي اقــترح الأعزاء أن أتحدث إليكم عنه، وهو موضوع واسع الأطراف، كثير الشعب، لايتسع له كتاب ضخم، فضلاً عن حديث في موقف.

..أودّ أن أفــتح حديــث الليلة بملاحظة صغيرة حول هذا الإنسان:
..حول هذا الكائن الغريب الأطوار.

إن هذا المخلوق يأتي بالعجيب المدهش من النتائج إذا هو عرف السبيل إلى الفكرة، واستبان المعالم في الطريق، ثم هو يضل عن أوضح الواضحات، وأجــلى الجليّات في ميادين المعرفة، وليس بينه وبين النتيجة القطعية إلاّ نظرة يتجرد فيها عن مألوفاته.

الإنسان وما وراء المادة:

سار الإنسان مع المنطق المحسوس، ومع التجربة، ومع الملاحظة الدقيقة في ميــادين المــادة: ميادين العلم الحديث، فأتى بالعجائب المحيّرة للعقول، والمعجزات المذهلة للألباب، وهو لايزال يتقدم في طريقه هذا، ويأتي في كل يــوم بالمحيّــر المذهــل، وبالنتائج المبرورة المشكورة، لأن المنطق المحسوس والــتجربة والملاحظــة الدقيقــة هــي السبيل المضمون الصحة إلى النتيجة

الصحيحة في ميادين المادة .

وطـــلب هذا الإنسان أن يسير مع هذا المنطق المحسوس، ومع التجربة والملاحظـــة الحسّية الدقيقة في معرفة ما وراء المادة، وكان من الضروري أن تقف الآلات والأدوات الماديّة في هذه الميادين، لأنها ليست من مجالها، ووقف هـــو لـــمّا وقفت أدواته وآلاته، وبقي يتخبّط حائراً سادراً، ولو أنه أنصف في النظر، لعلم أن المنطق الماديّ لاسبيل له في غير المادة، وأن للمعرفة في هذه الميادين منطقاً آخر وأدوات غير هذه الأدوات.

إن مبضـــع الجـــراح، ومصهر الكيميوي، وميزان الفيزيوي، ومنظار الفـــلكي، ومجهـــر المحلل، ومختبر العالم، لايمكن لها أن تتناول غير المادة، وإن ضاعفنا قوتها مليون ضعف أو مائة مليون، وهذا واضح لايشك فيه أحد من الناس.

وزاد الإنســـان خطـــوة على ذلك فأنكر أن يكون للمعرفة طريق غير الحـــس والـــتجربة، وغـــير الأدوات التي يتّخذها العلم المادي وسيلة لمعرفة المادّيـــات، ونتيجة محتومة لذلك: أنكر وجود ما وراء المادة، وبقي حائراً في تعـــليل وجـــود هـــذا الكون ووجود الحياة .. يفترض الفروض ثم يُبطلها، ويـــتوجّه إلى جهـــة ثم ينصرف إلى سواها، فهو في ذبذبة دائمة، وفي ظلمة قائمة.

واتّهم العلم بأنه ينكر ما وراء المادة، والعلم بريء من هذا القول، براءة الذئـــب من دم يوسف -كما يقول القدماء-، لأن العلم لايدّعي ماليس له، ولايقول كلمته فيما يخرج عن اختصاصه، وإلاّ انقلب العلم جهلاً.

أرأيـــتم؟ .. هذه وجهة الإنسان في استجلاء هذه الحقيقة الواضحة، أضاع الوسيلة فأضاع النتيجة، وليس بينه وبين الواقع إلاّ أن يراجع حساب الأرقام فيعرف خطأه ويصحح نظرته ويسير مع العقل الأمين.

الفلسفة الوضعية في الميزان:

وكـــانت هـــذه الفكـــرة مفتاحاً لسلسلة من الأفكار سمّاها الفلسفة الوضـــعية، وبناها على إنكار كل شيء وراء المادة، والمنطق الصحيح يحاسبه على كل حلقة منها، وعلى كل نتيجة توصله إليها.

ومـــن الـــبحوث التي أقامها على هذه الفكرة بحثه في الاجتماع، وفي الحيـــاة، وفي الإنسان، وفي شؤونه وأخلاقه، فقد فسّرها تفسيراً مادياً خالصاً لاصـــلة له بـــروح، ولا بغيرها من عالم ما وراء المادة، واستخلص على هذا البناء نتائجه ووضع أحكامه.

ولا أريـــد الإطالـــة في هـــذه الناحية، فقد استوفيت الكلام عنها في أحاديث أخرى خصّصتها في هذا الموضوع.

وحســـبي أن أشير إلى أن هذه الناحية فرع من فروع النظرية الوضعية التي تنكر ما وراء الحسّ وما وراء المادة، فإذا بطل الأصل بطل الفرع.

وحســـبي أن أقول: إن إنكار ما وراء الحسّ بذاته يهدم أساس الفلسفة الوضعية، لأنه لايقوم على دليل محسوس.

وحسبي أن أكرر هنا ما قلته في بعض أبحاثي للموضوع.

(لماذا ينكرون أن يكون للمعرفة طريق غير الحسّ والتجربة؟! وهل من

الممكـــن أن تقوم فلسفة ما على الحس والتجربة وحدهما، وحتى إذا كانت تلك الفلسفة تعالج ناحية ماديّة خالصة؟!

(إن الإحســـاس لايعـــدو أن يكـــون تصويراً للشيء المحسوس، وإن التجربة – في كثير من مواردها – لاتتجاوز أن تكون تكراراً لهذا التصوير، ومقارنة بين ملامح الصور، أما مطابقة الصور لواقع الشيء ولصفاته الحقيقية فهـــي محـــتاجة إلى مصـــدر آخر هو أوثق – لدى العقل- من الحس ومن الـــتجربة، وأمـــا الـــتجربة والتعميم، واستنباط حكم عام شامل من الموارد الخاصـــة الـــتي أدركها الحسّ، ووقعت عليها التجربة، فهو مفتقر إلى عمليّة عقـــليّة خالصة، وتدخّل قوانين ضرورية لايشك فيها إنسان ولا تفتقر إلى إثبات.

(وقـــاعدة: ((إن التجربة هي مصدر المعرفة الحقيقية)).. هذه القاعدة الـــتي غلا فيها التجريبيون، فأنكروا أن يكون للمعرفة طريق سواها، ثم أمعن الوضـــعيون مـــنهم في الغلوّ، فأنكروا أيّ شيء لايناله الحسّ، وأي حقيقة لاتخضع للتجربة.

(أقـــول: وهذه القاعدة ذاتها، أليس من حق الناقد الحرّ أن يسأل عن طريق إثباتها للإنسان؟

(أهي التجربة ذاتها؟

(إن الشيء لايمكن أن يثبت نفسه!!

(وإذن فـــلا محيـــد للوضعيين من الاعتراف بأنها ضرورية لاتفتقر إلى إثبات، ولا محيد لهم من الاعتراف بأن الإنسان يملك ضروريات أولية يرجع

إليهـــا في إنشـــاء معرفته هي قبل التجربة، والتجربة إحدى نتائجها أو هي إحداها[١]).

الإنسان والمادة:

أمـــا حديـــث أن الإنسان مادة خالصة ولا شيء فيه غير المادة، فقد لخصته بقولي عنهم:

(الإنسان حيوان..

(فهو مادّي إذن..

(مادّي بلحمه ودمه وجميع قواه وأجهزة نشاطه. وهل للحيوان تأريخ غـــير تـــأريخ المـــادة. تأريخ القوت وضروب طلبه، والكدح الشديد فيه والتخاصم عليه، والتنافس في أمره، وملابسات ذلك وفروعه.

(ضـــعوا الإنســـان في المختبر ليحلّله العلم، فهل يجد سوى الفسفور والآزوت والكبريت والنحاس والحديد والكالسيوم والمغنيسيوم وأخواتها من عناصر المادة؟!

(فمســـألة الإنســـان الأولى مسألة مادة محض، ومسألة اقتصاد على الخصوص، وكلّ ما يجدّ سواها فإنما هي فروع، وإذا انتظم الاقتصاد انتظمت فروعه.

(هذا هو قولهم).

١ـــ الإسلام: ينابيعه، مناهجه، غاياته. ص٦٥.

ثم قلت: (ويكفي لدحض هذه المزاعم أن يتصوّروا أن الإنسان ليس حيواناً فقط.

(ويكفي لدحضها أن يتصوّروا أنه ليس مادياً فقط.

(يقولون: ضعوا الإنسان في المختبر ليحلّله العلم، فماذا يضعون منه؟

(يضـــعون جسمه بعظمه ولحمه ومخه وعصبه، ومن يشكّ في أن هذه مادية؟

(أفيضـــعون في المختـــبر المادي نفسه وروحه وقواه المختلفة وإرادته وعقله وتفكيره، وباقي مميزات إنسانيته؟

(أفيضـــعون هـــذه في المختبر أيضاً؟! وماذا يحلّل المختبر منها وهو لا يتناول غير المادة؟

(ليضـــعوا في المختبر إنساناً ميّتاً، وليتبيّنوا ماذا نقص بموته من عناصره الأولى يوم كان حياً، ثم ليبحثوا في ركام هذه المادة عن مصدر نشاطه الأول وهموده الأخير.

(بل ليلـــتقطوا عناصر الإنسان الحرة الطليقة وهي موفـــورة في تراب الأرض -كمـــا يقـــول العلم- ليجعلوا من هذه العناصر العشرين مقاديرها الموجـــودة في بـــدن الإنسان ثم ليقيموا منها هيكلاً إنسانياً كاملاً بأجهزته ومقوّماته وجميع خفاياه وخلاياه، وهو أمر غير شاقّ على العلم فيما أعتقد.

(بهذه التجربة وحدها سيجدون الفارق الأصيل بين الإنسان الطبيعي المخلوق الضخم، وبين الإنسان المادّي الذي يخضع للمختبر، ويوزن بالكيلو والغرام.

(وبهذه التجربة وحدها سيجدون الفارق الأصيل بين الأشياء الطبيعية الـــتي تحمل سرّ الحياة وتنقله إلى أعقابها، وبين مشابهاتها مما يصنعه الإنسان، وتنتجه معامله، وإن اتفقت معها في المادة والتركيب والمقدار.

(ســيجدون أن المسألة مسألة تكوين وإحياء، وليست مسألة هندسة وبناء[١]).

الإسلام والإنسان:

الإنسان جسد وروح..

هكـــذا يقـــول الإسلام، وهكذا يؤكد المنطق الصحيح، وهكذا تثبت موازين الحقائق.

نعم. الإنسان جسد وروح، جسد يتألّف من ذرّات المادّة، وجُزيئاتها، وروح من عالم ما وراء المادة:

﴿ إذْ قالَ ربُّكَ للْملائِكَةِ إنّي خَالقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ، فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيْه مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجدين[٢] ﴾.

﴿ وإذْ قَـــالَ رَبُّـــكَ لِـــلْمَلائكَةِ إني خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُون[٣] ﴾، هذا هو نصيب الإنسان من المادة.

((فإذا سَوَّيْتُه ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي)) هذا هو نصيبه مما وراء المادة.

١ــ المصدر السابق: ص ٥٥ – ٥٦.

٢ــ ص: ٧١-٧٢.

٣ــ الحجر: ٢٨-٢٩.

ومـــن هذين الخِلطين يتألّف كيان الإنسان وتتقوّم وحدته، وعلى هذه الوحدة قام الكيان وقامت الحياة، كما اقتضت الحكمة الخالقة، لا استقلال لروح عن جسد، ولاغَناء بجسد عن روح، ولا انفصال لأحدهما عن الآخر مادامت الحياة.

وعلى هذه الوحدة قامت نظرة الإسلام كما اقتضت الحكمة المشرّعة، فـــلم يفصل الإنسان جسداً عن روح أو روحاً عن جسد، ولم يعالجه مِزقاً لاصلة بين أبعاضه -كما صنعه المشرّعون الآخرون-، وعلى هذه النظرة سار الإســـلام في كل ما وضعه للإنسان من حكم، وما شرَعه للحياة من نظام، وما وصفه لأدوائه من علاج، وما جعله لمشكلاته من حلّ.

الإسلام وركائز الاجتماع الإنساني:

والاجـــتماع في الإســـلام بعض نواحي الإنسان التي تناولها بالوصف والـــتحديد والتشـــريع على هذه النظرة الأصيلة التي لايسوغ أن يحاد عنها ولايمكن أن تحيد.

وركائـــز الاجتماع أصيلة في كيان الإنسان، عميقة الجذور في غرائزه وطباعه، وقد قال كثير من علماء النفس: الاجتماع غريزة مستقلة من غرائز الإنســـان، ثابتة لعامّة أفراده، لازمة له في جميع أدواره، لم تنفصل عنه، ولم ينفصـــل عنها، حتى في عهود الغابات والوحشيّة، وإن كان أثرها ضعيفاً في تلك العهود.

وللإنســـان – وراء ذلـــك- مجموعة من الركائز النفسية الاجتماعية،

تعمـــل على لفّ الإنسان بالإنسان، وضمّ بعض أفراده إلى بعض، وعلى هذا أسّـــس العلماء النفسانيون علم النفس الاجتماعي، وأقاموا أصوله، وقرّروا مناهجه ونبغ فيه المتخصصون.

ويمكن لنا أن نحكم حكماً لاتحفّظ فيه، أن أكثر غرائز الإنسان دوافع تفـــرض عليه الاجتماع، وأكثر ضروراته حوافز تسوقه إليه، حتى مقوّمات خلقه، وحتى خصائص تركيبه.

لماذا منحه الله قدرة الكلام، وطاقة التأثير، وقوّة الفهم، وملكة التفهيم، إذا لم يكن الاجتماع ضرورة طبيعية من ضروراته؟!

هـــذه بعض ركائز الاجتماع في كيان الإنسان، أما ضرورات العيش والقـــوت، والتعاون لحفظ النفوس من العوادي، والتعاون لتحصيل القوت، فإنها تأتي في درجة متأخرة، ولها نسبة المؤكّدات لا المؤسِّسات.

الاجتماع ركيزة الوجود:

وركيـــزة الاجتماع في الإسلام -بعد كل أولئك- هي ركيزة الوجود والخـــلق، فهـــم جميعاً مخلوقون من مصدر واحد، ومن نفس واحدة، وهم - معاً- متّجهون في سبيل واحد إلى غاية واحدة:

﴿ ياأَيُّهَـــا النَّاسُ إنّا خَلَقْناكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا. إنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أتْقاكُم، إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ [1] ﴾.

١_ الحجرات: ١٣.

« إنّـــا خلَقْناكُم »، هذا هو المصدر الواحد، « مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى » هذا هـــو النســـب الواحـــد، « إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أتْقاكُم » وهذه هي الغاية الواحـــدة.. إن الغايـــة هي التقوى، وبلوغ درجة الكمال بها، والسابق إلى الغاية التي من أجلها كان، وإليها سار، هو المستوجب للكرامة عند الله الذي بيده المبدأ والمصير.

﴿ وَإنَّ هذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُون[1] ﴾.

والخطاب في هذه الآية الكريمة مع الرسل الذين أرسلهم الله إلى مختلف الشعوب والقوميات.

ففـــي سابق الآية: ﴿ ياأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطيِّـــبَاتِ واعْمَلُوا صَالحاً إني بما تَعْمَلُونَ عَليمٌ. وإنَّ هذِهِ أُمَّتُكُم أمةً واحدةً وأنا ربُّكُم فاتّقُون[2] ﴾.

فالأمة الواحدة في الآية هي البشرية جمعاء.

وفي سورة النساء: ﴿ ياأَيُّها النّاسُ اتّقوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحِـــدةٍ، وَخَـــلَقَ مِنها زَوْجَها، وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثيراً ونِساءً، واتَّقُوا اللهَ الذي تَساءَلُونَ بِهِ والأرْحَامَ. إنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقيباً[3] ﴾.

والأمـــة الواحدة – لوحدة مصدرها ووحدة نسبها ووحدة غايتها – لابـــدّ لهـــا من وحدة في الاتجاه والتفكير، وإلا تفرّقت كلمتها، وعمل في تمزيقها اختلاف الآراء، ومن أجل ذلك كانت بعثة الأنبياء (ع)، على مدار

١ــ المؤمنون: ٥٢.

٢ــ المؤمنون: ٥١-٥٢.

٣ــ النساء: ١.

التاريخ بدين واحد ووجهة واحدة:

﴿ كَانَ النّاسُ أُمَّةً واحدةً فَبَعَثَ اللهُ النبـيّين مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ في مَا اخْتَلَفُوا فِيه [١] ﴾.

أما الاختلاف بعد ذلك فمصدره هو البغي:

﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فيه إلاّ الذينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ماجَاءَتْهُم البَيّناتِ بَغْياً بينهم[٢] ﴾.

الأخوّة المؤمنة:

وإذا كـانت الأمة واحدة في المصدر، وواحدة في النسب، وواحدة في السبيل، وواحدة في الغاية، وواحدة في النظام، وواحدة في التفكير، استحقّت صفة الأخوّة بين جميع أفرادها.

﴿ إنما المؤْمِنُونَ إخْوةٌ [٣] ﴾.

وأية كلمة أدل على معنى التساوي الكامل والاشتراك في المبدأ والغاية من كلمة (إخوة)؟!

بـل وأي كـلمة تـنقّي القلوب من حقدها وغلّها، وتغذّيها بالحب والحنان والعطف مثل كلمة (إخوة)؟!

« إنما المؤْمِنُونَ إخْوةٌ » وما أبعد الآفاق، وأعمق الأغوار التي يرمي إليها هذا التعبير الكريم!!

١ـ البقرة: ٢١٣.

٢ـ البقرة: ٢١٣.

٣ـ الحجرات: ١٠.

ومـــا أبلغها كلمة تجمع -على اختصارها- أسمى علاقات الاجتماع، وأرقّ نظراته، وأنبل خفقات الحب، وأجمع معاني الاشتراك والمساواة!!

ومـــا أبأســـنا مجـتمعاً تطرق هذه الكلمة أسماعنا فلا تجد طريقها إلى قلوبنا!! ولو كانت هذه النبرة من إيقاع غير الإسلام لأسكرتنا من الطرب، وعزمنا على الشادي أن لاينتهي من النشيد!!

أليس كذلك -أيها الأعزاء-؟ لنَقُلْها صريحة دون حذر أو مواربة.

إنـــه ضعف النفوس والقلوب، وميلها مع البارق من الألوان، والجديد من الأزياء.

عـــلى هذه الأسس أقام الإسلام المجتمع، أمّا حدوده فهي البشرية التي تـــمّحي فيها الفوارق من أقاليم وألوان ولغات ، وتندمج فيها الجوامع من اقتصاد ومصالح، وأما صبغته فهي صبغة الإيمان.

﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ونحنُ له عابِدون(١) ﴾.

وأمـــا نظامـــه فهي الشريعة التي لم يعرف المشترعون نظاماً في الدنيا يستطيع أن يقف معها على قدم.

التضامن الاجتماعي في الإسلام:

وأمـــا التضامن الاجتماعي فيه فيظهر في عدة مبادئ وضعها الإسلام لهذه الغاية.

١ــ البقرة: ١٣٨.

يظهـــر في مبدأ وجوب القيام بالقسط على الأمة وعلى الأفراد، وعلى رأســـهم جميعـــاً حكومـــة الإسلام، فلا يُظلم أحد -فرداً أو أمة- حقاً من حقوقـــه، ولا يُبخس حظاً من حظوظه، ولا يُعتدى عليه أو على شأن محترم من شؤونه، بمنظر من المسلمين -أمة وأفراداً وحكومة-.

وعـــليهم أن يتّخذوا الأهبة، ويعدّوا العدّة لردّ العادين وأخذ الظلامة، وأخـــيراً لحســـم الفتنة، وإن كان المعتدي أباً أو أخاً أو قريباً، بل وإن كان المعتدي هو الفرد نفسه.

﴿ ياأيُّهـــا الّذيـــنَ آمَـــنُوا كُونُوا قوّامين بالقسْط شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُم أوالوَالِدَينِ وَالأقْرَبينَ إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أوْ فَقيراً فاللهُ أَوْلى بِهِما، فلا تتّبعُوا الهوى أنْ تَعْدِلُوا، وإنْ تَلْوُوا أو تُعرِضُوا فإنّ اللهَ كان بما تَعْمَلُون خَبِيراً [1] ﴾.

وفي ســـورة المـــائدة: ﴿ ياأيُّهـــا الّذين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ لله شُهَداءَ بِالقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أنْ لاتَعْدِلُوا. اعْدِلُوا هُو أَقْرَبُ للتَّقْوَى، واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعْمَلون [2] ﴾.

أسمعتم -أيها الأعزة- إن القيام لله بالقسط واجب، حتى مع الأعداء، فـــلا يحمـــل المسلمَ عداؤه لأحد أن يوقعه في الجريمة فيرتكب معه ما يخالف العـــدل. وإن ألـــوى أو أعرض عن حكم الإسلام فلم يعدل، فإن رقابة الله محيطة به، وجزاءه الكامل مرصود له «إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعْمَلون» .

١ـ النساء: ١٣٥.

٢ـ المائدة: ٨.

وفي ســـورة الحجـــرات: ﴿ وَإِنْ طائفَتانِ مِنِ المؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهما عَلى الأُخْرى فَقَاتلُوا التِي تَبْغِي حَتى تَفيءَ إلى أَمْرِ اللهِ،فَإِنْ فاءتْ فَأصْلحُوا بَيْنَهما بالعَدْل،وَأَقْسطُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المقْسِطِين (١)﴾.

هكذا يعدّ الله المسلمين إعداداً كاملاً للقيام بالقسط، ولحسم العدوان، وقمـــع الفتـــنة، وردّ الحقوق، وأي مرتقى للتضامن الاجتماعي هو أبلغ من ذلك؟!

ويظهـــر التضامن الاجتماعي في مبدأ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أكد الإسلام على هذا المبدأ العظيم أشد التأكيد، وأقام عليه نظام الإصلاح الفردي والاجتماعي العام، وجعله فريضة من أهم الفرائض، وعبادة من أسمى العبادات والقربات، وتوعّد الإنسان على مخالفته أو التقصير فيـــه بالعقـــاب الشديد، وجعل للمؤمن الولاية على أخيه في هذا السبيل.. يسدّده إذا أخطأ، ويقوّمه إذا زاغ، ويأخذ بيده إذا كبا، ويهديه سبيل الرشاد إذا ضل. وينقذه من الهاوية إذا تورّط، وشرّك الرجال والنساء في هذه المهمة:

﴿ وَالمؤْمِنُونَ وَالمؤمناتُ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بالمعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَـــنِ المـــنْكَرِ، ويُقِيْمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيْعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أولئكَ سَيرحمهُمُ اللهُ إنّ اللهَ عزيْزٌ حَكيمٌ (٢) ﴾.

ويظهـــر التضامن الاجتماعي في مبدأ التعاون على البرّ والتقوى الذي

١ــ الحجرات: ٩.

٢ــ التوبة: ٧١.

قرّره بين المسلمين وذكره في عديد من الآيات وكثير من النصوص.

ويظهـــر التضامن الاجتماعي في مبدأ التواصي بالحق والتواصي بالصبر والثبات عليه، الذي جعله من مقوّمات الإيمان، ومن الشروط الأولى للنجاة مـــن الخســـر:﴿ وَالعَصْـــرِ إنَّ الإنْسانَ لَفي خُسْرٍ. إلاّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ وَتَواصَوا بالحقِّ، وَتَواصَوا بالصَّبر[1]﴾.

ويظهـــر التضامن الاجتماعي في عدد كبير من مفردات الأحكام التي وضـــعتها شريعة الإسلام، وهي منتشرة في أبواب الفقه، ولاسيما في أبواب الضمانات والولايات.

وأتمنى لي ولكم الثبات على هذا الدين القويم والتواصي به والدعوة إليه.

﴿ وَمَـــنْ أحْسَنُ قَوْلاً مِـــمَّنْ دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالحاً وَقَالَ: إنَّني مِنَ المسْـــلِمين [2] ﴾.

وصدق الله العلي العظيم

١ــ سورة العصر.

٢ــ فصلت : ٣٣.

الأخلاق في الإسلام

أيها الإخوة الأعزة.. والأبناء النجباء..

سـلام الله عـليكم، وعـلى الصّلة المقدسة التي وحّدتكم، وجمعت شـتاتكم، وشدّتكم، وشدّت إليكم كل قلب في هذا الكون ينبض بالإيمان، وكل نفس تشرق بالهدى، وكل فكر يؤمن بالحق..

وسـلام عـلى الغايـة المباركة التي من أجلها تجتمعون، وفي سبيلها تعمـلون، ومـن الله – سبحانه - أسأل أن يشدّ أزركم، ويبارك سعيكم، ويوفّقكم لنصرته، ويأخذ بأيديكم لإعلاء كلمته..

أيها الأحباء..

سأتحدث إليكم في هذه الليلة حديثاً عابراً عن الأخلاق في الإسلام.

.. عـن مـناهج الصـفات الرفيعة التي يجب أن يتحلى بها المسلم، والأخرى الوضيعة التي يجب أن يتنـزّه عنها.

.. عـن أبـرز مقوّمات الشخصية الإسلامية التي منها تتألف، وعليها تعتمد، وبها تسمو إلى الغاية، وتحقّق الفوز في كل مجال.

.. عـن الغايـة الجليلة التي عناها الرسول (ص) لـمّا قال: «بعثت لأتـمّم مكارم الأخلاق».

.. عن المنفسح العظيم الذي أشار إليه حفيده وخليفته الإمام جعفر بن

محمـــد الصادق (ع) حين قال: « إن الله ارتضى لكم الإسلام ديناً فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق ».

.. عن المزايا التي يكتمل بها إسلام المسلم، وتتجسّد بها عقيدته ويثمر إيمانه، ويعود لبنة صالحة لأن يتقوّم بها بناء المجتمع الكامل.. المجتمع المسلم.

.. عـــن الكنوز الثمينة التي فتحها أئمة الحقّ وأدلّة الهدى لأتباعهم من المؤمـــنين، ليصـــوغوا مـــنها نفوسهم، ويبنوا شخصياتهم، ويقوّموا طباعهم وضـــمائرهم، فيكون كل فرد منهم مثالاً صادقاً للإيمان الصادق، ونموذجاً صحيحاً للإسلام الصحيح..

.. عن السمات المشرقة التي تكمل وتشرق بها إنسانية الإنسان. بلى، وإن سوء الخلق قد يهوي به إلى أحط من طباع الحيوان، وأقل من قيمة النعم السائمة.

ســـأتحدث إليكم عن مناهج الأخلاق في الإسلام حديثاً عابراً مختصراً، فإنّ موضوع الأخلاق في الإسلام لايستوعبه متحدث في موقف واحد، مهما رفده الفكر، ومهما واتاه البيان.. ومن الله -سبحانه- أسأل لي ولكم قلوباً واعية للاقتباس، ونفوساً طيّعة للتطبيق، وألسنة ناطقة للدعوة..

الجمال سمة عامة في المخلوقات:

أيها الأحبة:

لقـــد أنشأ الله -سبحانه- هذا الكون الفسيح الأرجاء، العظيم الآفاق والأنحـــاء، وأنشـــأ كل ما فيه من سماء وأرض وشمس وقمر ونجم وكوكب

وفــلك ومــلك، وحيّ وجامد.. وكل ما فيه من شيء، عرفه الإنسان أو جهله، عَقَله أو عجز عن إدراكه، وصَلَه العلم أو وقف دونه..

.. لقــد أنشأ الله هذا الكون، وأنشأ كل ما فيه من أشياء وأحياء على أتــمّ صورة وأوفرها زينة، وأوفاها نضارة وبهاء، وأتمها بهجة وجمالاً..

فالجمال النضير موزّع على كل شيء.. وكل شيء من موجودات هذا الملكوت له قسطه من هذه الهبة الشاملة، وكل شيء من محتويات هذا الكون مظهــر لجمال الله الأعلى﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسَانِ مِنْ طِين[١] ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَــيْنَاها وَزَيَّــنَّاها وَمَالَها مِنْ فُرُوجٍ، والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيْها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيْجٍ. تَبْصِــرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيْبٍ. وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَــتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيْدِ. والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لها طَلْعٌ نَضِيْدٌ [٢]﴾.

جمـــال شـــامل، وبهـــاء وحسن نضير، وفي بعض الأمثال: « ليس في الإمكان أبدع مما كان ».

وهذا الجمال المقسّم غير الإتقان في الصنع، والعمق في الحكمة التي يحار فيها العقل، ويدهش لها اللّب.

والجمـــال في الخلق أحد الروائع التي تحدو بالإنسان أن ينظر، وتحثّ

١ـ السجدة: ٧.

٢ـ ق: ٦-١٠.

العقل على التفكير والتبصّر.

وللجمال أخذته القوية، وتأثيراته المباشرة في هذا السبيل، وما يكون للإنسان العاقل أن يكتفي بالمتعة في النظر إلى مباهج الكون ومفاتنه ثم لايسترشد به إلى جمال المكوّن المبدع.

وقد أعطى الله الإنسان من هذه الهبة حصّته الوافرة، فأفرغه في أجمل صورة:

﴿ ياأَيُّهـا الإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ. الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. في أيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (١) ﴾.

ولقد كان يكفيه في هذه الهبة وحدها ما يحتّم عليه شكر المنعم، وأداء حق الواهب، ولكن ﴿ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٢) ﴾.

وللإنسان خَلق وخُلُق، وسمات وصفات، وقد أكمل الله خَلقه بالجمال، وأراد له أن يتمّ أخلاقه بالكمال، ليبلغ الغاية الكريمة، ويرتفع في الكرامة إلى أرفع مستوى.

الأخلاق:

والأخلاق -أيها الأحبة- صفات مختلفة، أصيلة ومكتسبة. ترسخ في نفس الإنسان، وتمرُن عليها إرادته، ويتوجّه على موجبها عمله، ولاتكون الصفة خُلقاً حتى ترسخ في النفس وتعتادها الإرادة ويتجّه معها السلوك.

١ــ الانفطار: ٦-٨.

٢ــ العاديات: ٦.

والخُلق -مهما تأصّل في النفس، ومهما ضرب في الطباع أو الغرائز أو الوراثـة إلى جذر عميق- فإنه لا يستعصي على التعديل والتحوير، فيملك صاحب الخُلق الوضيع أن يجاهد نفسه، ويمرّن طباعه، ويعدّل من خُلقه حتى يتسامى به إلى درجة رفيعة..

.. ويستطيع صاحب الخُلق السامي أن يهمل نفسه، ويرغم ضميره، وينساق مع طباعه وغرائزه، ثم يعتاد ذلك حتى يهوي بخُلقه إلى أحطّ درَك.

ومن أجل ذلك احتاج تقويم الخُلق، وتهذيب الطباع إلى مصابرة ومثابرة، ويقظة دائمة..

ومن أجل ذلك سُميّ جهاد النفس بالجهاد الأكبر في لسان الحديث الشريف[1].

فمكارم الأخلاق -أيها الأحبة- صفات كريمة يلتزم بها الإنسان.. يقوّم عليها نفسه، ويروّض عليها طباعه ويجري عليها عادته، ويمرّن عليها إرادته، حتى تصبح ملكات ثابتة يتّبعها في سيرته، ويجري عليها في جهره وسريرته.

الاستقامة:

والخُلق على قسمين: منحرف ومستقيم، فما مالت به النفس إلى

١ــ روى الشيخ الكليني (قده) بسنده عن أبي عبد الله الصادق (ع): (أن النبي (ص) بعث سرية فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. فقيل: يا رسول الله؛ ما الجهاد الأكبر؟ قال : جهاد النفس). وسائل الشيعة ج١١ ص١٢٢.

جانب الإفراط أو إلى جانب التفريط فهو رذيلة وانحراف، وما استقامت به على الحد الصحيح المعتدل دون ميل، ودون تعدّ فهو فضيلة واستقامة.

فالأخلاق الرفيعة هي الأوساط من بين الصفات و (خير الأمور أوسطها) كما يقول الرسول الكريم (ص).

أما رذائل الأخلاق فهي الصفات النفسية التي يتنكّب الإنسان فيها الحد الأوسط.. ويكتسبها ويذم على اكتسابها إذا فرّط في الميزان أو أفرط.

فالخُلق الكريم هو فضيلة بين رذيلتين، واستقامة بين انحرافين.

فالكرم فضيلة بين البخل والتبذير، والصدق فضيلة بين الكذب والمبالغة، والشجاعة فضيلة بين الجبن والتهوّر، والعفّة فضيلة بين الشهوة الطائشة والكبت، والحكمة فضيلة بين المكر والخمود.. وفي القرآن الكريم قال (تعالى):

﴿ وَلاتَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (١) ﴾.

وفي آية كريمة أخرى:

﴿ وَالّذينَ إذا أَنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا وَلم يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذلك قَوَاماً (٢) ﴾.

والاستقامة هي سبيل الفطرة السويّة الذي تتبعه في تقويم هذا المخلوق، وفي تقويم أي شيء يوجد في هذا الكون، فالشجرة -مثلاً- تنشأ بطبيعتها

١ــ الإسراء: ٢٩.

٢ــ الفرقان: ٦٧.

معتدلة مستقيمة، ولاتنحرف ولاتعوجّ إلاّ لعارض قويّ يرغمها على الميل والاعوجاج. والحيوان يلتزم السبيل الذي توجّهه له الفطرة حتى يبلغ الغاية التي حدّدها له الحكمة الإلهيّة ولاينحرف عنه إلاّ لطارئ غير عادي يطرأ له فيُرغمه على الانحراف.

والإنسان -في صورته الطبيعية- يجري على هذا القانون، فإنه يتّجه مستقيماً إلى الغاية التي حدّدها له الحكمة الخالقة، ولايحيد عن ذلك السبيل إلاّ لطارئ يقسره على الالتواء..

وكذلك الإنسان في عقيدته وفي أخلاقه وفي سلوكه، فإنه يجري مستقيماً مع الفطرة السويّة، ولايلتوي ولا ينحرف إلاّ أن تعترضه أهواء ومؤثرات تمنعه عن الاستقامة وتجبره على الانحراف.

ومكارم الأخلاق وفضائلها هي التي سايرت الفطرة السليمة، وواكبتها فلم تحِد عنها، ولم تنحرف نحو إفراط ولا تفريط..

هي الأوساط المعتدلة من الصفات والانعكاسات الثابتة التي تنطبع في نفس الإنسان وهو يطبّق أوامر الشريعة المطهّرة ونواهيها على عمله أتمّ التطبيق، ويأخذ نفسه وإرادته بها أتمّ الأخذ، وهذا هو المعنى الذي تدلّ عليه قولة الرسول (ص) السابقة الذكر: « بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق ».

فالإسلام هو الدين الذي يتمّم مناهج الفطرة، ويكمل -في مجالات الدين- ما بدأ الله بتوجيهه في التكوين.

ومن أجل ذلك كان الإسلام دعوة الله إلى السمو على الإطلاق، وكانت محاسن الأخلاق -على وجه العموم- هي الصفات التي أمرت بها

الشريعة، وحثّت على التمسك بها، ومساوئ الأخلاق ومقابحها هي الصفات التي نهت عنها الشريعة وحذّرت منها. والمؤمن الحقّ الذي اتّبع هدى الله واقتفى مراشد دينه، فتمسك بالخُلق الرفيع، وطبع نفسه عليه، واتّبعه في سيرته وسريرته مع أوليائه وأعدائه، واجتنب الخلق الدنيء الوضيع، وحذر منه أشد الحذر، فلم ينحرف ولم يشذّ في سجيّة، ولا في قول ولا في عمل، وكان دائم المراقبة لله الذي يعلم السرّ والجهر ويعلم ما يكسبون.

هذه هي مقاييس الخلق الكريم، وهذه هي طريقة بنائه..

أن يجري الإنسان مع الفطرة السوية في صفاته، فلا يميل عنها ولاينحرف ولايشذ ولا يلتوي..

أن يجري في إرادته مع أحكام الشريعة إلى أبلغ حدّ.. يُحقّ ما أحقّت، ويُبطل ما أبطلت.

هذه هي مقاييس الخلق الكريم، وهذه هي طريقة بنائه، وهذه هي مقاييس الخير والشر في نظر الإسلام .

تربية الضمير:

أما الركيزة المهمة للتربية الخلقية فهي تربية الضمير، وإيقاظه اليقظة الكاملة.

والضمير هو هذا الشعور الفطري الذي أودعه الله (تعالى) في طبيعة كل إنسان تحثّه على فعل الخير، وترتاح له وتسرّ معه -أتمّ السرور- إذا هو فعله، وتحذره من عمل الشر، وتؤنّبه عليه -أشد التأنيب- إذا هو عمله.

إن الضـــمير قوة فطريّة عظيمة الأثر كبيرة الوقع أودعها الله في نفس ابـــن آدم وفرضها عليه، وهي باب النفس إلى كل عمل صالح، ورقيبه الذاتي عن أي عمل طالح. وطالما تسببت هذه القوة الفطرية إلى صلاح الإنسان بعد فســاده، وإلى توبته إلى الله (تعالى) من عظيم الذنوب، وطالما استنقذته من أسار الجريمة بعد طول رقاده.

وقد مدّ الله -سبحانه- رقابة الضمير إلى أفعال غيره من بني الإنسان، فهو يُسَرّ بكل فعل حسن يفعله الغير، ويلتذّ لكل باب يراه من أبواب الخير، وهـــو يســتاء مـــن فعل القبيح من أي عامل، ويشمئز لمرأى أي سوء من الأسواء، وأي رذيلة من الرذائل..

مـــدّ الله رقابة الضمير إلى أفعال الآخرين من بني الإنسان، ففتح باب الأمـــر بالمعـــروف والنهي عن المنكر، وجعله أحد الدعائم لصلاح الأفراد وصلاح المجتمع، وحذّر المسلمين من التقصير فيه وأوعد بالعقاب عليه.

وتـــربية الضـــمير هي في ظل تعاليم الإسلام، وتزويده منها بالمقاييس الصـــحيحة التي يميّز بها الخير من الشر، والصحيح من الفاسد وإيقاظه اليقظة الكامـــلة، فيكـــون دقيـــق النظرة، شديد الرقابة، لايخادع ولا يستغفل ولا يتغاضى ولا يتغافل.

وقـــد زوّد الله -سبحانه- هذا الضمير بأحكام الشريعة، ليتعرف منها مقاييس العمل، ويستبين بها موارد الصحة من الزلل.

هذا الرقيب اليقظ الذي أقامه الله من نفس الإنسان على نفسه، يأمره ويـــنهاه، ويثـــيـــبه ويعاقبه وإن أمن المطّلع من الناس الآخرين. هذا الرقيب

الداخـــلي هـــو الدعامـــة الأولى لإصلاح النفس، وتهذيب أخلاقها وتقويم طباعها.

ولعـــل القران الكريم قد أشار إلى هذه القوة الفطرية الوازعة للإنسان: قوة الضمير.. لعله أشار إليها بقوله:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سوّاهَا فَأَلهمَها فُجُورَهَا وَتَقْوَاها[١] ﴾.

رقابة الله (تعالى):

ولكن هذا الرقيب النفسي قد يقوى، وقد يضعف، بل وقد يموت لدى بعض الناس.

وســـبب ضـــعفه هذا هو العكوف على المعصية، وقلّة تعهّده بالتزكية والتطهير، فإنّ المرء إذا أكبّ على المخالفة سكت ضميره، وخَفَتَ صوته عن الحثّ والتهذيب.

والسبيل إلى إحيائه بعد موته هو شعور المؤمن برقابة الله عليه وإحاطته بـــه، وعلمه بمطويّات صدره وما يخفيه، فرقابة الضمير تستمدّ من رقابة الله العظـــيم، المطّلع على كل سريرة، الحسيب على كل عمل المجازي على كل ظاهرة وخافية.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِه نَفْسُهُ وَنحنُ أَقْرَبُ إليْه مِن حَبْلِ الوَرِيْدِ [٢] ﴾.

١ــ الشمس: ٧-٨.

٢ــ ق: ١٦.

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَو اجْهَرُوا بِه إِنَّهُ عَلِيْمٌ بِذاتِ الصُّدُوْرِ. ألا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ وَهو اللَّطيفُ الخبيرُ (١) ﴾.

﴿ قُــلْ إنْ تُخْفُــوا مَا في صُدُورِكُم أو تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا في السماواتِ وَمَا في الأرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديْرٌ. يَومَ تَجدُ كُلُّ نَفسٍ مَا عَمِــلَتْ مِــنْ خَيرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً، ويُحَذِّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوْفٌ بِالعِبَادِ (٢) ﴾.

إنّها رقابة عظيمة شديدة يستوي فيها السرّ والعلن، والقول والعمل، والحركة والسكون.

وإنه لعلمٌ محيط، يستوي فيه الصغير والكبير، وما في السماوات وما في الأرض.

وإنها لقدرة شاملة يستوي فيها الموت والحياة، والابتداء والإعادة.

وإنه لحساب دقيق، تجد كل نفس فيه ما عملت من خير، وتلقى فيه ما عملت من سوء.

فــإذا استشــعر الإنسان رقابة ربّه عليه، وإذا استيقن أنه مجزيّ على عملــه.. إن خــيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ، كان يقظ الضمير، دائم الحراسة لنفســه، شــديد الانتباه لأعمالها، شديد الحرص على إصلاحها، وتهذيب أخلاقها.

١ـ الملك: ١٣-١٤.

٢ـ آل عمران: ٢٩-٣٠.

من آداب الإسلام:

أيها الأحبة..

إن الإسلام يؤدب أبناءه بآدابه الفردية والاجتماعية، ليلبسهم أبراد الكمال، ويقيهم أخطار التدهور..

والمؤمن إذا تأدب بآداب الإسلام وأخلاقه لاتتزلزل له قدم، ولايتضعضع له ركن، ولاتخفّ له وزنة، ولا تنبو له كلمة.

إنه بروح الإسلام وعطائه يكون شديد النظرة، سديد الخطوة، حميد القول والفعل..

يقول الإسلام في تأديب المسلم عن خَلّة الكِبر:

﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمشِ في الأرْضِ مَرَحاً إنَّ اللهَ لايُحِبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخُورٍ[1] ﴾.

﴿ وَلا تَمشِ في الأرْضِ مَرَحاً إنَّكَ لَنْ تَخرِقَ الأرْضَ، وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُوْلاً[2] ﴾.

ما هذه الضّعة التي يسميّها الناس كِبراً، وما هذه الدالّة في المتكبّر التي يدعوها خُيَلاء، حتى يكاد يخرج من جسمه، وحتى يبدو أكبر من حجمه..

أفيريد أن يشعر الأرض بوجوده فهو يركّز عليها قدمه، أم يريد أن يسامي الجبال قامةً فهو يرفع إليها صدره؟ وهيهات، إن الأرض لاتشعر به

١ـ لقمان: ١٨.

٢ـ الإسراء: ٣٧.

أكثر مما تشعر بالبعوضة الحقيرة، وإن الجبال لاتحسّ به أزيد مما تحسّ بالهباءة الصغيرة، وإنه لايتكبّر إلاّ من ضعة يجدها في نفسه، فهو يعوّض عن الحقيقة بالخيال، وعن الواقع بالوهم.

ويقول الإسلام في تأديب المسلم في مجلسه:

﴿ ياأيُّهَا الّذينَ آمَنُوا إذا قِيْلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا في المجالِسِ فافْسَحُوا، يَفْسَحِ اللهُ لَكُم، وَإذا قِيْلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا..[1] ﴾.

ويقول في تأديب المسلم في رفع صوته:

﴿ وَاقْصِدْ في مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إنَّ أَنْكَرَ الأصْوَاتِ لَصَوتُ الحمِيرِ[2] ﴾.

ليســـت المـــنـــزلة والمكانة برفع الصوت في المجلس، ولو كان الأمر كذلك لكان الحيوان أكبر منـــزلة من الإنسان.

ويقـــول في الجري مع الظنون والخواطر، والأقوال التي تفكّك المجتمع، وتضعف العلاقات بين أبنائه:

﴿ ياأيُّها الّذينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثيراً مِن الظَّنِّ إنّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ، وَلا تجسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أيُحِبُّ أحَدُكُم أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخيْهِ مَيْتاً..[3] ﴾.

١ــ المجادلة: ١١.

٢ــ لقمان: ١٩.

٣ــ الحجرات: ١٢-١١.

ويقول في الحفاظ على المجتمع والإبقاء على سلامته وسلامه:

﴿ ياأيُّها الّذينَ آمَنُوا لايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أنْ يَكُونُوا خَيراً مِنْهُم، ولانِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أنْ يَكُنَّ خَيراً مِنْهُنَّ، وَلاتَلْمِزُوا أنْفُسَكُم، وَلاتَنابَزُوا بِالألْقَابِ، بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ، وَمَنْ لم يَتُبْ فَأُولئك هُمُ الظَّالِمُونَ[1] ﴾.

إن المجتمع المسلم أرفع وأسمى من أن تدور فيه سخرية قوم من قوم، أو نساء من نساء، أو يقع فيه لمزٌ أو نبز، وعلم الخير والشر، والصلاح والفساد عند الله الذي يعلم السر والجهر، فليتطهّر المجتمع من هذه الأوضار فلا طهر بعد الإيمان « وَمَنْ لم يَتُبْ فَأُولئك هُمُ الظّالمون ».

﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ الّذينَ يمشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْناً وَإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قَالوا: سَلاماً وَالذينَ يَبِيتُون لِرَبِّهِم سُجَّداً وقِياماً. والّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا اصْرِفْ عنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَها كان غَرَاماً. إنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقاماً. والّذينَ إذا أنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا وَلم يَقْتُرُوا وَكانَ بَينَ ذلكَ قَوَاماً. والّذينَ لايَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ، وَلايَقْتُلُونَ النَّفْسَ الّتي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقِّ، وَلا يَزْنُونَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ..... والّذينَ لايَشْهَدُونَ الزُّوْرَ، وَإذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً. وَالّذينَ إذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِم لم يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وَعُمْياناً. وَالّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِن أَزْواجِنا وَذُرِّياتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ وَاجْعَلنا

١ـ الحجرات: ٤٩ .

لِلمُتَّقِينَ إِمَاماً. أُولئكَ يُجْزَونَ الغُرْفَةَ بما صَبَــرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيْها تحيّةً وَسَلاماً. خَالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً [1]﴾.

.. هـــذه بعض مناهج الله -سبحانه- في تأديب المسلم وصوْغ نفسه، وطَبعها على الخِلال الحميدة، وتنقيتها من خِلال السوء ورذائل الخُلق..

.. هذه هي مناهجُ الأخلاق الحميدة في الإسلام، وهذه هي عُقْباها في القرآن، وهذه هي طريقة بنائها، يسيرة واضحة.. فهل نحن عاملون بها؟.

١ــ الفرقان ٦٣-٦٨ ، ٧٢-٧٦.

الخطوط العريضة في الإسلام[1]

أيها الإخوة الأحباء..

سألني أحدكم قبل ليالٍ عن الخطوط العريضة في الإسلام وقد رغبت أن يكون الجواب عنها موضوعاً لحديثي في هذه الذكرى..

في هذه الذكرى الكريمة التي يحبّها الإسلام، ويعتزّ بها، ويحبّ تجديدها، ويحبّ تخليدها..

في هذه الذكرى القرنية لأحد بُناة الإسلام، وحَملة لوائه، وسادس العترة الميامين، الذين اختصّهم الله بعهده، واستحفظهم كتابه، واصطفاهم لقيادة البشرية بعد رسوله (ص)، قرناء الكتاب بنصّ الرسول (ص)، والمطهّرين من الرجس بنصّ الوحي، ونُجوم الاهتداء بإجماع الأمة..

في ذكرى العظيم الذي وُلد للإسلام، وعاش للإسلام، ومات للإسلام..

وأقول: مات، جرياً مع المفاهيم التي يعتبرها الناس تفسيراً للموت.. أمّا في موازين الحقائق فإن هذا الصنف من القادة إنما يرتفعون من حياتهم الدّنيا إلى حياتهم العليا.

١ـ أُلقِيتْ هذه المحاضرةُ في الذكرى القرنية لولادة الإمام الصادق (ع) سنة ١٣٨٣ للهجرة أي بمناسبة مرور ثلاثة عشر قرناً كاملة عليها.

.. في هذه الذكرى الحبيبة إلى الإسلام أحدّثكم عن الخطوط العريضة في الإسلام، ومن أولى من ذكريات أهل البيت (ع) بأحاديث الإسلام؟.

المجالي الإسلامية العامة:

أيها السادة:

قد نقول: الخطوط العريضة، ونعني بها المجالي العامة التي يتّخذها الإسلام في نفس الفرد المسلم، وفي نفسية المجتمع المسلم.

والإسلام -في هيكله العام- يبدأ عقيدة، ثم يرتسم منهجاً، ثم ينعكس دعوة.

الإسلام كله - من مبدئه إلى ختامه.. من أول حرفٍ منه إلى آخر نقطة، بجميع مجملاته ومفصّلاته - يبدأ في شكل عقيدة يتلقّاها الفكر، ويطمئن إليها القلب، وتُشرق بها الرّوح، وتمتلئ بها آفاق النّفس..

عقيدةٌ راسخةٌ ثابتةٌ بالله (عز وجل)، وبرسوله (ص) وكتابه، وبما أنزل على الرسول (ص) من حكمة، وما أنزل في الكتاب من حكم.

﴿ يَاأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالكِتَابِ الّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ، وَالكِتَابِ الذي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ، وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيْداً [1] ﴾ .

ثم يرتسم منهجاً وافياً، يوجّه الفكر، ويوجّه الغريزة، ويوجّه الضّمير،

١_ النساء: ١٣٦.

ويوجّـــه الإرادة، ويوجّه العاطفة ويوجّه الفرد، ويوجّه الأمة، ويوجّه الحياة، بل ويوجّه الكون.

﴿ أَفَغَــيرَ دِيْنِ اللهِ يَبْغُونَ. وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّمَاوات وَالأرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإليْهِ يُرْجَعُونَ [1] ﴾.

ثم ينعكس دعوة تُجَنّد لتبليغها الألسنة والأقلام والطاقات والكفاءات، وتوضَــع لهــا المــناهج والفــنون والوسائل والأساليب، ويجاهَدُ -لنشرها وإعلائها- بالأموال والقوى والنفوس:

﴿ إنَّ الّذيــنَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا من البَيِّنَات وَالهُدَى من بَعْد مَا بَيَّــنَّاه للــنَّاسِ في الكِــتَاب، أُولَئكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ الّلاعِنُونَ، إلاّ الّذينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّــنُوا فَأُوْلَئكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ [2]﴾.

﴿ .. ذَلكَ بِأَنَّهُمْ لايُصيبُهُم ظَمأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ في سَبيْلِ اللهِ، وَلا يَطَــؤُونَ مَوْطِئاً يَغيظُ الكُفَّارَ، وَلا يَنَالُونَ مِن عَدُوٍّ نَيْلاً إلاّ كُتبَ لَهُمْ بِهِ عَمَــلٌ صَــالِحٌ. إنَّ اللهَ لايُضيْعُ أجْرَ الُمحْسِنينَ. وَلا يُنْفقُونَ نَفقَةً صَغيرةً وَلا كَــبيرةً، وَلايَقْطَعُــونَ وَادِيــاً إلاّ كُتِبَ لَهُم، لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون[3] ﴾.

نعــم، هكــذا -أيها السادة- يبدأ الإسلام عقيدة، واستجابة النفس المسلمة لهذه العقيدة إيمان..

١ــ آل عمران: ٨٣.

٢ــ البقرة: ١٥٩.

٣ــ التوبة: ١٢٠-١٢١.

ثم يرتسم منهجاً، واستجابة الإرادة لهذا المنهج عمل..

ثم ينعكس دعوة، واستجابة الطاقة لهذه الدعوة جهاد.

﴿ وَمَن أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً، وَقَالَ إِنَّنِي مِن المُسْلِمِينَ [١] ﴾

وقد لَمّحت سورة العصر الكريمة إلى هذه المجالي الثلاثة التي يجب أن يأخذها الإسلام في نفس الفرد المسلم، وفي نفسية المجتمع المسلم :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ، وَالعَصْرِ، إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إلاَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ [٢] ﴾.

« إلاّ الّذيْنَ آمَنُوا » وهذه هي مرحلة العقيدة والإيمان..

« وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » وهذه هي مرحلة المنهاج والعمل.

« وَتَوَاصَوا بِالْحَقِّ. وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ » وهذه هي مرحلة الدعوة والتبليغ.

وهذه هي الخطوط العريضة التي يتقوّم منها هيكل الإسلام.

الاتجاهات الطبيعية للإسلام في بناء الفرد:

وقد نقول: الخطوط العريضة، ونريد بها الاتجاهات الطبيعية الرئيسية التي سلكها الإسلام في صناعة الفرد وفي بناء المجتمع، وفي شدّ الصلات، وتبيين الحدود وتنظيم الحقوق..

١ـ فصّلت: ٣٣

٢ـ سورة العصر.

وأولى نقطة يبتدئ منها الانطلاق، وأولى جهة يشرع منها التصميم هي العقيدة، عقيدة المسلم بربّه وبدينه.. بمبدئه هو وخاتمته.

نعم، كما ينشأ البناء من أسّه، وكما يُبتدأ الغرس بوضع بذرته كذلك يبتدئ الدّين بوضع عقيدته..

وأوّل شيء يتجّه إليه المفكر بالتفكير هي نفسه، ولا محيد له من أن يتساءل عن ذاته، ومن أين ابتدأ، وإلى أين ينتهي، فلابد للدّين الصحيح من أن يضع له الحل الصحيح لهذا التساؤل قبل أيّ انطلاق، وأيّ اتجاه.

ودين الإسلام لايمضي بالإنسان بعيداً في هذا السبيل، ولا يُرهقه عُسراً، بل يلفته إلى ركائز الفطرة، وإلى أوّليات البرهان، وإلى دلائل الكون، وشواهد الحكمة وآثار الرحمة..

.. إلى هذه البدائِه التي تستقبله أنّى أتّجه، وأنّى انتقل، وأنّى قلّب بصره، وأنّى مدّ فكره.

.. إلى هذه البدائِه يلفته ليستخلص عقيدته صافية بصفاء الفطرة، راسخة برسوخ البرهان. نيّرة بنور اليقين:

﴿ .. أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُم وَيُؤَخِّرَكُم إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً [1] ﴾ .

ثم يتجه الإسلام ليصُوغ الفرد.. ليصوغ نفسه وعقله وقلبه وضميره وعواطفه ومشاعره.. بل ولحمه ودمه.. ليصوغه في القالب الذي يرغب،

١ــ إبراهيم: ١٠.

والمنهج الذي يؤثر، ومن المقوّمات التي يريد.

فهــو يـــهيئ للفرد المسلم -قبل تكوينه- المعدن الطاهر، تتألّف منه عناصره، والمنبت الزكيّ توضع فيه بذرته، والمنهل السائغ الطيّب يمده بالغذاء والنماء، وهو يعدّ له المناهج، ويتولاّه بالرعاية، وبالتدبير والتقويم حين حمْلِه، وحــين وضعِه، وفي رضاعه وفي فصاله، وحين يدبّ، وحين يشبّ، وحين يصطلب عوده وتكتمل رجولته أو أنوثته..

.. المــناهج القويمــة التي لاتغادر نقصا، والرعاية الشاملة التي لاتدع حالاً، والتقويم الدّائب الذي لايترك عِوَجاً.

هكذا يصنع الإسلام -أيها الأخوة- لينشئ من الفرد المسلم لَبِنَةً سليمة العناصــر، متينة التركيب، قويّة الانسجام مع المجتمع الفاضل الذي يــبتغيه الإســلام.. تحتلّ مركزها من الحياة ومن المجتمع ومن الدِّين بجدارة، وتؤدّي مهماهّا بكفاءة، وتصل إلى غاياهّا باستحقاق.

وهذا هو منهاج التربية في الإسلام.

اتجاهات الإسلام في بناء صلات الفرد بما حوله:

فإذا أتمّ صياغة الفرد، وأقام بناءه لفته إلى صلاته الكثيرة بمن حوله من الــناس، وبمــا حوله من الأشياء.. إهّا تستدعي حدوداً، وتتطلّب حقوقاً، وتحمّله مسؤوليات.

وأول هــذه الصلات جميعاً، وأشدّها وأعمقها، وأحقّها بالرّعاية هي

صـلته بـربّه.. ببارئه الذي خلَقه، ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١) ﴾، وفقّهه وبصّره، ﴿ ثمّ السَّبِيْلَ يَسَّـرَهُ (٢) ﴾ .

.. إنهـا صلة معلول بعلّة، ومربوب بربّ، ومملوك محتاج مؤمّل بمالِك غـنّي، وهـو مناط حاجته، ومعقد أمله، وعبودية خاضعة خاشعة، لاتملك لنفسها ضرّاً ولانفعاً ولاموتاً ولا حياة ولانشوراً، بربوبيّة رحيمة كريمة قادرة قاهرة، تملك كل شيء، وتقدر على كل شيء، ولايندّ عن أمرها شيء.

ولابـدّ للمعـلول مـن أن يخضع لعلّته، ولابدّ له من أن يؤدي شكر منعمه، ولابدّ من أن يتقرّب لينال الزّلفى لديه.

وعلى هذا يتأسس منهاج العبادات في الإسلام.

وأدنى الناس إلى الفرد، وأوثقهم به صلة: الوالدان، اللذان تسبّبا له في الوجود، واستفتحا له باب الحياة، وبذلا في تكوينه وتنميته وإسعاده الشيء الغـالي الكـثير، وحامّته القريبة، وأرحامه الدانية، الّذين يمتّون إليه بوشيجة اللحم والدم..

إنّ هؤلاء مفاتيح سعادته، وينابيع الخير له، فلابد من النظر في أمورهم، ولابدّ من إقامة هذه الوشائج على ركائز الرحمة، ووطائد البر والعطف..

وهذا هو نظام الأسرة في الإسلام.

وأخـيراً صـلته الوثيقـة العامة بأفراد المجتمع المسلم، وبأفراد المجتمع

١ـ عبس: ١٩.

٢ـ عبس: ٢٠.

البشري.

والنظرة الاجتماعية في الإسلام لاتتولّد في ميادين الاقتصاد، ولا تتلوّن بـــلون الدم، ولاتقف عند حدود الزمان أو المكان.. فركيزة الاجتماع -في رأي الإسلام- أعمق من كل أولئك وأوسع..

.. إنهـــا الحـــدود الذاتية العميقة التي تلفّ النوع البشري، بجميع لغاته وألوانـــه وأزمانـــه. نعـــم، وأسوده وأبيضه، وماضيه ومستقبله، وفصيحه وأعجمه.

(مجـــتمع واحـــد، يلفّ أقصاه بأقصاه نسب عريق، وتصله به آصرة مســـتحكمة، ووحـــدة مكينة متينة: نسب البشرية قبل أي نسب، ووحدة المصدر والمجْرى والمبتغى فوق كل وحدة.

(أجل، فهذه السيول البشرية المتدفقة تتفجر كلها من ينبوع واحد، ثم تجري في مسيل واحد، إلى مصب واحد.

(والغاية التي فطرت عليها هذه الخليقة، وشُحِنت بها أكناف الأرض، وملئت بها مناكب الزمان.. إنها غاية واحدة كذلك.

(والعواطـــف الـــتي تعقد الواحد بنوعه، وتعنيه بحفظه، بل وتفنيه في حـــدوده، والغرائز التي تعزّز فيه هذا النّـــزوع، وتمكّن لهذه الأغراض.. إنها ركائز المجتمع العام في نفوس الأفراد [1]) .

وهـــذه هي حدود المجتمع في رأي الإسلام، وهذه هي ركائزه -كما

١ــ يراجع كتاب الإسلام: ينابيعه. مناهجه. غاياته) للمؤلف ص ٧٨

قلت- في كتاب (الإسلام) .

أما المجتمع المسلم فرابطته الوُثقى التي يُحكم بها الإسلام أواصره، ويشدّ بها أركانه، ويساوي بين أفراده، ويعادل بين حقوقه، هي (الأخوّة) ..

.. الأخوّة في دين الله، وركيزتها القوية التي لن تتزلزل، هي الحبّ في الله، وروافدها هي الولاية في الله، والتواصي في مرضاته، والتناصر في سبيله.

وأما مضمار السباق المفتوح لكل مسلم فهي (التقوى).. ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم[1] ﴾.

وهذا هو نظام الاجتماع في الإسلام.

ويقوم المجتمع المسلم، فيفتقر إلى منهاج ينظّم اقتصاده، وإلى دستور يؤسس عليه حكمه، وإلى أنظمة تقيم مناهج العدل فيه، وإلى قوانين في السياسة تتبعها حكومة الإسلام في اتجاهاتها.

ويتّجه الإسلام ليفي بكل أولئك، وبكل حاجات المجتمع وضماناته، وبكل حاجات الحياة وضماناتها.

الأصول الكبرى لمناهج الإسلام:

وقد نقول: الخطوط العريضة، ونعني بها الأصول الكبرى التي اتّبعها الإسلام في تخطيط مناهجه، وبناء تشريعه.

وللإسلام أصول عديدة ترسّمها في وضع هذه المناهج، وأهمّها جميعاً -

---

١_ الحجرات: ١٣.

على ما يبدو - أصلان هما:

مبدأ (الوحدة)، ومبدأ (العدل).

مبدأ (الوحدة).

فهذا الإنسان جزء لايستطاع فصله من هذا الكون الفسيح، ومن هذه الطبيعة العاملة، ومن هذه الحياة المتحرّكة.. والقوانين التي تحكمه في مجموعه وفي أبعاضه، وفي أجزاء أجزائه وفي كل ذرة أو وحدة منه، إنما هي متمّمات للقوانين الكبرى التي تحكم الكون، وتسيّر الطبيعة، وتحرّك الحياة، ولايستطاع أن يوقّف مسيرها، ويغيّر اتجاهها.

وإذن فقانون التشريع يجب أن يسير في هذا الاتجاه ذاته، وإلا تناقض الإنسان، وتناقض التشريع.

والإنسان ذاته وحدة متكاملة متداخلة الأجزاء، ليس لناحية منه استقلال عن ناحية، وليس لبعض انفصال عن بعض، وليس أكثر خطأً، ولا أشدّ خطراً من أن ينظر المشرّع إلى ناحية منه دون ناحية، وإلى بعض دون بعض، وإلى نشاط دون نشاط.

وليس أكثر خطأً ولا أشدّ خطراً من أن يعالجه مِزَقاً متفكّك الأجزاء، متوزّع النشاط.

والطبيب الذي ينظر في جهاز المريض ليعالجه، ثم لايدخل في تفكيره حساب الأجهزة الأخرى يرتكب خطأً بيّناً، ويوقع مريضه في خطر كبير.

ثم مبدأ (العدل).

.. الـــنظرة الدقيقـــة المستوعبة العامة في جميع نواحي الفرد وحرّياته، وجميـــع طاقاته وضروراته. وفي الطاقات والموارد الخاصة والعامة للمجتمع والأفـــراد، والحقـــوق اللازمـــــة لكـــل أولئك، ثم المعادلة التامة بين كل أولئك، فلاحَيْف ولاجور، ولانقص ولاتزيّد.

هـــذه هي الخطوط العريضة في الإسلام استعرضتها بإيجاز، أما تفصيل هـــذا المجمـــل، فأرجو من الله -سبحانه- أن يمدّني بتوفيقه، فأضع فيه بضع حلقات من كتاب (الإسلام)، فمنه المدد وبه العون.

العبادة في الإسلام

باســم الإســلام العظـيم، حبيب القلوب، وطبيب النفوس، وهدى البصائر، ونور الضمائر، ودليل العقول، ودين الحياة..

باســم هذا الدين أحييكم -أيها الأحبّة- ويسعدني أن تتاح لي الفرصة لأتحــدّث إليكم، فأجد آذاناً مرهفة للسمع، وأذهاناً متفتّحة للوعي، وقلوباً معدّة للالتفات، وبصائر شيّقة للهدى، وإرادات مطوّعة للتطبيق والعمل.

إنهــا أصــداء الإيمان تتجاوب في نفوس المؤمنين، وتملأ آفاقهم، وتعبّد جوارحهم وجوانحهم..

وإنهــا جواذب الإسلام ومحبّباته تفعل فعلها في قلوب المسلمين وتُوَلّه مشاعرهم وضمائرهم، وتشدّهم بالعظماء من قادته وأولياء أمره.

ومن الله أستمد لي ولكم مزيداً من التوفيق، ومزيداً من الإيمان، ومزيداً من هذا الحب الذي يعرّفنا حلاوة الإسلام، وحلاوة الإخلاص فيه، وحلاوة العمل له.

ركيزة العبادة في الإسلام:

ولأمــر -أجهل مَأْتاه على وجه التحقيق- أُلقي في روعي أن أتحدث إليكم عن العبادة في الإسلام.

والعبادة في الإسلام موضوع عميق الجذور، فسيح النواحي، متشعّب الوجوه والفروع.

والركيزة الأصيلة التي يقوم عليها موضوع العبادة في الإسلام هي الركيزة الذاتية التي يقوم عليها وجود الإنسان، ووجود كل شيء يحتويه هذا الملكوت العظيم.

إن الإنسان ليؤمن - حق الإيمان -، ويوقن - حق اليقين- أنه - هو وجميع ما في هذه الطبيعة من حيّ، وجميع ما في هذا الكون من شيء - كائن حادث.. وإذن فلابد له، ولجميع هذه المكوّنات من علة قادرة أوجدته بعد العدم، وأكملته بعد النقص، ورفعته بعد الضّعة:

﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاواتِ وَالأَرْضَ [١] ﴾.

إن الإنسان ليؤمن بذلك حق الإيمان، ولا يرتاب به ولا يجادل في ثبوته، إذا كان ممّن يحترم عقله..

أمّا الذين يتخوّنون عقولهم، ويتنكّرون لفطَرهم، فينكرون هذه البدهيّات، فلا قيمة لهم في موازين العقول:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ، لهم قُلُوبٌ لا يَفْقَهُون بِها، وَلهم أَعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بِها وَلَهُم آذَانٌ لايَسْمَعُونَ بِها، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُون [٢] ﴾ .

١ــ إبراهيم: ١٠.

٢ــ الأعراف: ١٧٩.

.. لابـــد لـــه ولجميع المكوّنات معه من علّة موجدة، قادرة حكيمة عليمة.. وهو وجميع الموجودات معه آثار لهذه العلّة.. معلولون لها مربوبون، تُنشئهم كما تشاء، وتحييهم ثم تميتهم متى شاءت وتفنيهم..

عباد مربوبون مملوكون ينقادون لأمرها ويخضعون لتدبـــيرها ولاخِيَرة لهم معها ولا أمر، ولانفع بأيديهم ولاضرّ.

هذه هي الركيزة الأصيلة لموضوع العبادة في الإسلام.

لابـــدّ للإنسان أن يخضع، ولا يملك إلاّ أن يخضع ما دام عبداً مملوكاً لبارئه، لا يقدر على شيء إلاّ بإذنه، ولايزداد ولا ينتقص إلاّ بأمره.

ولابـــدّ للإنســـان أن يخضع، ولا يملك إلاّ أن يخضع اعترافاً بآلاء ربّه الذي أتمّ عليه النعمة، وظاهَرَ عليه الرحمة..

هكذا يقول له العقل الواعي، وهكذا تقول له الفطرة السليمة..

والعبادة لله ناموس كوني عام يخضع له كل شيء، ولا يفلت منه شيء:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَه مَن في السَّمَاواتِ وَمَنْ في الأرْضِ وَالشَّمسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ[١] ﴾.

هذا هو حكم العقل بوجوب العبادة، وهذا هو حكم الفطرة، ثم هذا هو حكم الطبيعة وقانونها الشامل الذي لايشذ عنه شيء..

فما بال بعض الناس يريد أن يخرج على النواميس الثابتة؟! وإلى أين يا

١ــ الحج: ١٨.

تُرى ينتهي به السُّرى؟!

العبادة وسيلة تربوية:

والعبادة في الإسلام وسيلة من وسائل التربية للإنسان، ومنهج من مناهج التهذيب لروحه وأخلاقه وطباعه.

نعم، وهي أقوى الوسائل فعلاً، وأبلغها أثراً إذا أقيمت على وجهها الصحيح.

إنّ الإنسان لن يصلح، ولن يستقيم، ثم لن يثبت على صلاحه واستقامته، إلاّ إذا استشعر أنه دائم الصِلة بالله العظيم، دائم المثول بين يديه، وأن قوله وفعله وسرّه وجهره بعين الله، وتحت رقابته؛ لن يخلو منها لحظة أبداً، ولن يحتجب عنها بحجاب، وأن الله موفّيه حسابه على ذلك.

إنّ الإنسان لن يصلح، ولن يستقيم إلاّ إذا استشعر هذه الصّلة الدائمة بالله، وهذه الرقابة الشديدة منه، ليكون حيّ الضمير، شديد الرقابة على نفسه، دقيق المحاسبة لها على ما تقول وما تعمل، وما تأخذ وما تترك، وما تُسرّ وما تُعلن.

والعبادة في الإسلام هي النقاط التي تصل العبد بربه، وتشعره بالصلة الدائمة به، وتزوّده بالقوة المتصلة، والمدد المستمر منه، الذي يزوده عبر الطريق، وطوال الحياة..

.. هي النقاط التي يتصل بها الإنسان بمصدر الخير والقوة والعزة.. الذي لاينقطع مدده، ولا يفنى عطاؤه، كما يتّصل المصباح المعتم بأحد

مفاتيح القوة الكهربية، فيشع ويضيء، ويبقى مشعاً مضيئاً ما دام متصلاً بمبدأ النور، وما دام صالحاً مستعداً لقبول هذا العطاء.

محور العبادة في الإسلام:

﴿ قُلْ: إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِين، لاشَرِيْكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنا أَوَّلُ المسْلِمين (١) ﴾ .

هـــذا هـــو المحور الذي يدور عليه معنى العبادة في الإسلام، والأساس الـــذي يقـــوم عـــليه بناؤها، والنّبع الذي يصدر عنه رواؤها، ويستمدّ منه صفاؤها. والشرط الذي تناط به صحّتها، ويتوقّف عليه عطاؤها..

.. أن يـــأتي العبد بالعمل لله رب العالمين، متقرّباً إليه بامتثال ما أمر، متحبّـــباً له بالانـــتهاء عمّا زجر، مخلصاً له في العمل، مخلصاً له في القصد، مُخلصاً له في التوجه..

﴿ قُل: إنّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسْلِمين (٢) ﴾ .

.. أن يأتي العبد بالعمل لله وحده وحده، ليؤدّي بذلك وظيفة العبودية ويوفّـــي بعض حقوق الربوبية، وهذا معنى قول الفقهاء الأكابر (شرّف الله مقاماهم وأجزل كراماهم): العبادة مشروطة بالقربة، فلا تصحّ إلاّ بقصدها، ولا تجدي إلاّ برفدها، ولا ترتـــفع إلاّ بمدّها.

١ــ الأنعام: ١٦٢.

٢ــ الزمر: ١١.

والآيـــتان الكريمـــتان قد جعلتا ذلك مبدأً عامّاً للمسلم، فالله وحده مقصـــده وغايته في كل عمل يُصدره، أو قول يفوه به، أو حركة يجريها.. حتى محياه ومماته لله رب العالمين لاشريك له في شيء من ذلك.

مناهج الإسلام كلها عبادة:

ومعـــنى ذلك: أن الإسلام كلّه منهج عبادي من ألفِه إلى يائه، بجميع تنظيماته وتشريعاته، تصل العبد بربّه، وتُشعره برعايته ومدده، وترفده بعونه الذي لاينقطع، وعطائه الذي لاينفد.. لافرق بين منهج ومنهج..

فالمسلم لايخطو خطوة، ولايُعطي ولايُمسك، ولايسير ولا يقف إلاّ لله رب العالمين الذي شرع هذا الدين، ونَهَج هذا السبيل المبين.

فالعامل الذي يراقب الله في عمله، ويدين لله في كسبه، ويتقرّب إلى الله في هذا العمل وهذا الكسب، لايزال في عبادة مادام مشغولاً بذلك.

والـــزّارع الذي يُطبّق حكم الله في فعله، ويراقبه في أمانته، ويمتثل أمره في ذلك، لا يزال في عبادة ما دام مشغولاً بذلك.

والـــتاجر الـــذي يدير أمواله على مناهج الله، ويستدرّ أرباحها وفق تعاليمه، ويُخلص لله في عمله وفي نيّته، لايزال في عبادة مادام كذلك.

وهكـــذا في كـــلّ عمـــل، وفي كلّ مجال، وفي كل حركة، وفي كل ســـكون، فمناهج الإسلام ونظمه التي أقامها لتنظيم الحياة، وتقويم الصلات كـــلها مـــناهج عبادة تصل العبد بربه، وتمدّه بعونه وترفده بعطائه، ولكن

العــبادات هي النقاط الكبرى التي تضاعف المدد وتعزّز القوة، وتقوّي الصلة بالله (تعالى).

الوضوء:

إن العــبد ليقوم إلى الصلاة، فيأمره الله بأن يغسل وجهه ويديه ويمسح برأسه وقدميه:

﴿ يَاأَيُّها الّذين آمَنُوا إذا قُمْتُم إلى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأيْدِيَكُم إلى المَرَافِق، وَامْسَحُوا بِرُؤوسِكُمْ وَأرْجُلَكُم إلى الكَعْبين [١] ﴾ .

إن الله -سبحانه- جعل الوضوء مدخلاً للصلاة.. وفي الحديث عن أبي عبد الله (ع) قال:

« قــال رســول الله (ص): افتــتاح الصلاة الوضوء وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم[٢] ».

فماذا تعني هذه الأفعال؟ وما جدواها وهو يتأهب للقيام بين يدي رب العالمين؟

إنّ الوضــوء يتضمن من المعنى ما يؤهّله لأن يكون مدخلاً لهذا العمل العظــيم.. إنــه ليس مجرد غَسْل أعضاء ومَسْح أطراف، ولكنه إعداد روح وتهيئة نَفْس للدخول إلى حظيرة القدس..

١ــ المائدة: ٦.

٢ــ وسائل الشيعة ج١ ص٢٥٦.

إنــــه ليـــس مجـــرد تـــنظيف جوارح، ولكنه تطهير مشاعر وجوانح، والحضور بين يدي الله (جل وعلا) يفتقر إلى نفس نقيّة الباطن والمشاعر أكثر من حاجته إلى جسد طاهر الأعضاء والظواهر.

الوضوء إعداد روح وهّيئة نفس، للدخول إلى حظيرة القدس، كما هو طهارة بدنيّة يمتثل العبد بها أمر خالقه، ويتهيأ لمناجاته.

وفي الأثر عن الإمام زين العابدين (ع)، كان إذا حضرت الصلاة وقام للوضوء اصفرّ وجهه، وتغيّر حاله، وارتعدت فرائصه، فقيل له: ما لَكَ يابن رســـول الله؟ فقـــال (ع): « إني أريـــد الوقوف بين يدي جبار السماوات والأرض [١] ».

إن المؤمـــن إذا حضرت صلاته، وقام إلى وضوئه، وهمّ بغسل أعضائه تذكّر الذنوب التي اكتسبتها هذه الأعضاء فخجل، وألـــحّ عليه الخجل من الله فندم، وتذكّر قدرة الله (تعالى) عليه وحاجته الشديدة إليه فتاب.. فكان وضوؤه طَهوراً لروحه كما هو طَهور لبدنه.

.. إن المؤمـــن ليغســـل وجهـــه، فيتذكّر الذنوب التي اكتسبتها عيناه ولســـانه، وسائر الجوارح التي اشتمل عليها وجهه، فيستغفر الله –سبحانه– منها ويتوب.

ثم يغسل يديه فيتذكر ما اجترحتاه من المآثم، وما ارتكبتاه من الجرائم، فيستغفر الله منها ويتوب.

١ــ هامش مفقود .

ثم يمسح رأسه وقدميه فيتذكر خطايا سعى إليها بفكر، أو مشى نحوها بقدم، فيستغفر الله منها ويتوب.

.. فيخرج من وضوئه طاهر الظاهر والباطن، نقيّ العلانية والسريرة. طيّب الجوارح والمشاعر، مستعدّاً للمثول بين يدي الله، والاقتباس من نوره. والاقتباس من نفحاته.

.. هـذا هـو المعـنى الكبير الذي أراده الشارع لَمّا أوجب الوضوء للصلاة، وجعله أهمّ الشرائط والمقدمات.

أمّا الصلاة:

والصلاة .. ما الصلاة ؟!..

ما تعني بقيامها وقعودها وركوعها وسجودها وتلاوتها وأذكارها؟!..

الصـلاة هـي فـرد العبادة الأتمّ، ومثالها الأهمّ، وركنها الأعظم.. وقـد رُفعـت في الإسـلام مكاناً عليّاً، وحلّت بين عباداته وقرباته مقاماً سـنيّاً .. فكـانت عمـود الديـن[١]، وخـير العمل[٢]، وسبب الفلاح والـنجاح، ومعـراج المؤمـن، وقـربان كل تقي[٣] ، وسلّم كل سعادة، ومصـدر كـل خير، ومفتاح كل بر[٤] وحطة كل خطيئة، وكفارة كل

١ــ وسائل الشيعة ج٢ ص١٧ .

٢ــ المصدر المتقدم ص٢٥.

٣ــ ن.م ص٣٠.

٤ــ ن.م ص٢١.

جريــرة[١]، وهي شفيعة الأعمال التي إنْ قبلت قبل ما سواها وإن ردّت ردّ ما سواها[٢].

إنّ الصــلاة تعني أنها إسلام كامل لله (تعالى)، وخضوع شامل لإرادته وانقياد تامّ لأمره، فلا يأتي العبد إلاّ ما أُمر، ولا يرتكب ما زُجِر، فأي شيء يبقى من الصلاح والاستقامة إذا وفى العبد بعهده؟..

الصلاة هي الوسيلة العظمى لتربية الروح، وترقية النفس، وطبعها على خِلال الخير، ورفعها عن مهاوي السوء، وسقطات الهوى..

﴿ وَأَقِــمِ الصَّــلاةَ إنّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَن الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ، واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعون [٣] ﴾ .

أرأيــتم -أيها الأحبة-؟ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي معنى للاستقامة والتهذيب غير اجتناب الفحشاء والمنكر؟..

وأي وسيلة للتربية والتهذيب وتقويم الأخلاق والطباع أقوى من هذه الوسيلة إذا أقيمت على وجهها الصحيح؟!

حتى ورد في المنقول عن بعض أطباء العقول:

« إذا أردت أن تعلم أن صلاتك مقبولة عند الله أم لا، فانظر هل نهتك عن الفحشاء والمنكر أم لا ».

١ــ ن.م ص٢٢.

٢ــ ن.م. ص٢٢

٣ــ العنكبوت: ٤٥.

إنّ قبولها عند الله مضمون لها إذا هي أدّت وظيفتها، ونجحت في مهمّتها، فهذّبت الروح، وأحيت الضمير، وأعلت النفس، وأيقظت المشاعر، وارتدع الإنسان معها أن يرتكب فحشاء أو يأتي منكراً، أو يصرّ على إثم، وارتفع أن يقوده هوى، أو يُسلم زمامه إلى شهوة عابرة أو يمد يده في صفقة خاسرة.

وإنما تكون للصلاة هذه الخصائص إذا كانت -بحقٍ- صلة للعبد بربّه، يعيش بها في رحابه، ويقبس من نوره، ويتمتع بقربه ويلتذّ بحبّه، ويرتقي إلى ذلك الجو الطّهور المليء بالقدس والنور..

وإنما تكون للصلاة هذه الخصائص إذا استكملت شرائطها وأفعالها كافة، واستوفت من السنن والآداب ميزانها، وأحرزت من الإخلاص لله والإقبال عليه ما يشدّها إليه.

وإنما تكون للصلاة هذه الخصائص إذا أمعن العبد يقبس من معانيها، واتخذها سلّماً إلى الغاية الرفيعة التي يبتغيها.

إنّ المؤمن ليرقى بصلاته إلى درجات المقرّبين، ويسمو إلى منازل الصدّيقين، والصلاة هي السلّم لهذا الرقيّ.. ألم يرد عن الطاهرين المطهرين(ع): إنها معراج المؤمن، وقربان كل تقيّ. [١]

إنها مضامير سبقٍ مفتوحة، وبعدها ربح أو خسار، ونجاة أو بوار، وهزيمة أو انتصار، فطوبى للسابقين الذين أحرزوا الربح، وضمنوا لأنفسهم النجاة، وسجلّوا النصر، وفازوا بالفتح، وارتفعوا إلى الغايات.

فهـــل آن لـــنا أن نفيد من هذه المناهج التربوية العظيمة التي وُضعت لإسعادنا؟

وهل آن لنا أن نؤدي عبادات الله (تعالى) كما أمر، ولا نأتي بها أفعالاً مجـــرّدة مـــن المعنى، وقالباً خالياً من الروح، وقشراً خاوياً من اللبّ، فتصبح أعمالاً جامدة يؤتى بها للعادة، لانُسُكاً حيّاً يؤتى به للعبادة ؟!

وهل آن لنا أن نفي لله بعهدنا ليفي لنا بما وعد؟..

﴿ وَإذا سَأَلَكَ عِبَادي عَنّي فَإنّي قَرِيْبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إذا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لي ولْيُؤْمِنُوا بي لَعَلَّهُم يَرْشُدُون [1] ﴾ .

هـــذه تساؤلات أترك الإجابة عليها لأعمالنا في المستقبل إن شاء الله (تعالى).

ومن الله التوفيق.

١ــ البقرة: ١٨٦.

الطهارة والتوبة

﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ ويُحِبُّ الـمُتَطَهِّرين [١] ﴾ .

كـانت هذه الآية الكريمة أولى خاطرة عرضت لي حين تناولت القلم لألبيّ دعوتكم – أيها الإخوة الكرام –.

« الله يحب التوابين »... « والله يحب المتطهرين »..

صنفان من الخلق يستحقان حبّ الله (تعالى) ويستوجبان عظيم عنايته.. هـذا هـو مدلول الآية الكريمة لالبس فيه، ولكن ماهي الوحدة الجامعة بين هذيـن الصنفين لتجمعهما الآية في سياق، وتوحدّهما في الحكم وتقرنهما في المنـزلة ؟

هذا ما أحببت أن أجعله مفتاحاً لحديثي معكم.

في أول الآيـة الكريمة ذكر للتطهير والتـنـزّه، وفيه أيضاً إشارة إلى الذنب، وذكر الذنب يمهّد لذكر التوبة، فهل هذا وحده هو السبب في جمع التوّابين والمتطهرين؟

نعم في أول الآية ما يدل على هذا وهذا.. لأنها تقول:

﴿ ويَسْـألُونَك عَن المحيضِ قُلْ هُو أَذَىً فاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ في المَحِـيْضِ،

١ـ البقرة: ٢٢٢.

وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتّى يَطْهُرْنَ، فَإذا تَطَهّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيثُ أَمَرَكُمُ اللهُ. إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرين (١) ﴾ .

ولكن هذا بمفرده لست أظنه كافياً في ذلك.

الإسلام والإنسان:

برأ الله هذا الكون الفسيح الأرجاء البعيد الأغوار، وزحمه بهذه الكائنات المتنوعة العناصر، المتباينة الأشكال، وجرى في حكمته أن يجعل بعض الموجودات مادّياً محضاً ليس للروح مدخل في تركيبه، وبعضها روحياً بحتاً ليس للمادة موضع في تكوينه، وجرى في حكمته -أيضاً- أن ينشئ هذا المخلوق العجيب: (الإنسان) فيجعله خِلطاً من الروح والمادة.. يربطه بالكون الأعلى روحٌ لها لطافة المجردات، ويشدّه إلى الكون الأدنى جسدٌ له كثافة المادّيات، ثم ربط -سبحانه وتعالى- بين هذين الجزءين المتباعدين، حتى لايستطيع أحدهما تصرّفاً، ولا قبضاً ولا بسطاً، ولا أخذاً ولا ردّاً بغير مساعدة خليطه.

﴿ إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ: إنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ، فَإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين (٢) ﴾ .

أيها الأحبة ..

هذه حقيقة الإنسان في رأي الإسلام، وفي نظر القرآن.. جسدٌ مخلوق

١ــ البقرة: ٢٢٢.

٢ــ ص: ٧١ - ٧٢.

من طين، وروح تنفخ من علّيين..

جسد يتألف من تراب المادة ومائها، ويتكوّن من عناصرها وأجزائها، وينطبع بخصائصها وسماتها، ويخضع لقوانينها ومتطلباتها، وروح تسمو به إلى العالم الأعلى، وتنـــزع به إلى الصفات المعنوية المُثلى ..

فهـــو وحدة مركّبة من هذين الكيانين المختلفين، ومجموعة مؤلّفة من هاتين الجهتين المتمايزتين.

ليس مادة خالصة كما تراه المبادئ المادّية، وليس روحاً محضاً كما تراه الفلســفات والشــرائع الروحية، فكلاهما قد انحرفا في طريقتهما، وحادا في الإنســان عن معرفة حقيقته، وقرّرا للإنسان مناهج وزعت كيانه، وأوجبت خلل سلوكه في الحياة ونقصانه.

ليـــس مادة خالصة لا علاقة لها بروح، ولا روحاً محضاً لاجدوى معها لمادة .. بل هو جسد وروح يحمل خصائص المادّة وخصائص ما وراء المادة .. من أجل ذلك كان على الدّين المصلح للإنسانية أن يرعى هذا التركيب؛ فلا يغالي في ترويض النفس وإرهاقها، وينسى أن له بدناً مادّياً يهوي به أصله إلى الطين ولا يبالغ بإرضاء الجسد وتدليله، ويغفل أنّ له نفساً عالية المطامح بعيدة الغايات؛ لابدّ أن تُهذَّب لتسمو وأن يؤخذ بيدها لتكمل.

نعـــم، هذه نظرة الإسلام في الإنسان، وعلى أساس هذه النظرة وضع للإنســـان نظامــــه، وشـــرّع له مناهجه وأحكامه، فهو يتناوله بما هو روح وجســـد، فيعطـــي كُـــلاً مـــن الناحيتين ما تستحقّ، ويوليها من العناية ما تستوجب..

لايكبت جسداً لحساب روح، ولا يُرهق روحاً لحساب جسد، ولايفصل جانباً عن جانب، ولا يُنقصه حظّاً من الحظوظ ولا رغبة من الرغائب، بل يضع له التشريع الوافي والعلاج الشافي الذي لاينقص ولا يزيد، ولا ينحرف ولا يحيد.

هذه فطرة الإنسان وحقيقته، ثم هذه تنظيماته في الحياة وشريعته، ممتزجة مترابطة لا انفصال لجهة منها عن جهة، ولا انفكاك لنظام عن نظام، ولا بعد لغاية عن غاية .. كلّها من وضع الله العظيم العليم، خالق الإنسان ومقدّره، وبارئه ومصوّره .. وكلها أدلة قاطعة على عظمة الإسلام دين الفطرة، ومنظّم الإنسان في الجسد والروح والفكرة ..

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهو في الآخِرَةِ مِن الخَاسِرِيْن [١]﴾.

هذه تشريعات الإسلام لحياة الإنسان متشابكة مترابطة، لاانفصال فيها لنظام روح عن نظام جسد، ولا لمنهاج عمل عن منهاج فكرة، ولا لقانون دنيا عن قانون آخرة، وكلها أنظمة تربية وتزكية، وإعلاء وترقية، وغايتها كلّها إنشاء الإنسان الكامل الإنسانية، الموفّي لربه حق العبودية .

إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين :

ومن أجل ذلك علمنا أن دين الإسلام وحده هو الدين الكامل الذي

١ـ آل عمران: ٨٥ .

يصلح للبشرية؛ لأنه وحده هو الدين الذي قام على هذه القاعدة ووفّى بهذا الشرط .

.. علم أن للإنسان روحاً وجسداً، فهذب الروح والجسد معاً بما تحتمله الطاقة ويحفظ الوحدة .. نعم، الإسلام وحده هو الذي قام على هذه القاعدة ووفّى بهذا الشرط، ولست أراني بحاجة إلى إقامة الدليل على ذلك، فقد علم المطّلعون أن أديان الأرض كلها لم تلحظ في تشريعها وحدة أجزاء الإنسان في التكوين .. ففككت بين أجزائه ففككت بين أحكامه، فكانت أحكامها بتراء لاتُصلِح جسداً، ولا تهذب روحاً، ولا تسمو بمجموع.

الإسلام وحده قام على هذه القاعدة، وجرى في جميع تعاليمه على هذا المنهاج، والآية الكريمة المذكورة من شواهد هذه الدعوى :

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ».

للإنسان جسد وله روح، والجسد مظنّة للتلوث بما يظهر عليه من داخله من الأقذار، وبما يسري إليه من خارجه من الأوضار؛ فكان هذا باعثاً لتشريع الطهارة في الإسلام ..

والروح كذلك مظنّة للتّدنّس بما تستقم به في باطنها من سيئ الطِباع والأخلاق، وبما يتَسَرّى إليها من غيرها بالمجاورة والاختلاط؛ فكان هذا سبباً لتشريع التوبة.

فالطهارة والتوبة توأمان في الدين يتشابهان في النشأة، ويتماثلان في الفائدة.. أولاهما لتنزيه البدن مما يتعلق به من أدران، وأخراهما لتزكية النفس عما يطرأ عليها من ذنوب..

والإنسان الزكي المتـــنـــزه، الذي يقرن طهارة ظاهره بطهارة باطنه، ونـــزاهة سّره بنـــزاهة علانيته، ويترسّم حدود الله في هذه وتلك، هو الذي يســـتحق عـــناية الله (جل شأنه) ومزيد لطفه، ويستوجب حب الله وعظيم توفيقه.

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ».

الصلاة والصيام:

وعلى هذه القاعدة أيضاً بنى الإسلام تشريع الصلاة والصيام..

فالصـــلاة ركوع وسجود وقيام وقنوت، وهي حركات وأعمال يظهر فيها خضوع الجسد وانقياده لخالقه ومدبّره، ولكن هذه المجموعة من الأعمال لا يتضح فيها مفهوم العبادة حتى تقترن بالنية والخلوص.. وهو المظهر الأعلى لخضوع الروح لهذا الخالق المدبّر.

والصـــوم إمســـاك عن شهوات ولذائذ، وذلك تعبّد للجسد، ولكن لايؤتي ثمرته الصحيحة حتى يقترن بالخضوع الروحي للآمر العظيم..

وليـــس أثـــر الصوم في الروح وأثر الصوم في الجسد هو هذا التطهير المعنوي الصحيح.

نعم، ليست هذه فقط هي فائدة الصوم، فله فوائد بدنية يوضحها علم الطب، وله فوائد روحية كبيرة يشرحها علم الأخلاق.

.. بدن الإنسان مجمو   من أجهزة متسلسلة الوظائف متضامنة الغايات يمهد بعضها لبعض ويسند بعضها عمل بعض، وبانتظام هذه المجموعة تنتظم

الحياة لهذا المخلوق العجيب.

وبـــدن الإنســـان مجموعة من الأنسجة والخلايا والمواد متزنة المقادير، دائبة العمل متجددة النشاط، وهذا العمل الدائب، والنشاط المتجدد، هومعنى الحياة، أو هو المظهر الملازم لصفة الحياة، ونشاط هذه المجموعة يتوقف - في درجـــته الأولى - على الوقود الذي تنتجه الأجهزة من الغذاء، يعوض به ما يُستهلك من الأنسجة، ويستبدل ما يُحرق من الخلايا، ويخلف ما يُستنفَد من المواد.

وفـــائدة الصـــوم الأولى هي راحة جهاز الهضم والامتصاص في فرصة الإمساك عن الطعام والشراب. والجهاز الذي يدأب على العمل طوال عامه يفـــتقر إلى الراحة والاستجمام فرصاً معينة في العام. أجهزة التغذية في بدن الإنســـان تنتج من الوقود ما يزيد عن حاجة الإنسان، وذلك احتياط طبيعي للضرورة التي قد تحدث، ومن أجل الغذاء المدخر يتمكن الإنسان من العيش مـــدة طويـــلة، وإن انقطـــع عن الطعام، وذلك واضح في الطبّ وثابت في التجربة، وفائدة الصوم الثانية أن تتوجه أجهزة النشاط - على اختلافها - إلى الأغذية المخزونة، فتبرزها إلى دور العمل، ويكفي الجسم أذى الزيادات الـــتي قـــد تخـــرجه عـــن التوازن، والسموم الضارة التي قد تتولد من تلك الزيادات.

والصـــوم - من وراء ذلك الاستجمام وهذا التطهير- عملية مهمة من عمليات النشاط والتجديد.. نشاط الحياة وتجديد الشباب، لأنه يتلف الخلايا والأنسجة القديمة ويستبدل عنها - بعد الإفطار- بعوضٍ جديد.

ومن أجل هذه الخاصة قد استخدم الصوم كثيرون من الأطباء في علاج كـــثير من الأمراض، فهو يستهلك الأجزاء الموبوءة ثم يعوض عنها بأخرى سليمة من الأوبئة.

هذه نظرية الطب الحديث والقديم عن الصوم..

الصيام وعلم الأخلاق:

أما علم الأخلاق فأراني –من وجهته- في غنى عن ذكر نظرية أو إطالة في تعليل.

فالصوم في بداءته صبر، وفي نهايته شكر، وهي إحدى عجائب التشريع التي يصنعها الإسلام أبو العجائب وصانع المعجزات.

الصـــوم في صـــورته التي يبتدئ بها صبر: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ (١)﴾.

وفي حقيقـــته التي ينتهي إليها شكر: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَـــبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَداكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢) ﴾ .

أسمعتم؟ .. هكذا يريد الإسلام أن نتسامى، وهكذا يريد منا أن نؤدي فرض الصوم العظيم.

الصـــوم في بداءة أمره صبر، وتدرب على السيادة والقيادة، يكون به المـــرء سيد نفسه ومالك زمامها، وماسك لجامها، وضابط نزواتها، وحاكم

١ــ البقرة: ١٨٩ .

٢ــ البقرة: ١٨٥ .

شهواتها.

الضبط الكامل للنفس، والملك لزمام الشهوة والغضب. فإذا عوّده الصوم على مصابرة نفسه يوم الصبر وهو في الرخاء، كان أقدر على مصابرة العدو ومصابرة الحياة في البأساء والضراء.

وإذا انتصر على نفسه يوم الصوم فكفّها عن الشر، وقادها إلى الخير، كان أجدر بالانتصار في جميع المواقف، وكان أحرى بالأمن من جميع المخاوف.

هذا هو الصوم في بداءته صبر يجرّ إلى صبر، ونصر يقود إلى نصر، وسيادة على النفس، وكفّ من غلوائها، وتسامٍ عن أهوائها وليس كبتاً وحرماناً كما يقول القائلون، ويزعم الزاعمون، الذين يبتغون للإسلام الغوائل ويترصّدون منه المقاتل.

هذا هو الصوم في بداءته، وهو إنما يمثل الهدف القريب من أهدافه، والمعنى الداني من معانيه، وهو دور الكفّ والانتهاء، ثم يأتي من بعده الدور الثاني للصوم، وهو دور الإنشاء والبناء، وهو في كلا دوريه سمو وارتقاء.

إن الصائم في دوره الأول إنما يسكت صوت الهوى، والأمر الأعظم في الصوم أن يكون ذلك تمكيناً لكلمة الحق والهدى، وهذا الأمر هو الذي عبر عنه القرآن بالتقوى، إذ قال (تعالى): ﴿ يَاأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١) ﴾ .

١ــ البقرة: ١٨١ .

ثم عبر عنه بالشكر إذ قال في الآية السابقة: « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ».

وبعد، فإن أثر الصوم في تزكية الخلق وتصفية النفس، وتقوية الذاكرة محسوس لا ينكره أحد.

وأينا يجهل أن الصوم عصام يمنع النفس أن تتردى في الشهوات، ويكبحها أن تنزلق في المهاوي؟

وأينا لا يشعر بهذه اليقظة الروحية التي تملك الصائم وهو يصوم، وهذه الإشراقة التي تملأ جوانب نفسه وهو يفطر؟

وأينا لا يتحسس هذه الرقة التي تعمر قلوب الصائمين، والخشية التي تغمر نفوسهم.

كل هذه الآثار بينة للصوم في تهذيب النفس، وإعلاء الصفات وتزكية الضمير.

ويمضي الإسلام دين الإنسانية، ودين التهذيب في كل عباداته، وفي كل إرشاداته على هذا المنهاج القويم لا يشذّ عنها شيء، ولاينقص في مورد..

ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله

﴿ وَمَــن أحْسَــنُ قَولاً مِمَّن دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالحاً وَقَالَ إنَّني مِن المُسْــلِمين. وَلا تَستَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بالّتي هِيَ أَحْسَنُ، فَإذا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ. وَمَايُلَقَّاهَا إلاّ الَّذيْنَ صَبَرُوا وَمَا يُلقَّاهَا إلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيْمٍ. وَإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِن الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ، إنَّه هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ[1] ﴾.

كانت الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة مجالاً لحديث خاص كان لي مــع بعــض إخــواني من الأساتذة الأدباء في البحرين، تعرّضت فيه لبعض أهداف الآية، وأشرت إلى بعض آفاقها.

وقــد رغــبت أن أتحــدث إليكــم -أيها الإخوة- عن بعض آفاقها الأخرى...

والقــرآن بعيد الآفاق، عميق الأغوار لاينتهي الباحث إلى غور منه إلاّ ويجد أن وراءه أغواراً أبعد، ولا يسمو إلى أفق إلاّ ويرى أن فوقه آفاقاً أسمى وأوسع وأعظم.

وتســمو آفاق الكتاب العزيز وتسمو، وتبعد أغواره وتعمق، وينقلب

١ــ فصّلت: ٣٣-٣٦.

البصر وهو حسير، ويرجع الفكر مبهوراً يسبّح بعظمة القرآن، ويلهج بإكبار رسوله (صلى الله عليه وآله).

إعجاز في اللفظ، وإعجاز في المعنى، وإعجاز في الأسلوب، وإعجاز في البرهنة، وإعجاز في التشريع، وإعجاز في الحكمة، وإعجاز في استقصاء طبائع هـــذا الكـــائن وأدوائه، وإعجاز في علاجها، وإعجاز حتى في حصر وجوه الإعجاز.

درس بليغ في الدعوة إلى الله:

والآيات الأربع الكريمة تحوي درساً عالياً في الدعوة إلى الله -سبحانه، تـــبيّن فيه حدود الدعوة وتُجمل شرائطها، وترسم فيه صورة حيّة شاخصة للداعية الحق، وتعيّن له خطته، ومنهجَه في الدعوة.

ولابـــدّ للأمة من تفهّم هذا الدرس، ولابدّ لها من العمل على الإفادة مـــنه، ولابد لها من صوغ أفرادها على هذه الصورة الفريدة، إذا رغبت في المنـــزلة التي أعدّت لها في التكوين.

وليســـت المسألة مسألة رغبة وأمنية، فكل مسلم يجب أن يكون داعية من دعاة الله (جل شأنه) وشهيداً على الناس من شهدائه، ولا عذر له أبداً في أن يتغاضـــى عـــن هذه المهمّة، ولامساغ له في أن يتهاون بها. وصدق الله العظيم فإنه يقول:

﴿ إِنَّ الّذِيْنَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّـــنَاتِ وَالهُدَى مِن بَعد مَا بَيَّـــنَّاهُ لِلـــنَّاسِ فِي الكِـــتَابِ أُوْلَـــئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ. إِلاّ الّذِيْنَ تَابُوا

وَأَصْلَحُوا وَبَيَّـــنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَوَّابُ الرَّحِيْمُ [١] ﴾.

نعم، والظروف الراهنة للأمة من أشدّ الظروف إلزاماً عليها بأن تتفهم هذا الدرس الرفيع، وأن تجهد في الإفادة منه.

المبدأ والغاية والحدود:

"ومـــن أحســـن قـــولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين".

هـــذا هو مبدأ الدعوة وهذه هي غايتها، وهذه حدودها وأبعادها، ثم هذه شرائطها.

استســـلام واثـــق لله، وانقياد خالص لأمره، فالله -سبحانه- هو مبدأ الدعوة وهو غايتها.

وفي نطـــاق شـــريعته، وفي إطـــار طاعـــته تنطلق الدعْوة وتتحدد، ولاتتجاوزها أبداً، ولا تقصر عنها، فهذه هي حدودها وأبعادها.

ثم هـــي تطـــابق كامل بين القول والعمل، وبين السرّ والجهر، وبين الدعوة والعقيدة . وهذه هي شرائطها ومؤهلاتها.

ثم .. هـــذه هـــي الخطوط الأولى التي يضعها كتاب الله -سبحانه- لصورة الداعية الحق:.

إخـــلاص في الدعـــوة، وإخـــلاص في العمل، وإخلاص في الاعتقاد،

١ــ البقرة: ١٥٩-١٦٠.

واستسلام كامل لله بحيث تذوب معه الشخصية، وتَمَّحِي الغايات ..

ولنـــتحاكم إلى الفطرة الواعية، وإلى العقل السليم في قيمة الدّعوة بعد كل هذه الأرصدة، وهذه الضمانات .

"ومـــن أحســـن قـــولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إنني من المسلمين".

داعية الله والعقبات:

وتأتي الآية الثانية لتـــتم ملامح الصورة وتكمل مقوّماتها:

"ولاتستوي الحسنة ولا السيئة".

وهـــذا الحكـــم كذلك بدَهي لايمتري فيه عقل .. إن الحسنة والسيئة لاتستويان خطراً، ولا تستويان أثراً.

وكمـــا لاتستوي الحسنة والسيئة فكذلك لايستوي فاعل هذه وفاعل تلك.

وداعية الله هو الذي ترفّع عن صغار الغايات، ومحَض النصيحة، ومحَض الإخلاص، فجدير به أن يستكمل هذه الأشواط العظيمة إلى نهاياتها: أن يربَأ بنفسه وبدعوته وبإخلاصه من أن يقابل السيئة بمثلها.

..إنـــه سيصطدم في دعوته بأهواء يحرص المدعوّون عليها، وهو يريد تقويمهـــا، وبعادات وتقاليد فاسدة هم يقدّسونها وهو يريد تحطيمها، وبأمور كثيرة يمدّها الجهل، ويرفدها الغيّ وتقوّيها الشهوات والنـــزوات وهو يريد إصلاحها .. وستثور النفوس الصغيرة، وتغضب لهذا التحدي، وتواجه دعوته

بالهـــزء، ونصيحته بالاستكبار، وتكيد له ماوسعها الكيد .. ستقابل الحسنة بالسيئة، وعلى الداعية في هذه المواقف أن يتحرّز من السقطة .. أن يبقى في أفق دعوته رفيعاً رفيعاً كالنجم يهدي الحائر، ويقيل العاثر.

"ولا تستوي الحسنة ولا السيئة".

إن العقول لاتمتري في هذه الحقيقة، وإن مردت النفوس، وإن شذّت، فعلى داعية الله أن يقابل السيئة بالحسنة، فإن ذلك الجامح الغاضب إذا رأى أن ســـيئته قوبلت بالصفح، وأن جهله غمر بالحلم انكسرت سورته، ولان جِماحه، وخجل من نفسه، واستسلم طائعاً، واستبدل بالبغض حبّاً وبالعداء ولاء:

"ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم".

نعم، إنه حلم الحليم، وسماح الكريم .. إنها أخلاق الإسلام ينشئ عليها بـــنيه.. يقوّم بها طباعهم، ويروّض جماحهم، ليقيم بهم المجتمع الأسمى الذي يبتغيه، ويحقق لهم الغاية الكبرى التي ينشدها ..

.. إنها أخلاق الإسلام التي تجعل كل فرد من أبنائه دليلاً شاخصاً على عظمة الإسلام، وعظمة أهدافه..

.. إنها أخلاق الإسلام التي لن يسمع بها أحد إلا أيقن بأهليّة هذا الدين لقيادة الدنيا .

إنهـــا أخلاق الإسلام، وإضافتها إلى الإسلام دليل على أنها لا توهب لكل أحد، ولا تؤتى بغير ثمن.. إنها تفتقر إلى بذل، وتفتقر إلى جهاد نفس، وجهاد نزعات .. إنها منحة لاتوهب دون أهلية ولا تلقى دون استحقاق .

"وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلاّ ذو حظ عظيم".

الاعتصام بالله وحده:

ولكن نزعات النفس كثيرة العدد، ومساربها إلى غاياتها كثيرة الالتواء شديدة التعقيد، ولا يأمن الداعية المؤمن أن تطغى عليه نزعة من هذه النزعات؛ فتتخذ سبيلها إلى قلبه، ويتدخّل الشيطان فينزغ، ويثير ليهوي بالداعية من أفقه الرفيع.

وحصنه العظيم من ذلك كله هو الاعتصام بالله من النزعات والنزغات:

"وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم".

اعتصم بالله وحده، فإنه الكافي وحده، وهو الذي بوّأك هذه المنزلة وأمرك بالتعالي، وأرشدك إلى الاعتصام، وهو السميع لشكواك، العليم بحالك.. .

اعتصم بالله وكفى، فكل محاولة من أي ذي قوة ستزول إذا عذت بهذا الحصن العظيم.

هذا هو الدرس الذي نتلقاه خاشعين من الآيات الأربع الكريمة، وهذه هي الصورة الفريدة التي ترسمها أمامنا للداعية الحق.. فهل نحن داعون ؟ وهل نحن سامعون ؟ ثم هل نحن عاملون ؟

لابدّ للأمة من تفهّم هذا الدرس، ولابدّ لها من العمل على الإفادة الصحيحة منه، ولابدّ لها من أن تصوغ أفرادها على هذه الصورة الفريدة إذا رغبت في المنزلة التي أعدّها الله لها في التكوين. والظروف الراهنة من أشد

الظروف إلزاماً على الأمة بأن تتفهّم، وأن تجهد في الإفادة.

مشكلة اليوم:

أيها السادة ..

وليست مشكلة اليوم للإسلام مشكلة مناهج ونظم، ومفاهيم وكفاءة للقوامة على الحياة، فقد أثبتت لغة الأرقام أن الإسلام أغنى الأديان والمبادىء والشرائع بهذه الأشياء، وأجدرها جميعاً بقيادة ركب الحياة.

وأقــول: إن الإســـلام أغناها جميعاً بهذه المؤهلات جرياً مع تصاريف الـــلغة، وقد تضيق هذه عن التعبير، وإلاّ فقد أوضحت لنا الحقائق -حتى لم تذر مكاناً للريب- أنّه لاغناء بغير دين الله.

ليست مشكلة اليوم للإسلام مشكلة مناهج ونظم تسيرّ الحياة، ولكنها مشكلة مَن يحمل القبس المشعّ ليضيء الحياة..

مشـــكلة جيل واع رشيد، يفقه الإسلام ويحيا به، ويعيش له، ولا يجد السعادة إلاّ في ظلاله.

وهـــي -قـــبل ذلـــك- مشكلة دعاة أبرار مخلصين يحملون المشعل، ويضـــيئون الدرب، ويتغلغلون إلى الفِطَر.. يطردون ما علق عليها من رين، وإلى الضمائر يقوّمون ما طرأ عليها من زيغ، وإلى العقول والمشاعر والأذهان والأخلاق يصلحون ما عرض لها من انحراف..

هذه هي مشكلة اليوم للإسلام..

مشـــكلة الأســـاس الذي لن ترسو القواعد، ولن تقوم الأضلاع، ولن

ينتهض البناء إلاّ بعد تثبيته.

فهل نحن سامعون ؟ ثم هل نحن عاملون ؟

﴿ وَقُــل اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ. وَسَتُرَدُّوْنَ إِلى عَالِم الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١] ﴾.

وصدق الله العظيم .

١ـ التوبة: ١٠٥.

ذكرى القرآن

نعــــم، في ذكرى القرآن، ولكن لا على الحد الذي ألِفه الناس من معنى الذكرى.

ليســـــت حديثاً أو رمزاً يخلّد به تأريخ، أو تمجّد به بطولة، أو يشاد به ذكـــر، فمقام القرآن فوق الأحاديث والرموز، وفوق التواريخ والبطولات، والقـــرآن كـــتاب العظمة بذاته، لا بإشادة ولا بإطراء، وهو كتاب الحياة وكتاب الخلود بذاته، لا بذكرى تقام، ولا بحديث يكتب أو يتلى.

صلة المسلم بربّه:

... في ذكرى القرآن، وهي تعهّد صلة لاتهن ولا تخلق، ولا تضعف ولا تفتر، ولا تزيد على كرّ الليالي إلا قوة وثباتاً، وإلاّ نماءً أو رواءً !

صلة المسلم بربه، ثم صلته بدينه: بالسبيل القويم الذي يعرّفه بربه ويبلّغه رضاه ويسعده بتقواه.

وإذا تعهّـــد المسلم صلته بربّه على ضوء القرآن، فقد تعهّد كل صلة له بالمجـــتمع المسلم، وبالمجتمع البشري الكبير، وبأفراد كلٍّ من هذين المجتمعين، مَـــن قَرُب منهم في النسب ومَن بَعُد فيه، ومَن اجتمع معه في حدود الزمان والمكان ومَن افترق، ومَن شاركه في مصادر القوت وضرورات العيش ومَن

استغنى، فكل هذه امتدادات لصلته الكبرى بربّه في رأي القرآن.

نعــــم، هذا هو المبدأ الأول الذي ينبثق منه المذهب الاجتماعي في دين الإسلام، وفي منهج القرآن، وهذا هو الينبوع الطاهر الزكي الذي تستقي منه كل صلة للمسلم في هذه الحياة فتزكو وتسمو.

والقبلة الحارّة التي تضعها على فم ولدك أو على جبين أخيك إذا كانت لـــلعاطفة المجرّدة لا تجد فيها من اللذاذة مثل ما تجده في هذه القبلة -ذاتها- وأنت موقنٌ بأن صِلتك بالولد وبالأخ امتداد لصلتك بالله، ولا يجد هو فيها من السعادة مثل ما يجده فيها وهو يشعر هذا الشعور.

تجديد لوثيقة العهد القديم:

... في ذكـــرى القرآن، وهي تجديد ميثاق قديم سبقت إليه الفطرة في بـــداءة تكويـــن الحياة، بل وفي بداءة تكوين الكون، ثم اعترف به الشعور، وصدّق الحس، وأقرّ العقل، وآمن القلب، واستجاب الضمير.

وســـجّل القرآن وثيقة هذا العهد في آية من آياته، لتتذكر الفطرة فلا تغفـــل، ويتنبّه الشعور فلا يضلّ، ويستيقن العقل فلا يرتاب، ويزداد القلب إيماناً، ويزداد الضمير اطمئناناً.

نعم. سجّل القرآن وثيقة هذا العهد في آية من آياته فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَـــذَ رَبُّـــكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُســـهِم. أَلَسْتُ بِرَبِّكُم؟ قَالُوا: بَلى، شَهِدْنا. أَنْ تَقُولُوا يَومَ القِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَن هَذا غَافِلِين، أو تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آباؤنا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِم،

أفَتُهْلِكُنَا بِما فَعَلَ المُبْطِلُونَ؟ [١] ﴾.

الهداية للّتي هي أقوم:

... في ذكـــرى القـــرآن، وهذه هي الهداية الحكيمة الرشيدة للّتي هي أقوم، ثم الدعوة إليها بالتي هي أحسن.

الهداية للّتي هي أقوم: للعدل الشامل الكامل، في كل وجهٍ دعا إليه هذا الكتاب العزيز، وفي كل نهج قرّره وأمر الإنسانية أن تسير عليه.

لـــلّتي هي أكثر استقامة، وأعظم اعتدالاً، وأوفر حكمة، وأوفى رشداً، وأكـــبر مطابقـــة لواقع الأشياء، ولواقع الحياة، ولواقع الإنسان، وللموازنة الدقيقة بين طاقاته وضروراته، وبين حقوقه فرداً وحقوقه أمة، وحقوقه مجتمعاً واحداً عامّاً تفنى فيه الحدود، وتتساوى الصلات.

لـــلعقيدة التي هي أقْوَم، وللملّة التي هي أقْوَم، وللعبادة التي هي أقْوَم، وللمناهج التي هي أقْوَم، ثم للعلاقات التي هي أقْوَم، وللحدود التي هي أقْوَم، وللمفاهيم التي هي أقْوَم، وللمعارف الكونية التي هي أقْوَم.

ثم الدعوة إلى هذا العدل المطلق الشامل بالتي هي أحسن.

بأســـاليب القرآن الفريدة المعجزة التي تتبسّط مع الفطرة، وتتعمق مع العقـــل، وتكون أكثر عمقاً وأبعد غوراً مع الفلسفة، ثم لا يشغلها شأن من هذه عن شأن.

١ــ الأعراف: ١٧٢-١٧٣.

بأساليب القرآن التي أعجزت البلغاء عن تبيّن مدى الإعجاز فيها.

بيعة المسلم لله:

... في ذكرى القرآن وهي بيعة المسلم لله، ويمينه التي أدّاها لـمّا اختار الإسلام دينا: أن يُحِقّ ما أحقّ كتاب الله من مناهج ويبطل ما أبطل، وأن يقطع ما قطع من الصلات ويصل ما وصل، وأن يجاهد دون هذه الحقائق بنفسه وماله، وأن يصبر عليها ابتغاء وجه ربّه، مهما حالت الأحوال، وضاقت المضائق، فلا تضطرب له قدم، ولا تضعف له عزيمة، ولا تختلف له علانية ولا سريرة.

﴿ الَّذِيْنَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيْثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَونَ رَبَّهُم وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَاب. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرّاً وَعَلانِيَةً، وَيَدْرَؤُون بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُوْلَئِكَ لَهُم عُقْبَى الدَّارِ[١] ﴾.

﴿ إِنَّمَا الـمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا، وجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِمْ في سَبِيْلِ اللهِ، أُولَئِكَ هُم الصَّادِقُونَ [٢]﴾.

... في ذكرى القرآن، وهي هذه اليد الكريمة التي تمتد إلى الفرد الضعيف الذي لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يهتدي إلى رشده سبيلاً.

اليد الرحيمة التي تمتد إلى هذا العاني فتملأ آفاقه بطاقات الخير، وتنفخ

١ــ الرعد: ٢٠-٢٢.

٢ــ الحجرات: ١٥.

في ضميره وفي جميع مشاعره حبّ الخير، وتنير لعينيه ولبصيرته سبل الهدى، ثم تصـــل قوّته الضعيفة الواهنة المحدودة بقوة الله العظيمة التي لا تغالب ولا تتناهى، وبعزة الله التي لا تُضام، وبقدرته التي لا يمتنع منها شيء..

... بمـــدد الله الدائم الذي لا ينفد ولا ينقطع في كل مجال من مجالات الخـــير، وفي كـــل وجه من وجوه الهدى، وفي كل مظهر من مظاهر القوة والعزة والكرامة والنصرة.

وبعـــد أن تنشئه هذه التنشئة العالية وترتفع به إلى هذه الغاية، وبعد أن تكمل له هذه العدّة تعرّفه قيمته في المجتمع ومنـــزلته منه، ومهمّته التي يجب أن يقـــوم بها في توجيهه وإسعاده: أن يكون لساناً من ألسنة الحق في الناس، وداعياً من دعاة القسط فيهم، وشهيداً من شهداء الله، وقيّماً من قوّاميه على إنفاذ أحكامه، وبسط عدله:

﴿ يَاأَيُّهَـــا الّذِيـــنَ آمَـــنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ، شُهَدَاءَ لِلّه وَلَو عَلَى أَنْفُســـكُم أو الوَالِدَيْـــنِ وَالأَقْـــرَبِيْنَ. إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا. فَلاتَتَّـــبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيْراً [١] ﴾.

غَناء الإنسان في حاجته إلى نظام الحياة:

... في ذكـــرى القرآن، وهي هذه اليد المبرورة المشكورة التي أغنت

١ــ النساء: ١٣٤.

الإنســان أن يفكــر في تقريــر قاعدة ثابتة لحياته، وفي وضع مبدأ حكيم لاجــتماعه، وفي تشــريع دســتور لحكومته، وفي سنّ أنظمة مفصّلة عادلة لاقتصــاده وسياسته ومعاملاته وحدوده وحقوقه، وفي إنشاء مناهج لتربيته وأخلاقــه وســلوكه: أن يلتجيء في قوانين حياته إلى عقول محدودة، وأن يشتقّها من نظرات ضيّقة وملابسات مخصوصة.

هذه اليد المشكورة التي أغنته في كل حقل من حقول التشريع، وفي كل وجه من وجوه التنظيم، أن يمد يده فيستجدي، أو يجرّب موهبته فيخترع، أو ينظر في قوانين الدنيا يميناً ويساراً فيركّب ويستنبط.

أغنــته لــو أنه فكّر وأبصر، وسيفكر لا محالة ويُبصر، وسيعلم -حين ذاك- أنه الحق لاريب فيه، ولكن بعد أن يدفع ثمن غفلته مضاعفاً، وبعد أن تمــرّ بــه التجارب الطويلة، فتثبت له قصور هذه المحاولات كلها، وبعد أن يتــنــبّه المسلم لشأنه فيعلم أنه متناقض الرأي، متناقض السلوك تجاه كتاب ربّه.

ليلة القدر:

... في ذكــرى القــرآن، وللأيام قسط منها كما للنفوس، وللتأريخ تشريف وتكريم كما للإنسانية.

عــلى أن القســط الذي تناله الأيام من هذه الذكرى. والشرف الذي يصيبه التاريخ يعودان آخر الأمر فيصبحان حَظّاً من حُظوظ الإنسان.

وشــهر رمضان هو الشهر الذي ميّزته العناية بهذا القسط، وليلة القدر

منه هي التأريخ الذي اختصّته الحكمة بهذا التشريف والتكريم.

قد تكون هذه الليلة المباركة من هذا الشهر العظيم وقتاً لنـــزول القرآن جُمـــلة على قلب الرسول (ص)، ثم تنـــزّل -بعد ذلك- مفصّلاً مرتّلاً طيلة عهد الرسالة، فقد قال بهذا مفسرون وأوّلوا به أحاديث.

وقـــد يكـــون هـــذا الشهر -وهذه الليلة منه على الخصوص- تاريخاً لنـــزول أول نجم من نجوم القرآن، فقد ذهب إليه ذاهبون من علماء التفسير أيضاً..

وعلى أي حال فلهذا الشهر ولهذه الليلة صلة وثيقة بنزول القرآن، وقد شهد بها القرآن وناط بها ذكراه، وأرّخ بها نزوله، فقد قال في سورة البقرة:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّـــنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ [١] ﴾.

وقـــال في سورة القدر: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ؟ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ[٢] ﴾.

شـــهر رمضـــان وليـــلة القدر هما مطلع هذا النور الإلهي الذي أضاء للإنســـانية مـــن ظلمة، وأنقذها من هلكة، وبصّرها من عمى، وهداها من ضلالة، أفليسا جديرين إذن بالتكريم ؟!

١ــ البقرة: ١٨٥.

٢ــ القدر: ١-٣.

أليس من الحق أن يكون لهما في الإسلام شأن لا يُجهل، ومنزلة لا تضيع ؟

أليس جديراً بهذا الشهر أن يكون موسم البِرّ، ومضاعفة الأجر، وبهذه الليلة أن تكون خيراً من ألف شهر: أن يكون عمل البِرّ فيها خيراً من عمله في ألف شهر كما نطقت به أحاديث أهل البيت (ع)، وفسرت به الآية الكريمة ؟

وفريضة الصوم هذه التي كتبها الله على الذين آمنوا لعلهم يتقون، أليست تكريماً لهذا الشهر، وذكرى للقرآن، وشكراً لنعمة نزوله ؟

إن الآية الكريمة السالف ذكرها قد تشير إلى ذلك، فإنها قالت: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ... ﴾ .

نعم، وهكذا يعود القسط الذي أصابه شهر الصوم من ذكرى القرآن والذي أصابته ليلة القدر ففُضِّلت به على ألف شهر، يعود فيصبح حظّاً جديداً يسعد به الإنسان.

ذكرى ليلة القدر

قال لي الأعزاء الذين دعوني للمشاركة في هذا الحفل: « إنها ذكرى ليلة القدر »، فأكبرتُ الذكرى، وأكبرت القصد.

اقترنت في خاطري مع هذا الاسم الكريم قولة الله (سبحانه) عن كتابه:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ[1] ﴾.

وقوله (عز اسمه): ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِيْنَ[2] ﴾.

اقترنت هاتان الآيتان في خاطري مع اسم ليلة القدر، كما يقترن الأليف بالأليف، وكما يجتمع الحبيب إلى الحبيب، ونزول القرآن في ليلة القدر -في ما يعتقده كل مسلم- أعظم حادث أوجب لها الفضل، وأكبر ما فرق فيها من أمر حكيم.

ذكرى القرآن والإسلام:

وإذن، فذكرى ليلة القدر إنما هي ذكرى القرآن كتاب الله الكريم، بل وذكرى الإسلام دين الله العظيم.

وإذن فهي ليست ذكرى بالمعنى الذي يعرفه الناس حين يُطلقون هذه

١ـ القدر: ١.

٢ـ الدخان: ٣.

الكلمة، وحين يقيمون الاحتفالات والذكريات، كما قلت في حديث كتبته عن ذكرى القرآن قبل عام.

إنها ليست ذكرى حادث مرّ وجوده، ومرّ تأريخه، وإنما تقام ذكراه لتُسْتبقى بعض آثاره.

ليست ذكرى شيئ انتهى أمده من الوجود، لتبقى عظمته خالدة في القلوب.

ولكنها تعهّد صلة، وتجديد ميثاق، وإحكام عهد.

إنها تعهّد المؤمن صلته بالكتاب الذي صدّق، وبالدين الذي آمن، وإنها تجديد ميثاقه لربّه الذي أخذه عليه في عالم الميثاق، ثم انطبع في كيان هذا المخلوق، وفي أغوار نفسه، طاقة قويّة تستمدّ منها ركائز الفطرة، ونوراً هادياً تقتبس منه براهين الفكرة:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِم، أَلَسْتُ بِرَبِّكُم ؟ قَالُوا: بَلَى، شَهِدْنَا. أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ[١] ﴾.

إنها تعهّد صلة لم ترثّ ولم تَخلُق، وتجديد ميثاق لم يَهِن ولم يتزلزل، وإحكام عهدٍ لم تَهِ رابطته، ولم يُنقَض مُبْرمه، ولم يتزعزع أسُّه، ولكن هكذا يريد الله لعبده المسلم، أن لا تزداد صلته به إلاّ قوّة، وأن لا تزداد عقيدته

١ــ الأعراف: ١٧٢-١٧٣.

بتوحيده إلاّ رسوخاً وثباتاً، وأن لا يزداد إيمانه بدينه إلاّ إشعاعاً وانطلاقاً، وأن لا تزداد عزيمته في جهاده دون عقيدته ودون دينه إلاّ شدّة ومضاءاً، وأن لا يزداد صوته في الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله إلاّ علوّاً وارتفاعاً:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [1] ﴾.

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[2] ﴾.

هذه هي ذكرى ليلة القدر -أيها الإخوة-، أو بالأحرى هذه هي ذكرى القرآن في ليلة القدر.

وليكن معنى نزول القرآن في ليلة القدر ما يكون، وليقل علماء الحديث وعلماء التفسير فيه ما يقولون.

ليكن معنى ذلك أن هذه الليلة المباركة أنزل فيها أول نجم من نجوم القرآن، كما يرى البعض، أو أن القرآن أنزل فيها جملة واحدة، وليكن ببعض مراتب النزول كما يراه آخرون.

ليكن معنى نزول الكتاب في هذه الليلة وفي هذا الشهر أي معنى، فإن الأمر يستوجب الاهتمام، ويستوجب التعظيم.

١ـ الحجرات: ١٥.

٢ـ المائدة: ٧.

نور وكتاب مبين:

﴿ قَـــدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُـــبُلَ السَّـــلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيْهِمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[١]﴾.

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَونَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُم إلى ذِكْرِ اللهِ[٢] ﴾.

المعجـــزة الخـــالدة للشريعة الخالدة، والمنهاج الكامل للسعادة الكاملة، والروح الحي الذي يهب الحياة الطيبة، والنظام العدل لحكومة الحق العادلة، والدستور الثابت الباقي الذي لا عزّ إلا بامتثاله، ولا نصر إلا في ظلاله.

وإذا كـــان الإســـلام دينَ الحياة ودين الأبد ودين القرون، وإذا كانت عقيـــدة الإسلام هي العقيدة التي لا يقبل الله غيرها، وإذا كانت شريعته هي الشريعة التي لا يرتضي سواها.

﴿ وَمَـــنْ يَبْـــتَغِ غَيْـــرَ الإسْلامِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِيْنَ[٣] ﴾.

.. إذا كـــان كل أولئك حقاً لا ريب فيه – وكل أولئك حق لا ريب فيـــه – أفـــليس من حق البشر كافة أن تقام لهم المعجزة الهادية الباقية التي تكشف الظنون وتخلد مع القرون ؟

١ــ المائدة: ١٥–١٦.

٢ــ الزمر: ٢٣.

٣ــ آل عمران: ٨٥.

أوليــس من حقهم كافة أن يعيّن لهم المنهاج الكامل للسعادة، والنظام العــادل لــلحياة، والسبيل السويّ للخُلق، والقاعدة المتينة للتربية، والقوانين الحكــيمة للاجتماع والاقتصاد والحكم والسياسة والتدبير، وأن ينزّل عليهم الكــتاب الجــامع المعصــوم الذي يجمع كل هذه السّمات ويفي بكل هذه الغايات ؟

بــلى، وهكذا كان، ووفت الحكمة المشرّعة الهادية للخلق بما يريدون، وأنــزلت ﴿ القُــرآنَ يَهْــدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ: أَنَّ لَهُم أَجْراً كَبِيْراً (١) ﴾.

إعجاز القرآن:

هذا هو السر الأكبر في إعجاز القرآن.

فهــو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في كل جهة من جِهاته. وهو الذي لن تبلغه القدرة المحدودة في أي أفق من آفاقه.

أمــا وجهة البلاغة فهي بعض وجوه الإعجاز فيه، وهي آخرها جميعاً، إذا ابتدأنا بالتعداد من أرفعها مكاناً.

والإعجــاز -في واضح معناه- ظهور القدرة العليا في أثرٍ من آثارها، حتى يستبين جلياً للقدرة المحدودة أن الإتيان بمثله ليس من المستطاع.

والإعجاز هي الظاهرة التي تختص بها قدرة الله (تعالى) في كل ما تصنع،

١ــ بني إسرائيل: ٩.

وفي كل ما توجد، فلا تصنع إلا معجزة، ولا توجد إلا آية ..

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(١) ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللهِ (٢) ﴾.

من هذا التراب الواطئ الحقير الذي نستهينه ونطؤه بالأقدام، ونضرب بضعته الأمثال.

من هذا التراب أنشأت القدرة مخلوقاً فكبّر الكون وسبّحت الأشياء، وسجد الملائكة كلّهم أجمعون.

ومن هذه الحروف الميسورة لنا أن نركّب منها ما نريد، وندلّ بها على ما نريد، ونتفننّ في تركيبها، وفي الدلالة بها كما نريد.

من هذه الحروف التي ننطق بها دون كلفة، ونتفاهم بها دون عسر، ونتنافس في الإفصاح بها دون عناء.. من هذه الحروف يوحي الله كلاماً، وينزّل كتاباً، فتطأطأ له الهام، وتخضع له الأعناق، وتذهل له الألباب.

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القُرْآنِ لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْراً (٣) ﴾.

١ــ يوسف: ١٠٥.

٢ــ الرعد: ٣٨.

٣ــ الإسراء: ٨٨.

نحن وذكرى ليلة القدر

هــــذه هي ذكرى ليلة القدر -أيها الاخوة- وهذه هي ذكرى القرآن، فما موقفنا نحن المسلمين منها ؟

فهل نكتفي بتعداد فضائل الليلة ووجوه إعجاز الكتاب، ثم نفترق وكأننا صنعنا لإيماننا ولكتابنا ولدعوتنا كلّ شيئ ؟!

إن كِتابــنا -أيهــا المسلمون- يدعونا للعمل فهل نحن عاملون ؟ وهل نحن جادّون أم هازلون ؟

هل نملأ الفراغ العقائدي الذي تقاسيه ناشئتنا وشبابنا ... بل وشيوخنا وكهولنا ؟

وهل نطبّق مناهج الله (سبحانه) على واقعنا المؤسف، فنشفي بها عللاً ونصلح زللاً ؟!

هل نبلّغ دعوة الله وهدى كتابه كل ذي سمع ممن حولنا، وكل ذي قلب ؟! انهــا أمانة الله في رقابنا — أيها الاخوة — فهل نحن جادّون في أدائها أم متكاسلون ؟

﴿ وَقُــلْ اعْمَــلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُوْلُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١] ﴾.

وصدق الله العظيم.

١ــ التوبة: ١٠٥.

القرآن والترجمة[1]

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نورٌ وَكِتَابٌ مَبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُــبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيْمٍ[2]﴾.

من الله نور وكتاب مبين

بهــذه الصيغة اللافتة، وبهذا التوصيف المغري، يقدم الله كتابه إلى الناس في هاتين الآيتين الكريمتين.

نــورٌ يهدي من ظلام، وإبانةٌ تنقذ من حيرة، وهدايةٌ تبلغ بالمرء سبيل السلامة ونهج الاستقامة.

مــن الله بــارئ الــنور والظلام، وربّ الحرب والسلام... من الله — سبحانه - مصدر هذا النور الهادي، ومنبع هذا الرواء الهانئ...

« مــن الله »... وهــذا هو الضمان الأول لبلوغ القصد، وأي مدى وضع الله -جل وعلا- الخطة لتنيله فلم يُدرَك و لم يُستطَع ؟

« يهدي به الله من اتبع رضوانه »... وهذا هو الضمان الثاني للغاية.

١ــ كتبت مقدمة لكتاب (القرآن والترجمة) للأستاذ عبد الرحيم محمد علي.

٢ــ المائدة: ١٥-١٦.

ولو أنه أتى بضمير الفاعل في هذه الجملة لوفّى كذلك بالمقصود، ولكنه يصـــرّح باسم الله تسجيلاً للضمان، وتطميناً للقلوب... فالضامن هو الله، والهادي هو الله أيضاً، ومن أحق من الله بأن يفي بما ضمن ؟، ومن أملك منه بأن يُوصِل إذا هدى ؟!

وهداية الله هذه التي يتكفل بها لخلقه لامذلة بها على المهتدي ولا مهانة، ولا جبر في معناها ولا اضطرار.

إنهـــا ليست كدلالة الأعمى الذي لا يبصر، ولا كقيادة البهيمة التي لا تعقـــل، ولكـــنها هداية توجيه وتشريف، سبيلها الاختيار، ومنطقها التعقّل والموازنة، وهدفها السلامة والكرامة.

« يهـــدي بـــه الله من اتّبع رضوانه » ... هؤلاء هم الذين حقت لهم الهداية، الذين عرفوا ربهم، وتبيّنوا مناهج رضاه.. عرفوا ذلك بملء شعورهم، وبمـــلء عقولهـــم، ثم ساروا إلى تلك الغاية لا يألون جهداً، ولا يحيدون عن قصد.

سبل السلام:

« ســـبل السلام » ... والسلام الذي يستهدفه الله في كتابه، ويهدي إليه من اتبّع رضوانه هو هذا السلام المديد الشامل الذي يبدأ -أول ما يبدأ- بـــنفس المـــرء، فيشمل كل آفاقها وكل اتجاهاتها، ثم يرتقي صعداً حتى يعمّ المجموعة الكونية التي تمدّ الإنسان بالحياة، وترفده بكل شؤونها.

هــذا السلام المستوعب، المتراصف في مناهجه، المتداخل في حلقاته، الــذي يــتوجّه إلى عقــل الإنســان -قبل أية ناحية منه- فيعمره بالعقيدة الصحيحة، ويثبّته بالبرهنة الناصعة، ويملؤه بالسلام، فلا تردّد ولا حيرة، ولا غموض ولا اضطراب.

ثم إلى الضــمير.. إلى هــذه القــوة الغريزية المسيطرة على أفعال المرء وسلوكه، والحاكمة على أخلاقه وصفاته...

ويمــتدّ إلى غرائز النفس وقواها، وإلى اتجاهاتها ومنازعها، وإلى مبادئ الإرادة ومبادئ الخُلق.

يمــتد إلى هــذه الأطراف كلها فيوفّي حق كل ذي حق منها، ويصدّ عدوان كلّ ذي عدوان، ويرفع ألوية السلام، ويشيع روح الطمأنينة، فلا أَثَرَة ولا بغي.

وإذا أقام السلام في نفس الفرد على هذه الأسس وبهذا الشمول، فقد أقام السلام في المنــزل، والسلام في الأسرة، والسلام بين الأفراد، ثم السلام في المجتمع المسلم، وفي المجتمع البشري، وأخيراً في المجتمع الكوني، وأي منحى مــن هــذه المناحي لا يكون مجالاً للذبذبة والاضطراب إذا تدخلت في أمره أهــواء الإنسان، وتحكّمت فيه مشتهياته ؟.. وأي منحى من هذه المناحي لا يفتقر في إصلاحه إلى تأسيس دعامة للسلام ؟

وهذا السلام يفتقر إليه المجتمع البشري في شتى نواحيه، ويضطّر إليه في جميع اتجاهاته، يفتقر إليه أبداً مادام للشك منفذ يهدّد اليقين، وللذبذبة مدخل يزلزل السكينة، وللخوف مسربٌ يقلق الأمن، وللهوى غشاوة تلبس الحق.

وهذا السلام لا يملك وضع مناهجه وتمهيد سبله إلا الله... لا يملكها إلا الله بارئ الإنسان، ومنشئ غرائزه، ومدّبر قواه، وعالم سرّه وعلانيته... الله وحده يملك أن يضع مناهج هذا السلام، وهو وحده يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام.

يخرجهم من الظلمات إلى النور:

« وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». وهذان ضمانان آخران يحتويهما هذا القول الكريم، وهما نتيجتان طبيعيتان لصفة الكتاب التي قدّمها في أولى الآيتين.

« قد جاءكم من الله نور » ... والنور يخرج متبعيه من الظلمة..

ونور الله هذا ليس محدود الأثر كالضوء، فلا يكشف إلاّ ظلمة الغسق، بل ينير الظلمات كلها.. ظلمات العقيدة الباطلة، وظلمات الهوى المضلّ، وظلمات العمل السيّئ والخلق الردئ، وظلمات الأَثَرَة الخائنة والجور الظالم، وكل ظلمة تغشى العقل، وترين على القلب، وتعكّر صفو الحياة، وتوحش سبيل السلام.

وإذا كان القرآن نوراً يهدي من ظلمة، مُبيناً ينقذ من حيرة، فهو لا محالة مستقيم المسالك، مأمون العثار.

بهذه الصيغة المغرية وبهذا التوصيف اللافت يقدّم الله للناس كتابه الكريم في هاتين الآيتين.

ولم لا يكون كذلك ؟

أليس هو البرهان الخالد للشريعة الخالدة ؟!

أليس هو النصّ الكامل للنظام الكامل ؟!

ثم، أليس هو البقيّة الباقية من معاجز الأنبياء، والحجة القائمة من كتب السماء ؟!

المعجزة الخالدة:

بلى، فقد شاءت الحكمة أن تقرن أتمّ شريعة بأتمّ معجزة، أتمّها في الوجه، وأجداها في الهداية، وأشملها في العموم، وأدومها في البقاء، وإذا كان الإسلام دين الله لا يقبل من أحدٍ ديناً سواه، فلابد وأن تكون حجته بهذا الإشراق، وبهذه الهداية، وبهذا الشمول والخلود.

لابدّ وأن تكون كذلك، وإلا لكانت حجة بتراء لا تفي بالحاجة، ولا تتفق والحكمة.

وإعجاز القرآن ليس في بلاغته فقط، ولو انحصر إعجازه بالبلاغة لما نهضت به حجة على غير أهل اللسان، إلا أن ينتقل العرب معه إلى كل قطر وإلى كل بيئة، يقرّون لهذا الكتاب بالإعجاز ويشهدون له بالتفوّق.

والقرآن كتاب معنى وهداية قبل أن يكون كتاب بلاغة وبيان، ولو أننا حصرنا الإعجاز في بلاغته وحدها لكنا قد خصّصنا إعجاز القرآن في أدنى نواحيه، وصرفناه عن أعلاها.

والقرآن كتاب يحوي نظام الله الذي وضعه لتدبير حياة هذا الكائن، وشريعة الله التي جعلها لتعيين وتنظيم علائقه، والظاهرة الأولى لأنظمة الله في

جميع مصنوعاته، أنها تُعجز المجتمع البشري عن مجاراتها مهما أوتي من حول، ومهما تقَدّمت به المعْرفة.

إعجـــاز القـــرآن ليس في بلاغته فقط، ولكن البلاغة هي المدخل العام للقلوب التي كانت تحيط بدعوة القرآن حينذاك.

بـــلى، كانت بلاغة النص شيئاً تشتاقه هذه القلوب، فكان من الحكمة أن تدخل عليها دعوة الإسلام من هذا الباب.

أقـــول: إعجاز القرآن ليس في بلاغته فحسب، ولكنه معجز في جوهر دعوته، ومعجز في طرائق عرضها، ومعجز في إقامة البرهنة عليها، ومعجز في وجـــوه الحكمة منها، ومعجز في أشياء كثيرة لا يحيط بها إحصاء، وإذا فات غـــير العـــربي نوع واحد منها فلن تفوته الأنواع الأخرى، أما تفاصيل هذا المجمل فلا يتّسع له نطاق كلمة وإن أطنب فيها صاحبها.

الآراء في ترجمة القرآن:

وهـــذا الشموخ في بلاغة القرآن وهذه العظمة في أساليبه، هما السبب في تعارض الآراء حول ترجمته.

إذا كـــانت دعـــوة الإسلام شاملة لجميع الناس، وإذا كان القرآن هو لسان هذه الدعوة الناطق، وبرهانها المنير، ونظامها الجامع، فكيف لا تسوغ ترجمته لمن لا يفقه لغته من الناس ؟ بل وكيف لا تجب ؟

وإذا كـان هـذا الكتاب الكريم وراء الحدود الممكنة للبلاغة، وفوق الأسـاليب المقدورة في البيان، فكيف تملك أن تمثّله ترجمة؟، وكيف يستطيع أن يحدّه مترجم ؟

تعارضـت الأقوال في ذلك ولكلٍ وجهةٌ هو مولّيها، ولا يهمني هنا أن أستعرض الآراء وأناقش الحجج، لا يهمني ذلك ما دامت هداية القرآن يمكن نقلها بالتفسير.

وإذا كانت الترجمة موضعاً للخلاف فإن التفسير غير العربي سائغ عند الجميـع، والمفسّر يحتفظ بنص الكتاب كاملاً من غير تصرّف، ثم يدون ما يحيـط بـه ذهـنه من صنوف الهداية، وما يبلغه تتبّعه من ضروب التفسير، ووجوب الشرح.

وطبيعي أنّ المترجمين لا ينتظرون فصل هذه الخصومة بين الفقهاء .

فقـد عكفـوا عـلى الـترجمة غير آبهين، وطبيعي كذلك أن تتنوع الـتـراجم، وأن يتـنوع المترجمون في النفسيات، وأن تتنوع الغايات التي يقصدونها من وراء هذا الجهد.

طبيعي أن يتصدّى لترجمة القرآن رجال مسلمون مختلفون في الإحاطة، ومختـلفون كذلك في الفَهم والآراء، فيهتمّ فـريق بشـؤون اللّفظ، ويفوته الكـثير أو الأكـثر من بدائع المعاني، ويتجّه فريق إلى ناحية المعنى، فيهمل الخصـائص المهمـة الـتي توحي بها الألفاظ، والظلال الشفيفة التي ترسمها التراكيب والأساليب...

.. وأن يتصـــدى لترجمته رجال غير مسلمين، فينصف بعضهم دعوة الإســـلام فيـــتحرّى الصحة، ويتوخّى الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويكيد لها آخرون فيدسّون ويحرّفون ويقولون ويتقوّلون.

طـــبيعي أن يحدث كل هذا ما دامت للقرآن قدسيته عند هذه المجموعة الكبيرة من البشر، ومادام له هذا الأثر البالغ في ثقافتهم، وفي تلوين حياتهم، بـــل ومادام القرآن هو الكتاب الذي غيّر وجه التأريخ، وقلب أنظمة الحياة، وعدّل سلوك البشرية.

نعـــم؛ كثرت التراجم، وتنوّعت، وكثر المترجمون، وتنوّعوا، وموقف الفقهاء مايزال هو موقفهم الأول في الاختلاف والحجاج، ونظراتهم لاتبرح هـــي نظـــراتهم الأولى في الإباحة والمنع. لم يضعوا للأمر الواقع علاجاً، ولم يـــتخّذوا له أهـــبة، ولـــئن كانت الترجمة محظورة لأن القاصرة منها محرمة، والكاملة مستحيلة.

أقـــول: لـــئن كـــانت الترجمة محظورة، فهلا نلجأ في نشر كتابنا إلى التفسير، إلى تفسيره بأي لغة نودّ ترجمته إليها ؟

أليس في هذه الطريقة ما يغنينا عن الترجمة؛ ويبعدنا عن الإشكال ؟!

القرآن والعِلم والإيمان[١]

في القرآن دعوة حثيثة إلى العلم يجدها القارئ المتدبّر في آياته..

دعـــوة حثيـــثة إلى العلم بجميع فروعه، وبجميع اختصاصاته، وبشتّى اتجاهاتـــه. وهو يفتنّ في أساليب هذه الدعوة، ويفتنّ في الحث عليها، ويكثر من تكرارها، وتكرار الحث عليها حتى لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته عن ذكرها مرة واحدة على أقل التقادير.

وهو – في أكثر المواضيع- يعقد ما بين خطوات العلم وعقائد الإسلام الكـــبرى، ويتخذ من أقوال العلم الكوني –في شتى ميادينه- على ثبوت هذه الحقائق أدلة قوية لا تقبل التشكيك.

فما معنى ذلك ؟ وما مدلوله ؟

أليس معنى ذلك أن الإسلام والقرآن يوقنان بأن العلم مؤمن لا ريب في إيمانـــه، وداعيـــة إلى الإيمان لا ريب في دعوته ؟: العلم الكوني بجميع شُعبه وجميع فروعه، لا فرق بين فرع وفرع، ولا بين اتجاه واتجاه.

بلى، هذا هو مدلوله الصريح لا خفاء فيه ولا لبس.

١ـــ كتبت مقدمة لكتاب (القرآن والأحوال المناخية) للأستاذ محسن عبد الصاحب المظفر.

هل العلم مُلحد ؟

وشـــاعت في الغرب وبين مقلّدة الغرب –من الشرقيين– قولة أخرى تخالف ذلك.

ومن الحقّ أن نقف عند هذه الشائعة؛ لنعرف مبلغها من الصواب.

.. قولة ترمي إلى أن العلم ملحد ولا ريب في إلحاده، وقد فشت هذه الشـــائعة –عـــلى مـــا يبدو– منذ القرن التاسع عشر، وعند ظهور الفلسفة الوضـــعية الـــتي أنكرت أن يكون للمعرفة الحقيقية سبب صحيح غير الحس وغـــير التجربة، وأنكرت –تبعاً لذلك– وجود أي شيء غير المادة، فكل ما وراء المادة في رأي هذه الفلسفة وهْم وخداع.

وكـــان العـــلم الكوني قد اختطّ لنفسه نظير هذه الخطّة.. خطّة أن لا يؤمن –في مجالاته الكونية– إلاّ بما يُثبته الحسّ، وتشهد به التجربة.

اختطّ لنفسه هذه الخطّة لا لينكر وجود ما وراء الحس وما وراء المادة –كما صَنعت الفلسفة الوضعية–، بل لأن الأمانة العلمية تفرض عليه أن لا يؤمن بنتيجة ولا نظرية حتى تتخذ لديه صبغة اليقين، والسبيل الوحيد الذي لا ريـــب فيه ولا تردّد بعده –في المجالات المادّية: في مجالات العلم الأصيلة– إنما هو الحسّ، وإنما هي التجربة.

وسار العلم على خطته هذه، سديد الخطى مأمون العثار.

ولم يـــبحث العـــلم فـــيما وراء المادة في يوم من الأيام، لأنه ليس من مجالاتـــه، ولم يـــبحث فيـــه لأنه لا ينال بوسائله، ولا يدرك بمراصده ولا بمختـــبراته، والذي جحد ما وراء المادة هي الفلسفة الوضعية، والذين أصرّوا

عـــلى هـــذا الجحود وغلَوا فيه هم الفلاسفة الوضعيون، وبانتشار المذهب الوضعي انتشرت القولة الآنف ذكرها.

ومكّـــن لهـــذا القول، ومهّد لانتشاره حقد انطوى عليه الضمير الغربي عـــلى الكنيســـة وعلى أعمال رجالها، ونقد تألّب عليه رجال العلم ورجال الفلســـفة لمعارف الكنيسة وتعاليمها، فكانت نزعة الإلحاد، وكان شيوعها وانتشارها.

وعـــلى أي حـــال فـــلم يُلحد العلم في يوم من الأيام، ولكن الفلسفة الوضعية هي الملحدة.

.. لم يبحث العلم فيما وراء المادة -كما قلت فيما تقدم- لأن ما وراء المـــادة ليـــس مـــن مجالاته، ولم يبحث فيه لأنه لا ينال بوسائله، ولا يُدرك بمراصـــده ولا بمختبراته، ولكنّ العلم لم يُلحد كذلك في يوم من الأيام، ولن يأتي اليوم الذي يلحد فيه أبداً.

ذلك أن العلم يملك -وراء أدواته ووسائله- فطرة سليمة، ويملك عقلاً جباراً..

وفطـــرته الســـليمة هي التي أوجبت عليه أن لا يؤمن حتى يستيقن.. وبفطـــرته السليمة أدرك أن التجربة الحسّية في شؤون المادة -وهي وحدها- ســـبيل اليقـــين. ولـــولا فطرته السليمة لم يهتد إلى إثبات ذلك، لأن الحسّ والتجربة لا يثبتان ذاتهما.

وبالعقل الجبار الذي يملكه علم أنّ كل حادث لابدّ لوجوده من سبب، فـــلا شيء يَحدُث من لا شيء.. وبهاتين الوسيلتين -طريق التجربة وقانون

السببية- أحرز ما أحرز من فوز وأصاب ما أصاب من فتوح.

وبفطرته السليمة وعقله الجبار أدرك أن وراء كل موجود من أشياء هذا الكـــون موجداً، وأن وراء كل حركة فيه محرّكاً، وأن وراء كل حكمة من الحِكَم التي تشهد بها أنظمته مدبّراً.

وبفطـــرته وعقلـــه أدرك أن لهذه الفطرة، ولهذا العقل، وهذا الذكاء، والـــنـــزعة القويـــة للاستكمال، وقوة الجلد ودقة الملاحظة، وخلّة المصابرة والمثابرة.. أن لهذا الرصيد النفسي الذي يملكه، ويعتزّ به، ويفتح به الكنوز، ويذلّل به الصعاب، ويكشف به النقاب.. أدرك أن لهذا الرصيد النفسي واهباً منعماً، يجب شكر نعمته.

وأنـــه حيثما اتجّه من أنحاء هذا الملكوت، وأينما نظر من هذه الآفاق، وأيـــاً اكتشف أو استنتج أو علّل من أسرار الوجود وظواهره، فهو إنما يتلو آيات الموجد العظيم، ويتفَهّم شواهد حكمته، ودلائل رحمته.

أدرك العلم كل أولئك فآمن ولم يرتب، ودعا إلى الإيمان ولم يتردد.

نعم، دعا إلى الإيمان كل ذي بصر وبصيرة.

أما أن يعمد أحد فيفتح بصره ليرى آيات الملكوت، ثم يقفل بصيرته فلا يعتبر بهذه الآيات، ولايستمع لنطقها ولايتدّبر دلالتها..

أما أن يرى الأثر ثم يقول: ليس لهذا الأثر عين..

أما هذا فلا حيلة للعلم ولا للعقل معه، وليس من المستحيل بل ولا من الغريب أن يكون بعض الناس عالم الحسّ جاهل البصيرة.

ولكن موضع الغرابة أن يُلحد مثل هذا، فيقال: قد ألحد العلم !!

أزلية المادّة:

وفكرة الإلحاد إنما يقوم بها فرض واحد:

فرض أن تكون المادّة وقوانينها أزلية لا أوّل لوجودها، وأنها -من أجل أزليتها- مستغنية عن سبب موجد، ولنغضِ -ها هنا- عما يقوله العقل في هذا السبيل.

هذا الفرض وحده هو الذي يقوم عليه بناء الإلحاد، وقد تعلّق به الملحدون، وتفنّنوا في تصويره.. فماذا قال لهم العلم في ذلك ؟

أثبت لهم أن قوانين (الديناميكا الحرارية تدلّ على أن مكوّنات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلى يومٍ تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة، ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضيّ الوقت [1]..).

وإذن، فالمادة ليست أزلية يقيناً، لأنها لو كانت أزلية لكانت الحرارة قد انخفضت، والطاقات قد انعدمت، والحياة قد استحالت منذ أمد بعيد بمقتضى هذه القوانين.

ثم ماذا ؟

.. ثم اضطروا لإتمام هذا الفرض حتى يقوم بناء هذا الكون، وحتى

١ــ يراجع كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).

يستقيم هيكل هذه الحياة..

.. اضطروا إلى القول بالمصادفة، وإلى القول بالمصادفة أكثر من مرة..

فماذا قال لهم العلـــــم ؟

أثبت لهم -بلغة الأرقام- أن بناء جزيء بروتيني واحد بطريق المصادفة -هذا الذي يشيرون إليه- من المحال.

فماذا وراء ذلك كله ؟..

هـــذا العـــالم ليـــس أزلياً، لأن قوانين الديناميكا الحرارية تدلّ على حدوثـــه.. ولا مساغ للمصادفة في حدوثه ولا في بنائه، فلغة الأرقام تشهد بأنـــه من المحال، ولا شئ يحدث من لا شئ . فمنطق الفطرة، ومنطق العقل، ومنطق العلم يثبت ذلك. وما من شئ في هذا الكون إلا وهو يشهد بحكمة، ويشـــهد بعـــلم، ويشهد بإحاطة قدرة وشمول رحمة .. وبكل هذا يعترف العلماء المستنيرو البصائر.

المناخ نبع من آيات التكوين:

والمـــناخ ملتقى لنتائج عديدة من مقررات علوم شتى.. نظر كل منها نظراته، وقرر نتيجته..

والـــتقت النـــتائج وتفاعلت على صعيد الأرض وفي طبقاتها، وفي الجو الذي يحيط بها، وفي الماء الذي يختزن في أعماقها، أو يجري على وجهها، أو ينـــزل من السماء عليها، فكان المناخ وكانت لوازمه وآثاره.

وكـــان التقاء هذه النتائج وتفاعلها نبعاً جديداً من آيات الكون الدالّة على الموجد القادر الحكيم، يتلوها العلم فيما يتلو من آيات، ويتفهّمها فيما يتفّهم من شواهد.

وقـــد ذكر القرآن أن هذا النوع من الآيات الكونية وحث على التدبّر فيـــه، والاعتـــبار به، واستجلاء مواضع الحكمة منه، وتبين آثاره القدرة في صنعه.

﴿ سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيْدٌ [1] ﴾.

١ــ فصلت: ٥٣.

نحن وذكرى الرسول (ص)

كلمة عاتبة:

أخـــذت الـــيراع بيدي لأملي عليه من أحاديث الذكرى كما عوّدته وكمـــا عـــوّدني، فانـــتفض من محاولتي واضطرب وقال: أمحاباة في ذكرى الرسول، ومجاملة مع الحق؟

فأسكتني لأنني علمت أن الحق ما يقول، وأقسم عليّ أن أرسلها كلمةً عاتـــبةً موجّهـــة، تتضـــمن اعترافاً بالتقصير في الذكرى، وفي حقّ صاحبها العظيم.

سنقول: إنها ذكرى النور، وسيردّد بعضنا قول أحمد شوقي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء

والحـــق هـــو ذلك، ولكن ماجدوانا –نحن– إذا كنا نُطْبق أعييننا عن النور لنسير في الظلام؟!

وســـنقول: إنهـــا ذكرى الهدى الذي عمّ، والرشد الذي انتشر وشمل الأقطار.

وإن الحـــق هو ذلك، ولكن ما انتفاعنا –نحن– إذا كنّا نوقِر أسماعنا، ونقفل أفئدتنا لنعيش في تيه؟!

وســـنقول: إنها ذكرى الحق الذي وجّه الحياة، وقاد الركب، وأنقذهما

وأبعدهما من الأخطار، ووضع عنهما الآصار والأوزار.

وإنه الحق الذي لاريب فيه، ولكن ما فائدتنا -نحن- إذا لم نُسلس أزمَّتنا للقائد، ولم نساير الركب، ولم نتّبع الرائد، ولم نكترث للنذير، فانحرفنا مع المنحرفين، أو قلنا كما قال الأولون: ﴿ ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ القَاعِدِيْنَ [1]﴾ ؟؟!

أليست هذه سيرتنا -أيها الأعزاء-، لنقلها صريحة لانخادع فيها أنفسنا، فإنّ الحق لايخادَع ولا يجامَل. فما بالنا نجدّد الذكرى صورة، ولا نجدّدها معنى؟!

ما بالنا نجدد الذكرى وقد أخلقنا أثرها في قلوبنا، وعفّينا على رسومها في سلوكنا؟!

لنحاسب أنفسنا:

لنحاسب أنفسنا حساب الغريم، إذا كنا جادّين في القول، لنتبين الأخطاء، فإن تبيّن الأخطاء أول عمليات التصحيح.

ليحاسب كلّ فرد منا نفسه حساب الغريم، لنتبيّن مدى التناقض بين ما نعمل وما ندّعي، وما نسلك وما نزعم، والمناقضة سبيل لايرضاها عاقل لنفسه، وهو يرى أنه من العقلاء.

ليحاسب كل فرد منا نفسه حساب الغريم ليصحِّح أخطاءه، ويقوّم سيرته، ثم لنعتزّ بعد ذلك بأننا من أتباع محمد (ص)، ومن مجدّدي ذكراه،

١ـ التوبة: ٨٦.

ولنقول بحق وصدق متطابقين: إنها ذكرى الهدى الذي ائتلق، والنور الذي انبثق، والمعين المبارك الذي طهّر القلب، والروح المقدّس الذي زكّى النفوس، والبرهان المنير الذي جلّى العقول، والرشد الذي خفّف الآصار والأوزار.

ولنفهم على هذه الطريقة العملية الواقعية، وعلى هذا التفسير العملي الرشيد قوله (تعالى):

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِيْنٍ[١] ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِيْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيْلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَالأغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوْهُ وَنَصَرُوْهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ [٢] ﴾.

لنرجع إلى قائمة أعمالنا فنعرضها واحداً واحداً على الميزان الذي جاء به محمد (ص)، فنشجب منها ما كان خفيفاً في ميزان الحق، ونثبّت ما كان تام الوزن ثقيله، ألم يقل سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ [٣] ﴾.

١ـ آل عمران: ١٦٤.

٢ـ الأعراف: ١٥٧.

٣ـ الحديد: ٢٥.

فاعلية العقيدة:

وأوّل القائمة التي يجب أن نضعها في الميزان هي العقيدة..

إن محمداً (ص)، وكتاب محمد، وميزان محمد -أيها الأعزاء- يريد أن تكـــون عقيـــدة المسلم حيّة قوية عاملة نابضة بالحياة، تدفعه إلى الخير دفعاً، وتصدّه عن الشر والسوء صدّاً..

إنـــه يريد من العقيدة أن تكون قوية فعّالة، تحاكم الإنسان في أعماله وسلوكه ومعاملاته، فما وافقها صحّحته، وما عارضها أبطلته وحكمت عليه بالعدم، وعلى إرادة المسلم أن تقوم بالتنفيذ، فهل لعقائدنا هذه الحياة وهذه الفاعـــليّة؟ أم أن عقائدنـــا ضـــعيفة واهنة قد أصيبت بالشلل، وعطّلت عن العمل، قد أصيبت بشلل النصف، أو بالشلل الكامل؟

لنقلها صريحة لانخادِع فيها أنفسنا، فإن الحق لايجامَل ولا يخادَع.

وأُوقن -حق اليقين- أن الجواب لايكون بالإيجاب.

﴿ يَاأَيُّهَـــا الَّذِيْنَ آمَنُوا اسْتَجِيْبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [١] ﴾.

اتباعنا لمناهج محمد (ص):

وثاني الأمور التي يجب أن نضعها في الميزان هو حديث المناهج.

إن محمـــداً (ص) -أيهـــا الأعزاء- بعث بالدين الجامع الذي لم يَدَعْ

١ـ الأنفال: ٢٤.

مشـــكلة ولا معضلة إلاّ وقد وضع لها حدّاً فاصلاً، وحلاً عادلاً، ولم يترك البشرية بحاجة إلى استجداء مناهج، واستسلاف نظم، ولم يدَعها تتخبّط في متاهة عمياء لا مناد فيها ولا دليل.

وكتاب محمد (ص) يقول: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ [١] ﴾.

ويقــول في آية ثانية: ﴿ مَاكَانَ حَدِيْثاً يُفتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيءٍ، وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [٢] ﴾.

ويقول في نصّ ثالث: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيءٍ، وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [٣] ﴾.

وقد آمنا بمحمد (ص) وبكتاب محمد، فهل سرنا مع هذه الحقيقة إلى نهاية الشوط، أم وقــفنا في منـــتصف الطريق، نستجدي المبادئ، ونتسوّل الأفكار يمينيّة أو يساريّة، ورأسمالية أو اشتراكية؟

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِــنْكُمْ إلاّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَومَ القِيَامَةِ يُرَدُّوْنَ إلى أَشَدِّ العَذَابِ. وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [٤] ﴾.

أقولُ هذا ولا أخصّ فئة معيّنة هنا أو هناك، ولكنه استفهام عن واقع، وتحديد لمسؤولية.

١ــ الأنعام: ٣٨.

٢ــ يوسف: ١١١.

٣ــ النحل: ٨٩.

٤ــ البقرة: ٨٥.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وثالثة الأثافي: حديث الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن محمداً (ص) - أيها الأعزاء - بُعث داعياً إلى الحقّ، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر.

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيْراً [١] ﴾.

وقد تلونا في آية آنفة الذكر في هذا الحديث قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ [٢] ﴾.

وقد جَعَل هذا المبدأ لزاماً على أمته: المجتمع منها والأفراد، فريضة محتومة بل وشعاراً ثابتاً، وحذّرها أشدَّ التحذير من تركه أو التسامح فيه، وجعله أحد الرباطات التي تشدّ المجتمع على الحق، وتنشئ أفراده على الهدى:

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [٣] ﴾.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

١ــ الأحزاب: ٤٦.

٢ــ الأعراف: ١٥٧.

٣ــ آل عمران: ١٠٤.

وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ (١) ﴾

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢) ﴾.

ونصوص الإسلام في بيان هذا المبدأ والتأكيد عليه أكثر من أن تحصر في موقف واحد. وقد علم المسلمون ذلك، وأقرّوا به، وأثبتوه، و لم يختلفوا فيه على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

فهل وقفنا من هذا الواجب وِقْفةَ المسلم الصحيح القويّ، الذي لاتمنعه عن قولة الحق غضبة غاضب، أو لومة لائم، أو اتّخذنا موقف الضعيف المداهن الذي يتطلّب الأعذار، ويستسلف الحجج ؟!

إنني أُوقن حق اليقين أن الجواب سوف لايكون بالإيجاب، وإلاّ فلماذا انهار المجتمع المسلم، وسرت في أوصاله وأعضائه الموبقات والمنكرات سريان الجراثيم في الجسم السليم، ولا وقاية ولا عناية ؟؟!

القيام بالقسط:

والصدق في المعاملة والقيام بالقسط...

إن الله (سبحانه) ذكر لنا في كتابه: أن القيام بالقسط صفة من صفاته العظمى التي تمدّح بها لبريّته، حيث قال (عز من قائل): ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ

١ـ آل عمران: ١١٠.

٢ـ التوبة: ٧١.

لا إِلَـــهَ إِلاّ هُـــوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ، لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ (١) ﴾.

وأبـــان لـــنا أن القيام بالقسط هو الغاية التي من أجلها أرسل رسله، وأنزل كتبه، ووضع شرائعه، فقد تلونا في آية سابقة في هذا الحديث:

﴿ لَقَــدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّــنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ ﴾.

وقد جعل ذلك فريضة محتومة على الأمة وعلى الأفراد، وأكد عليه أبلغ التأكيد.

﴿ يَاأَيُّــهَــا الَّذِينَ آمَــنُوا كُونُوا قَوَّامِيْنَ بَالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِــكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيْراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا، فَلا تَتَّــبِعُوا الهَــوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تُلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) ﴾.

فعلى المؤمن أن يكون قائماً بالقسط، صادقاً في المعاملة، موفيا بالعهد والعقــد، لايخون، ولايغشّ، ولا يخادِع، ولا يظلم، ولايغتاب، ولا يكون ذا وجهين وذا لسانين. وإلاّ فقد خان الله ونكث عهده وخان أمانته.

فمــا هــو موقفنا من هذا التشريع الإلهي المحمدي الحكيم؟ أُوقن حق اليقين أن الجواب سوف لايكون بالإيجاب.

١ــ آل عمران: ١٨.

٢ــ النساء: ١٣٥.

الأخوة المؤمنة:

والرّباط الإسلامي المقدس ...

إن ديـــن محمد (ص) -أيها الأحبَّاء- قد ارتقى بهذا الرباط إلى درجة الأخوة، وأثبته على قاعدة الإيمان بالله وبدينه، ومدّه من معين الحبّ في الله، وشدّه شداً وثيقاً لايُحَلّ ولا يُنكَث، وجعل الوفاء به من تَبِعات الإيمان ومن لوازمه، فقال:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [1] ﴾.

نعـــم، ولـــو علم الله أن كلمة أخرى أدلّ على معنى الارتباط، ومعنى الاشتراك، ومعنى التساوي من كلمة "إخوة" لجاء بها.

هـــذا هو الرباط الإسلامي المقدس ما بيننا، فما هو مدى استجابتنا، وانصياعنا مع هذا التكريم العظيم؟

هـــل استجبنا لهذه الأخوّة المشرّفة، وسرنا معها إلى أعماقها وأبعادها؟ وهـــل أديّـــنا لها واجباتها وحقوقها؟ أو هل أهّلنا أنفسنا لهذه الكرامة على أضـــعف التقادير؟! أم أننا ظلمنا التشريع، وظلمنا الأخوّة وظلمنا أنفسنا في موقفنا النابي الأسيف؟!

إن المـــرء منا يتجرّد من كل شيء قبل أن يجرّد أخاه لرغبة تقوده، أو لكـــلمة يتأوّلها أو لوهم يتوهمه، ثم يسير لا يلوي، وإن حطّم دينه، وليعلمنّ نبأه بعد حين.

١ــ الحجرات: ١٠.

إنه موقف مؤسف لايؤدي إلى خير.

الخلق الإسلامي:

والخلق الإسلامي الرفيع...

إن محمداً (ص) -أيها الأحبّاء- كان هو المثال المجسّد للخلق العظيم، وخلق محمد كان جزءاً مهمّاً للسبب في نجاح دعوته، وعلّو كلمته، وانتشار دينه، وقد بعث (ص) ليتمّم مكارم الأخلاق كما يقول هو (ص) في حديثه المعروف.

ونصوص الأخلاق الكريمة في الإسلام تزيد على الألوف، وفي القرآن الكريم آيات وافرة العدد تذكر لنا أرتالاً كثيرة من محاسن الأخلاق ومساوئها، تفرض علينا الحسن منها وتمنع القبيح، ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ [1] ﴾.

فما قدر انطباعنا على هذه التعاليم، وما قدر ترويضنا أنفسنا وإرادتنا وضمائرنا عليها؟! أم هي الرغبات والشهوات قائدة وسائقة، فما حسّنته فهو الحسن عندنا وما رفضته فهو القبيح؟!

لنحاسب أنفسنا حساب الغريم، فنصحّح أخطاءنا ونقوّم سيرتنا وأخلاقنا، ثم لنعتزّ بعد ذلك بأننا من أتباع محمد العظيم (ص)، ومن مجدّدي ذكراه، ولنقول:

١ــ الإسراء: ٣٩.

إنما ذكرى الهدى الذي أضاء النفوس، والمعين المبارك الذي طهّر القلوب، والبرهان الذي جلّى العقول.

ولتكون ذكرى محمد (ص) وذكرى الطّيّبين من آله (ع) ملاكاً لأفراحنا يوم يفرحون، ومناطاً لأحزاننا يوم يحزنون، ولنكون متطابقي السرّ والعلانية، والدّعوى والبيّنة، والقول والعمل.

إنما مجال عمل -أيها الأحبة- فلا يحسن منّا أن نكتفي بالقول، وذكريات العظام عظام الذكريات، ولا تجد الذكرى عظمتها إلاّ حينما نستعملها في هذا السبيل، فلنجدّ في العمل، ولنحقّق الغاية، والله معنا.

﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ [١] ﴾.

١ــ النحل: ١٢٨.

في ذكرى الرسول العظيم (ص)

من أحقّ بالتخليد من ذكراك؟

إذا كانت الذكرى لعظماء الرجال إشادة بما رسموا للأمم من مجد، وتخليداً لما أسّسوا وبنوا لهم من سؤدد، فمن أحقّ بالتخليد من ذكراك يا أبا الأمجاد، ويا مؤسّس العظمات، ويا ملتقى العبقريات؟

وإذا كانت ذكريات العظماء، تسجيلاً من الأمّة لفضلهم ووفاء منها بحقّهم، فمن أولى من حقّك بوجوب الوفاء، ومن أجدر من أياديك بوجوب التسجيل؟ يا فاتح الخير، ويا قائد البركة، ويا رائد الرّحمة وخازن المغفرة.

وإذا كانت ذمة للحق، وأمانة للتأريخ، على البشرية أن تؤدّيها، وأن تعتزّ بها، فمن أجدر بهذه الخصائص من ذكراك؟ يا دليل الحقّ، ويا مصدر العِزّ، ويا باني التأريخ.

وإذا كانت الذكرى تجديداً لميثاق الأمة لقائدها، وتوثيقاً لصلتها برائدها، وتوكيداً لعهده الذي أخذه عليها أن تتّبع خطوه، وأن تلتزم هداه، وتقتفي نهجه، فمن أحرى من ميثاقك بأن يُجدّد، ومن أحرى من أمتك بأن تشدّ صلتها بك؟ يا مصدر القوة ويا معدن العزة ويا رائد الكرامة.

وإذا كانت للاقتباس من سيرة بناة العظمة، والاقتداء بأعمالهم،

والاســـتمداد من أرواحهم، وقوة نفوسهم فمن أحق من سيرتك بأن تكون مـــنهجاً للقدوة، وموضعاً للاقتباس؟ ومن أجدر من روحك الكبيرة الكبيرة، ونفسك العظيمة العظيمة، بأن تكون مصدراً للوحي، ومنبعاً للفيض، ومدداً للعطاء؟؟

ذكـــرى النور ينبثق بين شعاب مكّة وبين هضابها، ثم يتألّق ويستعلي، ويـــتألّق ويستعلي، حتى يغمر مشارق الشمس، أو حتى يعمّ أرجاء الكون، وآفاق السّماء والأرض.

مـــن حِجـــر آمنة .. من بيت عبد المطلب بن هاشم .. من غُرّة ذلك اليتيم العظيم.

من غرّة ذلك اليتيم الذي افتخرت السماء أن تكسوه أول كسوة، وأن تقدّم له أول تحية، وأن تُهبط لاستقباله أول وفد..

مـــن غـــرّة ذلك اليتيم العظيم الذي حنّ له الحِجْر، واهتزّ له الحَجَر، ومادت له قواعد البيت، وانحنت له أركانه.

من غرّة ذلك اليتيم العظيم الذي تطلّع له الكون، وتطاولت نحوه الوهاد والهضـــاب، لـــترى الوجه الجميل الذي سيغيّر وجه التاريخ، وسيقلب نظام الدنيا، وسيوسّع آفاق الإنسانية.

وامـــتدت يدا عبدالمطلب بن هاشم إلى نافلته، ورفعه إليه يتبين فيه نور ولده الفقيد الحبيب:

« إن بين عينيه نور عبد الله يا آمنة .. ألا تنظرين؟ » .

لا.. لا! إنه نور النبوة .. إنه طابَع السماء على غرّة النبيّ الكريم.

لا.. لا يا آمنة، لاتبكي .. إن هذا الوليد لايستقبل بالدّموع.

وفتح الطفل عينيه في وجه جده ثم ابتسم.

وانحنى الشيخ الوقور وفي عينيه دمعة الذكرى، وعلى ثغره ابتسامة الحبّ، وفي قلبه خفقة الأمل، ثم طبع على فم حفيده قبلة الأب اللهيف، وقال – وهو يكفكف دمعة تغالبه-:

« بوركت في الولادة يا آمنة، وهنيت بالمولود، وجُبرت من الكسر، وسعدت في الحياة ».

وخرج ومعه ولده أبو طالب، وعلى ذراعه وليده يطوف به حول البيت، ويلمسه الأركان، ويعرضه على شعاب مكة وهضابها، وكأنه يبشّرها بقرب اليوم الموعود. ووجوه قريش تستقبله وتهنيه بالوليد الجديد، وعبدالمطلب باسم واجم يرى ما لايرون، ويسمع ما لايسمعون.

لم يكن عبد المطلب غريباً عن إرهاص النبوّة، ولا بعيداً عن أسرارها، فقد عرف من أخبارها الشيء الكثير الغريب..

الذكرى القرنيّة للرسالة والقرآن:

أيها الإخوة الأعزة، والأبناء النجباء..

يتيح لي التوفيق فرصة الحديث إليكم في هذه المناسبة الكريمة التي أخذت الشرف من أطرافه، وجمعته من جميع آفاقه، فهي ذكرى الرسول العظيم (ص) في ليلة ميلاده..

وهي ذكرى الرسالة العظيمة لمرور أربعة عشر قرناً كاملة على ابتداء

نزوله..

فرسالة الرسول (ص)، ونزول القرآن قد ابتدءا لثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، فإذا ضممنا ذلك إلى التاريخ الهجري للعام الحاضر كان ذلك أربعة عشر قرناً كاملة.. ومن أجل ذلك فجدير بالمسلمين أن يقيموا الاحتفالات العظيمة في شتى أقطار الأرض بهذه المناسبة الكبرى، وجدير بهم أن يجدّدوا ميثاقهم لرسولهم (ص) ولرسالتهم ولكتابهم.. وجدير بهم -وهم يمرون بأدقّ المراحل- أن يقبسوا من رسولهم ورسالتهم وكتابهم رسوخاً في الإيمان، وثباتاً في القدم، ومضاء في العزيمة، ومدداً من القوّة والعزّة والنصرة.

ولن يفيدوا ذلك إلاّ إذا عادوا إلى دينهم، يتعرّفون منه ما غفلوا، ويطبّقون ما أهملوا.

هذا هو الداء، وهذا هو الدواء -أيها الأحباء- فهل نحن سامعون ؟

والليلة -بعد ذلك كلّه- ذكرى ميلاد سيد الأمة، وسادس الأئمة، حفيد الرسول (ص)، وسادس خلفائه، الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) عام ثلاثة وثمانين للهجرة المباركة.

والحديث في كل واحدة من هذه المناسبات متّسع الآفاق ممتدّ الأطراف، لا يستوفي حدوده لسان قائل، ولا قلم كاتب..

حَسْبُ محمد (ص) عظمة:

أيها الأعزة..

حسْب محمد (ص) عظمة أن تختاره السماء لحمل أعظم دعوة، وأسمى

رسالة وأقوم شريعة، وأن تُنــزل على قلبه أعظم كتاب، وأجلّ وحي.

وحسْــب محمد (ص) عظمة أن تختاره السماء رسولاً للناس أجمعين، وإماماً للأنبياء المطهّرين ..

حسْب محمد أن يختاره الله –جل وعلا– لأعظم رسالة وأكبر دعوة.. بلى، وإنّ كِبَر الأمانة يدلّ على كِبَر الأمين، وعِظَم الاختيار يدلّ على عَظمة المختار ..

﴿ يَاأَيُّهَــا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً، وَدَاعِيَاً إِلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيْراً [1] ﴾.

﴿ لَقَــدْ مَــنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُوْلاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَــلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِيْنٍ[2]﴾.

هذه هي وظائف الرسول (ص) ومهمّاته يوضّحها لنا الكتاب الكريم..

« شــاهداً » عــلى الأمــة..عــلى البشــرية جميعهــا في حاضرها ومستقبلها..في أعمالها وسلوكها.. في مبدئها وغايتها.. « شاهداً » مرضيّ الشهادة غير مردود ولا مُتّهم، على البشرية جمعاء، فهو إذن أفضلها وأسماها جمعاء..هكذا وصفته السماء وقلّدته هذه المنــزلة و ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [3] ﴾.

١ــ الأحزاب: ٤٥-٤٦.

٢ــ آل عمران: ١٦٤.

٣ــ الأنعام: ١٢٤.

((ومبشـــراً ونذيـــراً))، والبشارة والنذارة سمتان للمرشد الحقّ، ما دام يحمل رسالة تُقبِل في ظلها السعادة، وفي تركها البوار والخسار.

((وداعيــاً إلى الله بإذنــه))، وإذن فدعوته مضمونة الصدق، مأمونة الهدى، لأنها بإذن الله (سبحانه)، والله لايأذن في غيّ، ولا يأمر بضلال.

وهـــو داع معصوم من الريب فيما يقول وما يعمل، لأنّ الله لايأذن له فيما هو محتمل للزيف، ومظنة للتغيير والتبديل.

((وسراجاً منيراً)) يُقتدى بفعله كما يُهتدى بقوله..

((ســـراجاً)) يـــنير كـــل ظلمة، ويبدّد كل شكّ، فهو فوق الأوهام والأحلام، لاترقى إلى أقواله شبهة، ولا تحوم حول أفعاله ريـــبة، مطهّر بإذن الله من كل أولئك.

وهذه -بذاتها- هي الأبعاد التي أشارت إليها الآية الكريمة الثانية..

((لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياتـــه ويـــزكيّهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة)) دعوة إلى الله -جل شأنه- بـــتلاوة آيات وتزكية نفوس، وإعلاء صفات بتربية وقدوة وتلقين مفاهيم، وتطبيق نظم ومناهج بتعليم كتاب وحكمة..

هذه هي وظائف الرسول الأولى، وما بعدها يرجع إليها.

حسْب محمد عظمة أن يختاره الله للرسالة الكبرى..رسالة الحياة الخالدة التي لاسعادة إلاّ بها، ولا كمال إلاّ في مناهجها.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِيْنِ الحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّه،

وَكَفَى بِاللهِ شَهِيْداً [١] ﴾.

﴿ وَمَــنْ يَبْــتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيْناً فَلَنْ يُقبَــلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِيْنَ[٢]﴾.

وحسْب محمد عظمة أن ينــزّل الله على قلبه كتاب الخلود، الذي تبيد القــرون، وتفــنى الآبــاد، ولا تتغيّر جدّته، ولا تهبط روعته، ولاتتضعضع منــزلته:

﴿ اللهُ نَزَّل أَحْسَنَ الحَدِيْث كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [٣] ﴾.

الكــتاب الــذي أعجــز المخــلوقين: أوّلهم وآخرهم –وإن اجتمعوا وتآزروا– أن يأتوا بسورة من مثله:

﴿ قُــلْ: لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْراً [٤]﴾.

الكــتاب الــذي صدّق الأنبياء، وأثبت نبوّاتهم، وأثبت صدق كُتبهم ومعجــزاتهم، ولــولا القرآن لكانت جميعُ النبوّات والمعجزات حقاً مَخفيّاً، ونسياً منسيّاً، إذ لادليل في أيدي الناس يعضدها غير هذا الكتاب العظيم.

١ــ الفتح: ٢٨.

٢ــ آل عمران: ٨٥.

٣ــ الزمر: ٢٣.

٤ــ الإسراء: ٨٨.

وحسْـــب محمد عظمة أن يختاره الله لقيادة البشر أجمعين.. مَن تَقَدّم منهم ومـــن تأخـــرّ.. زعيماً يخضع لأمره كل زعيم، ومُصلحاً يقبس من رشده كلّ مصـــلح، ومشـــرّعاً ينهل من عِرفانه كل مشرّع، وعقلاً يمدّ بإشراقه كل عقل، ونفســـاً تفيد من زكاتها وطهارتها كل نفس، وعبقرية تستظل تحت جناحها كل عـــبقرية، وعظمة تفنى وتذوب في ساحتها كل عظمة، ورحمة يتفيّأ ظلالها كل صغير وكبير..فهو ملتقى كل كمال، ودليل كل هدى، وباب كل خير: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُوْلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيْزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيْصٌ عَلَيْكُمْ، بَالْمُؤْمِنِيْنَ رَؤُوفٌ رَحِيْمٌ (١)﴾.

أمّـــا الإمام أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادق (ع)، الذي تشرّفت بولادته ليلتنا المـــباركة، وذكرانا السعيدة، فحسْبه أن يكون هو الممثل الصادق لعظمة جدّه (ص)، وأن يختار الله –سبحانه- سادساً لولاة عهده ..

.. أن يكـــون أحد الأمناء على وديعة محمد (ص)، وأحد المصطفين لقيـــادة البشـــر : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْـــطَفَى آدَمَ وَنُوْحاً وَآلَ إِبْرَاهِيْمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِيْنَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ(٢) ﴾.

وصدق الله العظيم.

١ــ التوبة: ١٢٨.

٢ــ آل عمران: ٣٣.

ماذا يدركون من عظمة محمد (ص)؟!

الإنسان أعجز من أن يصف محمداً (ص):

طمع كثيرون من كُتّاب السير وأدباء التحليل أن يضعوا صورة جامعة تحيط بجوانب العظمة من شخصيّة الرسول (ص)، أو بأكثر الجوانب منها، وجهدوا أن تكون الصورة صادقة تمام الصدق، مطابقة كمال المطابقة، تخيل لمن قرأ أو استمع أنه يشاهد، وتبدي لمن غاب كأنه حاضر.

وطفقوا يرسمون الخطوط، ويدققون الملامح، وينتقون الألوان، ويجمعون الشوارد والشواهد، مما يرون ومما يسمعون، ومما يخالون ويتصوّرون، والحقائق بمنأىً عن هذا الجمع العامل الكادح، تعجب لهم أن يحاولوا تعريف مالا يعرفون، وتمثيل مالا يدركون.

ماذا يدركون من عظمة محمد (ص) إلاّ بمقدار ما تدرك الأبصار من ضوء الشمس المنيرة، وبمقدار ما تقبس الأشياء والأحياء من إشعاعها وعطائها؟ تفيدهم من نورها، وتفيدهم من طاقاتها، وتفيدهم من حرارتها، وتمدّهم بسرّ الحياة، وشرط البقاء، أما سرّ العظمة في الشمس فهو فوق متناول الأيدي والعيون، وفوق مناط الأخيلة والظنون؟!

ماذا يُدرَك من عظمة محمد (ص) إلاّ قدر ما يشير الناقص إلى مصدر كماله، وحسَب ما يتوجّه المضطر المحتاج إلى موضع ضرورته وسداد فاقته؟

ماذا يدركون من عظمة محمد (ص) إذا كانت حدود هذه العظمة هي حدود الإنسانية العليا، ليس وراءها مرمى، وليس بعدها مرتقى؟

مـــاذا يدركون من عظمة محمد (ص) إذا كان محمد هو المَثَل الصادق الكـــامل للإســـلام بمـــنهجه العظيم العظيم، وبغايته الرفيعة الرفيعة، وبعدله الشامخ الأعلى؟

مـــاذا يدركون من عظمة محمد (ص) إذا كان هو المثل الأعلى الذي اخـــتارته الســـماء لأهل الأرض كافّة أن تقتبس من هديه، وأن تستمد من روحـــه، وأن تستضيء بنوره، وأن تستكمل من إيمانه، وأن تصوغ نفوسها وقلوبها على هداه، وأن تقتدي به في عمله وجهاده؟

مـــاذا يدركون من عظمة محمد (ص) ما دام محمد يرتفع ويرتفع كلما كشف الزمن جانباً جديداً من جوانب العظمة في دين محمد، وكلّما صدّق العـــلم وصدّقت المشاهدات والملاحظات آية من كتاب محمد (ص) وكلما استبان للعالمين قصور نظم الدنيا كلها أمام نظام محمد؟

ما أقصر الكَلِم أن تحيط بمن أوتي جوامع الكلم!!

وما أعجز الفكر أن ينفذ إلى الآفاق السحيقة من عظمة موجه الفكر!!

وما أعجز الإنسانية أن تحدد جوانب الرفعة من منقذ الإنسانية!!

القرآن يصف محمداً إنساناً:

يقول رب محمد وخالقه، ليدلنا على بعض مكامن السرّ في هذه العظمة المترامية الآفاق... يقول ليصف لنا محمداً إنساناً:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُم رَسُوْلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيْزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيْصٌ عَلَيْكُمْ، بَالْمُؤْمِنِيْنَ رَؤُوفٌ رَحِيْمٌ (١) ﴾.

والآية الكريمة تشير إلى مجلى واحد من مجالي عظمة الرسول (ص).. إلى الـــرحمة العميقة الواسعة الشاملة التي ينطوي عليها ذلك القلب الكبير.. إلى الرحمة الفائضة التي أظلّت الإنسانية جمعاء، من ألِفها إلى يائها ومن أدناها إلى أعلاها، فآوتهم إلى حِصنها ودعتهم إلى أمنها.

إنني لأتلو الآية الكريمة فأكاد ألمس قلباً يتفتت حِرصاً ويتضرّم أسَىً على البشرية كلها أن يضلّ منها ضالّ، أو ينشز منها ناشز، وأحسّ قلباً من رحمة الله العظمى يطوف بهذا النوع المتباعد الأصناف والأكناف، يعزّ عليه أن يقع فرد من أفراده في عنت، أو تحلّ به مرزأة.

((من أنفسكم)) وهذا مبدأ الإيحاء بعمق الرحمة وشمولها.

إن الـــذوق النافذ يدرك من هذه اللفظة ما لايدرك من سواها، فكلمة ((منكم)) -مثلاً- لو استعملتْها الآية لما عدَت أنّ الرسول فرد من أبناء الأمّة وخِيَـــرة مـــن أوساطها، يشعر بشعورها، ويحسّ بآلامها، ويعرف مواضع حاجاتهـــا، وقـــد استعمل القرآن هذه الكلمة لّما أراد إيضاح بعض مهمّات الرسول (ص)، وتحديد بعض أهداف الرسالة، فقال في سورة الجمعة:

﴿ هُـــوَ الَّـــذِي بَعَـــثَ فِي الأُمِّـــيِّـــينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُـــزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

١_ التوبة: ١٢٨.

مُبِيْنٍ (١)﴾.

أمّا الكلمة التي اختارها السياق الكريم هنا... أمّا كلمة ((من أنفسكم)) في هـــذا الموقـــع من الآية الكريمة فإنها تنفذ إلى أعمق مسرب من مسارب النفس، وتلمس أخفى وَتَرٍ من أوتار القلب، وتتّسع إلى أبعد حدّ من حدود الإنسانية.

إنها كلمة أضخم من الشرح وأوفى في مدلولها من التعليق.

((عزيز عليه ما عنتّم)) عزيز عليه ماينالكم من جهد، وما تتحملونه من كبد، عظيم على نفسه أن تُثقلكم آصار، وتبهضكم أوزار.

((حـــريص عـــليكم)) حريص على أن لا يتردّى متردٌّ من الناس، ولا يهـــلك هـــالك، ويغوى غاوٍ من الناس أجمعين. مَن آمن منهم بدعوته ومَن صدف عنها.

إن هذا أضخم رصيد تملكه أمة في قلب قائدها الأمين.

أما المؤمنون به .. المقتفون هديه، المتّبعون منهجه فلهم منه الرحمة التي لن تضعف،ولن تنقطع ما دام للصفة الإنسانية مطمح، وما كان لها مرتقى... ﴿ لَقَـــدْ جَـــاءَكُمْ رَسُـــوْلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيْزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيْصٌ عَلَيْكُمْ بَالْمُؤْمِنِيْنَ رَؤُوفٌ رَحِيْمٌ ﴾.

ويصفه رسولاً:

١ــ الجمعة: ٢.

ويقول ليصف محمداً رسولاً: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً، وَدَاعِياً إِلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيْراً [١] ﴾.

هذه بعض مهمّات الرسالة التي اختاره لها إله الكون، ووجده لها أهلاً و ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [٢] ﴾.

« شاهداً » يقيم الحجّة، ويقطع المعذرة، ويزيل اللّبس، ويوضح السبيل.

« ومبشّراً ونذيراً » فللرشد مناهجه المشرقة، وغاياته الحميدة التي لابد للرسالة من التبشير بها والحثّ عليها، وللضلال مسالكه المظلمة، ونهاياته المُهلكة التي لابدّ من الإنذار بها، والتحذير منها، ولله (تعالى) قضاؤه وفصله في أهل الرشد وأهل الضلالة، وجزاؤه العدل لهؤلاء وهؤلاء، ولابدّ من بيان ذلك وإعلانه ليتدبر متدبر، ويتنبه غافل، ويسترشد جاهل.

« وداعياً إلى الله بإذنه » يصحّح أخطاء الناس في العقيدة، ويحدد لهم المناهج في العمل، ويوضح لهم المفاهيم للمعرفة، ويعيّن لهم السبيل في السلوك.

١ــ الأحزاب: ٤٦.

٢ــ الأنعام: ١٢٤.

« وســـراجاً منيراً » يستضيئون به من الظلم، ويسترشدون بهديه من الحيرة، ويقتدون بقوله وعمله في كل صغيرة وكبيرة.

وأحْسَـــب أن دلالة هذه الصفة الأخيرة «وسراجاً منيراً » على عصمة الرســـول(ص) أرفع من أن يمتري فيها مسلم يعترف بالكتاب ويدرك معاني كلماته.

هذه بعض آفاق العظمة في شخصية الرسول (ص)، يذكرها لنا القرآن، ليعرّفـــنا أن محمداً (ص) فوق متناول الألسنة والأقلام، وفوق مطمح الأخيلة والظنون...

وصدق الله العظيم.

البعد التكويني لبعثة الرسول محمد (ص)

مجرى الحكمة الإلهية في المخلوقات:

وهكـــذا تألّف جزيء ضئيل دقيق من جزيئات السديم الذي كان يملأ هذا الفضاء الواسع العظيم، جزيء دقيق يحمل شحنة كهربائية موجبة تألّف مع جزيء آخر أو جزيئين أو أكثر يحمل مجموعها شحنة كهربية سالبة.

وتعـــادلت القـــوة بين الشحنتين، شدّ الجزيء الموجب على الجزيئات الســـالبة يجذبها إليه جذباً، وحاولت هذه الإفلات من قبضته فلم تقوَ، وكان من نتائج هذا التعادل أن يأخذ كل واحد من الجزيئات السالبة مداره حول الجـــزيء الموجب يطوف فيه، ولايحيد عنه، ولا يتباطأ في حركته حوله ولا يختلف.

وقام كيان الذرّة من هذه المجموعة، ودأب كلّ جزيء من جزيئاتها على عملـــه لا يـــلوي ولا يقف، ووجّهته الحكمة، ووجّهته اليد القديرة المدبّرة يُســـهم في بناء الكون، وفي بناء الحياة، وفي بناء الإنسان. ويُسهم في تحقيق الغاية الكبرى التي من أجلها بني الكون وفُطِرت الحياة وخُلق الإنسان..

وتنوّعت الذرّات، وتعدّدت أنواعها بحسب تعدّد الجزيئات التي يشتمل عليه كيانها، وكثُرت العناصر التي يتألف منها بناء الكون.

وتألفت ذرة صغيرة لايدركها الطّرْف، بل ولا يدركها المجهر من هذه الـذرات الـتي تحمل تلك الطاقة، وتحوي ذلك النظام وتلك القوة الكهربية المتعادلة، تألفت إلى ذرّة مثلها أو إلى ذرتين أو أكثر من عنصر واحد، أو من عناصـر متعدّدة، وتفاعلت معها في التركيب، واتّحدت وإياها في الخاصّة، وقـامت من هذا التركيب خليّة حياة، أو خلية جسمٍ حي، أو وحدة أخرى يتقوّم منها كيان موجود.

ودأبت كلّ ذرّة دخلت في التركيب توفيّ عملها الذي أنيط بها، لاتني ولا تحيد، ووجّهتها الفطرة كذلك، ووجّهتها الحكمة، ووجهتها اليد القديرة المدبّرة، تُسهم في البناء، وتسهم في الغاية.

تُسهم في بناء الكون والحياة والإنسان، وتسهم في الغاية التي من أجلها خلق كل أولئك.

واجـتمعت وحـدة إلى وحدة أو أكثر، من نوعها أو من نوع آخر، وتضـامّت الأجزاء، وتضامّت الوَحَدات، وتفاعلت إذا كان الأمر يدعو إلى الـتفاعل، وتطوّرت إذا كان يستدعي التطوّر، وقام من المجموع كيان كامل مسـتقل لشيء من أشياء هذا الوجود، وساهم في البناء وساهم في الإعداد لـلغاية، وساهمت كل وحدة من وحداته تلك، ووجّهته الفطرة، ووجّهت كل جزء منه أن يدأب في عمله وفي وجهته.

وقام الكون، بناميه وجامده، وحيّه وميّته، وسماواته وأرضه، وحركاته ومداراتـه، وعناصـره الـتي تقوّمه، وقوانينه التي تنظّمه، ووجّهته الفطرة، ووجّهـته الحكمـة، ووجّهته اليد القديرة المدبرة، ووجّهت كلّ شيء فيه،

وكلّ جزء من أجزائه أن يسهم في البناء، ويسهم في الغاية، وأعدّت الحكمة كلّ ما في الكون لقيام الحياة .. ولقيام الإنسان أعلى نماذج الحياة.

الحكمة في الخلق الإنساني:

وانضمت خليّة إلى خلية، خليّة حياة إلى خلية حياة، وتلقّحت إحداهما بالأخرى، وتطوّرت الخلية الموحّدة الملقّحة، وانشطرت وتكاثرت، وتدرّجت في النشـوء، وانضـمّت إليهـا من أغذيتها وحدات، واستحالت خلايا، وتصـنّفت الخلايا وتساندت على بناء الهيكل، وتوزّعت العمل، وتوجّه كل صـنف منها إلى إقامة جهازٍ، أو إقامة عضو، أو إقامة نسيج، وانصرف إلى أداء مهمّة، ووجّهت الفطرة واليد القديرة الحكيمة كلاًّ منها وجهته، وتعبّدته بالمسير إلى غايته.

وقام الموجود الحيّ العاقل السميع البصير الذي أُعِدّ له الكون وسُخِّرت له الطبيعة، ووجّهته الفطرة، ووجَّهته الحكمة أن يعمر الأرض ويحقّق الغاية.

واهـتدى كلّ شيء بفطرته إلى مبدئه وغايته، وخضع لقانونه، وتعبّد بخضوعه هذا لبارئه، لايحيد ولا يني.

واهتدى الإنسان بالفطرة كذلك وخضع وتعبّد كسائر أشياء الكون.

ولكـن الإنسـان عاقل مريد، وهذه هي أسمى ناحية فيه، فلابدّ وأن يهتدي، ويخضع بعقله وإرادته، ولابدّ وأن يصل إلى الغاية من هذه الناحية.

وللعقل فطرة كما لسائر الأشياء، وفطرته كفيلةٌ بهدايته لو انفرد إليها، ولكـــن الصوارف التي تزاحم هذه الفطرة بخصوصها تربو على العدّ، ولابد وأن يُحسب لها حساب.

فلابـــدّ من الهداية التي تساند الفطرة، ولابدّ من الشريعة التي تعيّن لها طريقها، وتصونها عن المزاحمات.

الهدى الإلهي والإنسان:

وانضـــمّ إلى الإنسان إنسان، وأضيفت إلى الأسرة أسرة، وتشعّبت عن القبيلة قبيلة، وتألّفت مع الأمة أمة، وارتقت معرفة الإنسان، وامتدّت نظرته، وتطـــوّرت حياتـــه الاجـــتماعية، والسماء تمدّه بالهداة التي تعضد الفطرة، وبالشرائع التي تحدّد له الطريق، وتعرّفه بالمعالم والغاية.

وارتقـــى الإنسان وتطوّر، وارتقت معه أساليب الهداية، وتطوّرت معه رسالات السماء، تشقّ له الطريق وتؤهّله للغاية..للغاية الكبرى التي من أجلها خُلق، ومن أجلها أُعِدّ الكون، وأعِدّت الحياة.

وتناقلته الهدايات والرسالات حتى وقفت به على الأبواب.

نعـــم، وقفـــت الإنسانية على الأبواب، فقد أعدّ الفرد، وأعدّ المجتمع، وأعدّ التاريخ.

أعدّ الفرد حتى في أدقّ ذراته، وأبطن غرائزه، وأمكن أشواقه.

وأعـــدّ المجتمع بالتمهيد للصلة العامة المقدسة، التي تنطمس فيها الحدود وتنسف السدود.

وأعـــدّ التاريخ بالحروب الطويلة الدامية التي أتعبت الإنسان وسحقت كبرياءه وطامنت غروره.

وتطـــلّع الفرد، وتطلّع المجتمع، وتطلّع التاريخ للنقلة الحاسمة، والشريعة الخاتمة.

وبُعـــث محمـــد (ص) ليحقّق الأمنية لكل أولئك: للفرد، وللمجتمع، والتأريخ.

وبُعـــث محمـــد (ص) ليحقق الغاية الكبرى التي أرادها الله من إحداث الكون وإيجاد الحياة، وإنشاء الإنسان.

وبعث محمد (ص) ليكون أعظم رسول بأعظم رسالة، وأكبر داعٍ إلى أكبر دعوة.

وبعث محمد (ص) ليَصل الأرض بالسماء، وليتوَّج إماماً للأنبياء.

وبعث الإنسان الأعلى لتتفيأ الإنسانية ظلاله، وتترسّم مثاله.

وأنـــزل القـــرآن دستوراً للدولة، وقانوناً للحكم، ونظاماً للاجتماع، ومـــنهجاً للاقتصاد، وقاعدة للتربية، وسَنَناً للأخلاق، وشريعة للعمل، وحدّاً للحقوق، ولساناً للهداية، وبرهاناً للدعوة.

الإنسان وهدى محمد (ص):

ونظـــرت الفطرة فلم تشكّ، وفكّر العقل فلم يمترِ، وشهد البرهان فلم يرتب، وأبصر العلم فلم يتردد، وآمنت الفطرة، وآمن العقل، وآمن البرهان، وآمن العلم.

ووقفت الأهواء فلم تُبْصر، وتبلّدت الغباوات فلم تهتدِ.

ورفـــع محمد (ص) قَبَساً بعد قبس من أشعة القرآن لِيُنير هذي النفوس التي طبعت عليها الأهواء، ويحيي هذي الأذهان التي أماتها الغباء.

وكـــافح بالحجّة، وكافح بالموعظة، وكافح بالنصيحة، وكافح بالخلق الكريم والقلب الرّحيم.

وطمِعت بعض هذه النفوس في غير مَطمع، وجهدت أن توصِد الأبواب في وجـــه الدعوة، وأن تقطع السبل، ولم يُجْدِ معها البرهان شيئاً، ولم تنفع الذكرى فتيلا.

واضـــطر محمد (ص) أن يحتكم مع هذه الفئة إلى القوة لِفتح الأبواب وتخـــلية الســـبيل، فناضل بالسيف، وناضل بالعزيمة، وهي أمضى حدّاً من السيف، وناضل بمدد الله ونصره، وهي القوة التي تمدّ السيف والعزيمة والجند بالمضاء والصرامة.

ولم يزايل البرهنة في مواقفه تلك، ولم يترك النصيحة، ولم يفارق الخلق الكريم والقلب الرّحيم، وظهر أمر الله وهم كارهون، وعلت كلمة الله وهم راغمون.

ودار الزمان، ودارت القرون..

وتراكمت الأهواء، وتكدّس الغباء..

واتخـــذت الأهـــواء في دورها هذه صبغة الحضارة، وألبِس الغباء لباس المدنية.

ودعوة محمد (ص) لاتزال هي دعوته، وبيّناته هي بيناته.

هـــي تلك التي آمنت بها الفطرة، وآمن بها العقل، وآمن البرهان، وآمن العلم.

ووقفت الأهواء فلم تُبصر، وتبلّد الغباء فلم يَهتدِ.

ومُـــدّت الأيـــدي لتوصـــد الأبواب والسبل في وجه الدعوة.. لتصدّ الأذهان عن إدراكها، بل ولتوقر الآذان عن سماعها، ولتكمّ الأفواه عن الجهر بها.

فهـــل لـــنا أن نـــرفع القبس الذي رفعه محمد (ص) لنضيء للسادرين طرقهم وننقذ هالكهم؟

وهـــل هـــي أمنية أو تساؤل، أو هي فريضة محتومة سريعة لامجال فيها للأماني، ولا وقت معها للإبطاء؟!

المثل الأعلى للإنسانية

﴿ لَقَــدْ مَــنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَــلَيْهِمْ آيَاتِــهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ(١)﴾.

مــع الحكمة في أبعد أشواطها، ومع الإتقان إلى أقصى حدوده، تجري هذه السنّة من الله في بعث أنبيائه، من وسط كل أمة يختار نبيّها، وإلى رجل منها يُسلِم قيادها.

مــع الحكمة ومع الإتقان في أدق مجرى منهما، وإلى أبعد غاية تجري هذه السنّة في بعث الأنبياء.

لأن الرســول حين يكون من خالص الأمة يكون أعرف بأساليبها في التفهــيم، وأعــلم بطرق إقناعها بالحجة، وأبصر بسيّئ عاداتها في الأعمال، وبمكامن أدوائها في الأخلاق.

ولأن إنذار القريب ألمس للعاطفة، وأمسّ بالقلب، وأدنى إلى التأثير.

ولأن الرســول هــو المثال الذي يقدّمه الله للأمة لتصُوغ نفسها على مــنواله، وتقتدي بأعماله .. وواضح -جِدّ الوضوح- أن قرب هذا الرسول

١ـــ آل عمران: ١٦٤.

من الأمة أدعى لها إلى القدوة، وأرجى لها في الحصول على الغاية..

مـــن الأمـــة .. ومن أصرحها نسباً، وأنصعها غرّة يصطفي الله رسوله إليها، حتى إذا تمكّنت الدعوة، وضربت جذورها، ورسخت أصولها، ونمت فـــروعها وآتـــت أكلها، ومدت أغصانها بعد ذلك إلى كل ناحية، ونشرت ظلالها في كل جهة وعمّت بركاتها من قَرُب ومن بَعُد.

« لقـــد مـــن الله عـــلى المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً » يلقّنهم سداد الحكمـــة، ويـــنهج بهم سبيل الرحمة، وقد كانت المنّة عظيمة جداً أن اختار الرسول « من أنفسهم » وأن أنزل الكتاب بلسانهم، وأن جعل بيئتهم محضناً لدعوة الله (تعالى) ومدرجاً لتشريعه.

ليتوّج محمد (ص) مليكاً للأنبياء:

أيهـــا السادة، شاءت العناية أن يكون الإسلام هو الدين الأخير، وأن يكون رسوله هو الرسول الخاتم، وأن يكون قرآنه هو الكتاب الخالد، ونظامه هو النظام الذي لاينسخ.

وشـــاءت العـــناية أن تختار محمداً (ص) مليكا للأنبياء (ع)، وزعيماً للأمم.. ومن أحقّ بهذه المنـــزلة من محمد (ص)؟

محمد الذي كوّنه الله كما يحب، فكان له كما أحب.

ليكـــن للأقدار ما أرادت، وليتوّج محمد (ص) مليكاً على الأنبياء (ع) فليس لهذا المقام الأعلى غير محمد .

أمّـــا الفقـــر واليتم فإنهما لايقصّران بالمرء عن غاية، إذا كان من هذا

السنمط الذي يتّسم به محمد، ففقر محمد فقر كريم، ويتُم محمد يتم شريف. ومن خصائص الفقر حين يكون كريماً، واليتم حين يكون شريفاً أنهما يؤهّلان النفس لكبريات الغايات.

ليتوّج محمد مليكاً على الأنبياء، وليكن تتويجه في السماء فإنّ قيادته ستضّم السماء إلى الأرض، وستجمع الملائكة مع البشر.

وبعد، فالنبيون أحقّ من يحتفل بيوم تاجه، والملائكة أول من يؤدّي يمين الطاعة، وربّ الملائكة والنبيين هو صانع ذلك التّاج، وعاقد ذلك اللواء. وليس عجيباً أن يعرج بمحمد ليتّخذه حبيباً، فقد كان زينة للعرش منذ القديم، وقد كان نبياً وآدم بين الماء والطين.

لِنسِرْ مع القرآن في طريق الحياة:

أيها السادة ..

تلتقي خطوط المثالية في شخصية محمد (ص)، وتجتمع القيم الإنسانية العليا في دين محمد، وهل للبشر ناحية لم تشملها عناية هذا الدين، وهل في الحياة جهة لم تحفل بها تعاليمه؟

دين محمد (ص) هو الذي يأخذ بيد الضعيف حتى يرفعه إلى مصافّ الأقوياء، ويرعى الفقير حتى يجعله شريكاً في أموال الأغنياء.

ودين محمد هو الذي يوجّه العقل متى افتقر إلى التوجيه، ويهذّب الغريزة متى احتاجت إلى التهذيب، ويتمشى معهما حين يجدهما مصاحبين للحق، ملازمين للاستقامة.

أيها السادة..

مـــن التـــناقض الواضح أن نقول: نحن مسلمون. ثم لانضع أيدينا في يد محمد (ص)، نقف حيث يقف، ونسير حيث يسير..

ومـــن الجهل الفاضح -بعد هذا- أن نقول: إنه لايسدّ حاجات البشر ولا يفي بضرورات الحياة.

نعجـــز نحـــن، ثم نتّهم الدين بالعجز، ونتقاعد نحن ثم نصف الإسلام بالتقاعد.

لِنَسِـــرْ مع القرآن في طريق الحياة، ولنعالج بتعاليمه أمراضنا الاجتماعية والاقتصـــادية، ثم لننظر -بعد ذلك- هل يكفي الدين لحاجات البشر؟ وهل يفي بضرورات الحياة أم لا؟

لِنَسِرْ مع القرآن إلى حيث يريد فسيوصلنا -من غير شك- إلى ما نريد، ومن كان القرآن طريقه، وكان محمد دليله بلغ الغاية التي يأمل.

المسلم الأول

وليد الكعبة

واجتمعت قريشٌ حول البيت الحرام، وكان اجتماعها هذه المرة حافلاً شاملاً، فقد حضره حتى الشبان، وحتى الصبيان، وحتى بعض النساء والولائد، وكان الحديث همساً أو ما يُشبه الهمس، وكانت الأبصار شاخصة نحو البيت، ونحو باب البيت على الخصوص.

إنّ باب البيت لايزال موصداً، لم ينفتح -بعْدُ- عن السر الذي يحتويه.

أتراه ينفتح من تلقاء ذاته كما أوصد من تلقاء ذاته على فاطمة بنت أسد بن هاشم منذ ثلاثة أيام، أم يبقى موصداً عليها إلى الأبد؟

لقد احتجبت فاطمة في الكعبة، و أوصد رب البيت عليها باب البيت، حتى أعيى أمر فتحه على السّدَنة، وعلى الأشدّاء الأذكياء من بني هاشم وبني مخزوم.

أوصد الباب فلم يملك أحدٌ فتحه، وإذن ففي الأمر سرّ لعله ينكشف بعد قليل..

وأبو طالب مطرق متأمّل، يستعرض الحادثة الغريبة، ويسبر أغوارها، ويقلّب وجوهها..

فاطمـــة في جـــوف الكعبة منذ ثلاثة أيام، فهي في حاجة إلى الإغاثة، ولكن كيف الوصول إليها وكيف السبيل؟..

وفاطمـــة حامل مقرب، فهي في ضرورة إلى نساء يسعدنها، ويَلين من أمرها، ولكن ما الحيلة؟

لقد سُدّ باب الكعبة عليها فأعيى على الفاتحين.

هل يشاء ربّ البيت أن تضع فاطمة وليدها في البيت؟!

إن كانت هذه مشيئته فيا للعناية الكبيرة، ويا للشرفِ العظيم!

أم يشاء غير ذلك؟ فله المشيئة والأمر، وليس لنا إلاّ الخضوع والتسليم..

مطـــرق مـــتأمل .. وحـــوله أقيـــال قريش وأسياد هاشم، مطرقون، ومتأملون.. ينظرون، وينتظرون..

ومحمـــد بن عبد الله يطوف بالبيت، باسم الثغر، متهلّل الوجه، مشرق الأســـارير .. يـــنظر ما لاينظره الجميع، ويأمل ما لايأملون، ويفكر في ما لايفكرون!! ... وانفتح الباب..

وخـــرجت فاطمـــة بـــنت أسد بن هاشم تحمل على ذراعها وليدها الميمون.

وازدحـــم الناس يهنّئون فاطمة السلامة، ويباركون أبا طالب بالوليد، ويتوسّمون في وجه الوليد شمائل العظمة، وسمات البطولة، ودلائل الخير.

واستقبل محمد علياً:

واستقبل محمد (ص) علياً (ع)، وابتسم النبيّ، وابتسم الوصيّ، وابتسم الكون، والتقت الشفاه الكريمة في قبلة حبيبة..

نعم، في فناء الله وفي ظلّ بيته كان لقاؤهما الأول .. ها هنا ..

وفي فناء الله وفي ظل عرشه كان لقاؤهما القديم ..

واحتمل محمد علياً بكلتا يديه، ورفعه عالياً عالياً يحيّي به الوجود.

وما أسعد الوجود في هذا اليوم، يستقبل هذه البشرى العظيمة من فم هذا البشير العظيم!!

رفعه عالياً بيديه ليُري العالمين صنوه يوم ميلاده، وسيرفعُه عالياً بيديه كذلك ليري العالمين وصيّه يوم استخلافه!!

وأطلت شعاب مكة، وهضباتها، ومشاعرها، ومواقفها لتبصر كيف اقترن السعد بالسعد، وكيف اتّحد النور بالنور، ومحمد قائم على مرقاة الحطيم، وعلي ماثل بين كفّي الرسول، يبسمان لبعضهما البعض.

إذن فقد اقترب اليوم، وأشرف العهد.. يوم رسالة الحياة، وعهد تبديد الظلمات.

نعم، لقد اقترب اليوم، وأشرف العهد، فليهنأ محمد، وليبارَك علي، وليسعد شيخ البطحاء بالوليد، وليُضِف مجداً طارفاً إلى مجد تليد.

لقد اقترب الوعد، وستكون هذه الهضاب، وهذه الشعاب، وهذا البيت مَشْرق النور، ومَبْعث الدعوة، ومَهْبط الوحي، ومَصْدر الوعي، فلينتظر العالم، وليستمع الكون، ولتزْدَهِ الحياة..

ودعـــوة محمـــد (ص) مفتقرة منذ يومها الأول إلى ساعد شديد يحمل السيف، وكفّ قويّ يرفع اللواء.

وماذا يصنع الحق إذا أراد الباطل أن يكمّ فمه حتى لايجهر بدعوة، وأن يأخذ عليه سبيله حتى لايبلغ إلى غاية؟

.. إذا أراد الباطل أن يُوقر الآذان، ويبلبل الأذهان، فلا تلقى الدعوة إلى الله سمعاً، ولا تنفذ إلى قلب..

..إذا أراد الـــباطل أن يوبئ التربة، حتّى لا تنمو فيها بذرة، ولا تخرج منها ثمرة.

ماذا يصنع الحقّ إزاء ذلك إلاّ أن يعتمد العلاجات الحاسمة التي تستأصل الطفيليات، وتبيد الجراثيم؟!

هكـــذا.. نعم هكذا، لابدّ للحق من قوّة يدافع بها عن نفسه، ويناضل بها عن غايته، ولابدّ لمحمد (ص) من عليّ، يشدّ أزره، ويشاركه أمره، ومن أجل ذلك تأخرت دعوة الرسول ثلاثين عاماً حتى وُلِد، ثم تأخّرت بعد ذلك عشرة أعوام حتى نشط.

المسلم الأول:

وبُعث محمد بالرسالة، فكان عليٌّ أوّل من صدّق، وأوّل من آزر، وأوّل مـــن صـــلّى، وأوّل من اقترب، ولا أستحب أن أقول ما يقوله بعض علماء الحديث وبعض علماء التأريخ: عليّ أول من أسلم.

إن علياً لم يكفر في يوم من الأيام ليقال فيه: علي أول من أسلم.

وكأن علم الحديث، أو علم التاريخ، إنما يحاول أن يقول معي: علي هو المسلم الأول، وفارق كبير بين معنى هاتين الكلمتين.

علي هو المسلم الأول؛ بمعنى أنه الذي لم يسبقهُ إلى دين الله أحد ممن سبق.

وعلي هو المسلم الأول؛ بمعنى أنه الذي لم يضارعه في تطبيق مناهج الله أحد ممن أطاع.

وعلي هو المسلم الأول؛ بمعنى أنه الذي لم يدرك مداه في الإسلام لوجه الله أحد ممن أسلم.

علي هو المسلم الأول بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبكل ما ترمز إليه من فضل، وكل ما تشير إليه من غاية، فهو السابق إلى كل مكرمة، والمستأثر بكل منقبة، والإسلام مجمع كل أولئك الفضائل.

نعم، بُعث محمد بدين الحق، وأنزلت معه شريعة الهدى، ووضعت أنظمة الحياة، ووجّه الإنسان بهدي ذلك الدين، وبرشد تلك النظم، إلى كماله الأعلى، واصطفي محمد رسولاً يبلّغ ديناً، وزعيماً يبني مجتمعاً ويؤسس دولة ويقيم عدلاً، ومؤدباً يصوغ ضمائر وقلوباً وأخلاقاً، وقدوة حبيبة تقتدي الناس بأفعاله وتصوغ أنفسها على مثاله.

واستخلف محمد علياً على عهده، وأحلّه منزلته، واستودعه أمانته، وحمّله أعباءه، وأقامه مثالاً صادقاً له، ولساناً ناطقاً عنه، وبرهاناً منيراً لدعوته، يقتدي به المسلمون في كل عمل، ويفزعون إليه في المُلِمّة، ويستضيئون برشده في الحيرة، وفي كل صغيرة وكبيرة.

واستخلف محمد (ص) وعلي (ع) أبناءهما الميامين (ع) هادياً بعد هاد، ونــوراً بعد نور، وصادقاً بعد صادق، أمثلة شاخصة للعدل، وأدلّة معصومة للحق، وبراهين نيّرة للإسلام، وحفظة مأمونة للكتاب.

كــانت كــل هذه التهيئة لمبدأ الحق .. لمبدأ الإسلام، ولنشر معالمه، وبسط سلطانه، ومدّ نفوذه.

ماذا قَبَسنا من الهدى الإلهي؟

وجئنا نحن في الأعقاب..

جئنا بعد كل هذه التهيئة، وكل هذا الإعداد، وبعد أن أقام الله لنا اثني عشر دليلاً معصوماً بعد رسوله العظيم ترشدنا إلى دينه القويم..

فماذا أفدنا من هذا الإعداد؟

وماذا قبسنا من هذه الأنوار؟

وما هي حصيلتنا من هذه الجهود ومن هذا الجهاد؟

نعــم، مــا هي حصيلتنا نحن، فنحن المعنيّون، ونحن المخاطبون ونحن المسؤولون.

أكلّ حصيلتنا أننا أصبحنا إمّعة تتلاقفنا المبادئ، وتصرّفنا الأهواء؟!

تتلاقفنا المبادئ الكافرة، وتصرّفنا الأهواء الحائرة!

مــا بهذا بُعث محمد (ص)، وما لهذا جاهد علي (ع)، وما لهذا ناضل أبناؤهما المعصومون (ع) ودعاة الحق أجمعون.

فهل لنا أن نقف عند حدودنا فنعترف بأننا ظالمون؟

لقــد كرّمــنا الله كرامة ليس فوقها من مزيد لَمّا ارتضى لنا أفضل أديانه، وهدانا أشرف سبله، واختصّنا بسيّد رسله وبأعظم كتبه، وميّزنا بسادات أوصيائه وخلفائه.

لقــد كرّمنا الله بهذه الخيرة لنا كرامة ليس فوقها من مزيد، فما بالنا لا نرى أنفسنا أهلاً لهذا التكريم؟!

ولماذا نستبدل بالرفعة هواناً وبالسعادة شقاءاً وخساراً.

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيْناً فَلَــنْ يُقْبَــلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِيْنَ[١] .

آن لــنا أن نقف لنصلح أخطاءنا، ونتلافى ما فاتنا، ونصحّح باتباع رسالته ما فسد من أوضاعنا وأعمالنا، ثم نحمل دعوة الله نبلّغها مَن حولنا من الأمم.

إن الأمــم ممــن حولنا تنتظر دعوة الله التي حمّلنا محمد (ص) أعباءها، وأوضح لنا عــليّ(ع) مناهجها، وأبان لنا المعصومون من أبناء علي (ع) أسرارها .. إنهم ينتظرون هــذه الدعوة المنقذة المشرقة تصل إليهم من أفواهنا وبأقلامنا وأعمالنا: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّــئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[٢] ﴾.

صدق الله العظيم

١ــ آل عمران: ٨٥.

٢ــ التوبة: ١٠٥.

المسلم الأول (٢)

﴿ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنا مُنَادِيا يُنَادي لِلإيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُم فَآمَنَّا، رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّآتِنا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ. رَبَّنَا وَآتِنا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاتُخْزِنا يَومَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لاتُخْلِفُ المِيْعَادَ [1]﴾.

في بيت الله .. وبين أركان كعبته وُلِد .. .. .. هذه هي البداءة.

وفي بيت الله .. وبين أركان صلاته وصيامه. وفي غمرات ذكره وخشوعه استشهد. هذه هي الخاتمة.

ومع القرآن. ومع الحق ، يدور معهما حيثما دارا -كما يقول الرسول الكريم- عاش وجاهد، وقال وفعل، وخاصم وسالم .. .. هذه هي الحياة بين ذلك المبدأ وتلك الخاتمة.

هذا هو علي في مبدئه وخاتمته، وفي حياته ومماته. في ظل الله ولد، وفي ظل الله نشأ، وفي أحضان رسوله تربى ودرج، ومع كتاب الله ونيّر منهاجه عاش وحكم، وجاهد وناضل، وقال وفعل، وفي ظلّ الله وفي سبيله وبين أذكار صلاته وخشوع عباداته استشهد. أرأيتم أكبر من هذه الصلة، وأشد من هذا القرب، وأكرم من هذا المقام ؟!

١ـ آل عمران: (١٩٣ – ١٩٤).

المسلم الأول حين يُذْكر السابقون، والصادق الأول إذ يُعدُّ الصادقون، والمصلي الأول، والمجاهد الأول، والعدل الأول، والداعية الأول للإسلام، والمطبق الأول لرسالته، والممثل الأول لرسوله، والقرين الأول لكتابه، ألم يجعله القرآن نفس النبي في آية المباهلة ؟! ألم يقل الرسول (ص) فيه قولته التي رواها المسلمون على السواء: «علي مع القرآن، والقرآن مع علي، يدور معه حيثما دار».

هذا هو علي في صفاته وسماته التي استوجب بها التقدمة، واستحق بموجبها التفضيل، ومن أجل هذه المؤهلات التي جمعها علي اصطفاه الرسول له أخا، ثم اختاره الله له خليفة، فما كان الرسول ليحابيَ في أخوّته قريباً، وهو الذي عصمه الله أن يفعل أو ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى، وما كان الله ليصانع في عهده أحدا، وهو الذي يقول في كتابه: ﴿ لايَنَالُ عَهْدي الظَّالمين (١) ﴾.

هذه بعض الآفاق الممتدة من عظمة علي، وبعض الملامح الواضحة من شخصيته، على الباحث أن يقف عندها مليا: يتقصى آفاقها، ويقيس أبعادها وأغوارها، ويتأمل في مقتضياتها ومعطياتها، إذا أراد أن يعرف المقياس الأعلى لفكرة الإمامة في الإسلام.

إذا حاول أن يلج بحثا في مقارنة، أو تحديداً لحق، أو دراسة لتأريخ يتعلق بهذا الإمام العظيم.

١ـ البقرة: ١٢٤.

لقد وصف الكتّاب المُحْدَثون عليا بأنه عبقري، ثم راحوا يضعون الحدود لهذه العبقرية في ضوء ما يفهمون ومايعرفون، وماأحوج الألفاظ حين يُقْتحم بها غير حدودها، ويُحْشر فيها أعظم من آفاقها، وتُقْسر على الدلالة على أكبر من معانيها.

إن عليا عبقري إذا ارتفعنا بهذه الكلمة عاليًا عاليا، فدللنا بها على عبقرية العبقريات، المدد الذي يقبس منه كل عبقري وكل عظيم وكل ملهم في الحياة.

الممثل الصادق للرسالة، والمثال الأول للرسول، والقرين الأول للكتاب، والقدوة الثانية للأمة، وكفى بذلك توصيفا، وكفى بذلك تحديدا لعبقرية علي نصفه بالعبقرية، وحين تحرج الألفاظ، وتضيق الكلمات أن تحدد هذا المقام.

وللحكم في ظل الإسلام طابع فريد، يختص به نظامه، ويتميز به مجتمعه، وتنهض به ركائزه ودعائمه.

النظام الإلهي الذي وضعته السماء، ونهجت أصوله، وقررت مواده، وصانته أن يأتيه الباطل من بين يديه، أو يلحقه الريب من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

والمجتمع المسلم المؤمن الذي تقوم الصلات فيه على الحب في الله، والأخوّة في دينه، والتكافل في بلوغ مرضاته، وتقواه حق تقاته، وتتأسس الحقوق والواجبات فيه على أساس العدل الشامل بين الآحاد، والموازنة الكاملة بين الحريات، والملاحظة الدقيقة المستقصية للطاقات والضرورات.

والركائز الأصيلة العميقة في كيان الإنسان الفرد، وفي كيان الإنسان الأمة، الغرائز والترعات والضرورات الذاتية التي لا تختلف في بيئة، والحاجات والمصالح الأخرى التي تمليها الحياة وتخضع للمؤثرات.

الضرورات الفردية والضرورات الاجتماعية، التي لا يسوغ أن يهدر شيء منها لشيء أو يحاف على جانب لحساب جانب، أو يضيَّع حق بإزاء حق.

هذا العدل الذي أرسل به محمد، وأنزل به كتابه: ﴿ اللهُ الذي أَنْزَلَ الكِتَابَ بالحَقِّ وَالمِيْزانِ (١) ﴾، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً، لامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه، وَهُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ (٢) ﴾، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمين. إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإِيْتَاءِ ذي القُرْبى، وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون (٣) ﴾، وما أكثر الآيات التي ذكرت هذا الشأن، ووصفت دين الله بهذه الصفة، وحفزت الناس إلى هذه الغاية، ودعتهم إلى هذه السعادة.

هذا العدل الذي أرسل به محمد، وأنزل به كتابه، وأقيم عليه نظامه، والذي أراده الله للمجتمع المسلم الذي أقام صلاته على الحب في الله، والتآخي في دينه، والتناصر في سبيله.

والحكم في الإسلام -أيها السادة- مشتق من هذا النظام، وقائم على

١ــ الشورى: ١٧.

٢ــ الأنعام: ١١٥.

٣ــ النحل: ٨٩ – ٩٠.

هذه الركيزة، ومستمد من هذه الأسس.

الحكم في الإسلام قوامة عامة على المجتمع، وعلى التطبيق الكامل لعدل الإسلام، والرعاية اليقظة لكتاب الإسلام، والسعي الدائب لأهداف الإسلام.

وتمشيا مع هذه النتائج: فلابد وأن يكون الحاكم الأعلى مثالا شاخصا للعدل الأعلى في الإسلام، وتطبيقا لهذه القاعدة: وجب أن يكون الرسول في زمانه هو الحاكم الأعلى لحكومة الإسلام، وفي عقيدتي أن هذه نتيجة لا يشك فيها من عرف أنظمة الإسلام، وتبيّن أهدافه، وعلم صفات مجتمعه.

نعم – أيها السادة –، وما الأثر الشريف الذي ذكرته في أول كلمتي: « علي مع القرآن والقرآن مع علي »، والأثر الثاني: « علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار »: ما هاتان الكلمتان وأخواتهما إلا تعريفات نبوية بمن يستحق هذا المقام الكريم.

هذه بعض مقاييس الإسلام التي يقيس بها الرجال..

وهذه بعض المثل العليا التي يقدمها لنا للقدوة..

وهذه بعض الغايات التي يضعها لنا الإسلام للسعي..

وهذه بعض المناهج التي يخططها لنا للعمل. فهل نحن مقتدون، وهل نحن عاملون، وهل نرى أنفسنا أهلا للكرامة التي أرادها لنا، والسعادة التي أعدّنا لها، والعزة التي اختصنا بها، والفتح القريب الذي وعدنا إياه : ﴿ ياأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ؟. تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُم وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُون. يَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم وَيُدْخِلْكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهَارُ

وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلك الفَوْزُ العَظِيمُ. وَأُخْرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِن اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ[1] ﴾.

صدق الله العلي العظيم.

١ـ الصف: ١٠ – ١٣.

لبئس المتجر
أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً

أصحاب الرسالات الحية لايموتون:

قال لي رجل رآني أعدّ حديثاً لمثل هذه الذكرى: أذكرى مولد بعد موت وليده بعديد من القرون ؟!

فابتسمت لمحدثي ثم قلت: لقد التويت يا صاحبي في وجه القياس؛ إن أصحاب الرسالات الحيّة لايموتون. وكيف ينالهم موتٌ وعلى مبادئهم تقوم دعائم الحياة؟؟

لم يمت علي (ع) ما دام مبدؤه يعمر مئات الملايين من نفوس المسلمين، ولم يمت محمد (ص) ما دامت حياته مصدراً يشعّ الحياة للخُمْس من هذه البشرية، تنبض بها قلوبهم، وتتدفّق بها دماؤهم، وتحيا وتتنفس بها أرواحهم، وتتكيّف وتنبعث بتوجيهها أشواقهم وأعمالهم.

لم يمت محمد ولم يمت علي ما داما قِبلة للبشرية، تتجه إليها في كل سلوك حقّ، وفي كل خُلُق سام، وفي كل عقيدة صواب، وفي كل تشريع حكيم، وما داما قِبلة للبشرية كلها، نعم، كلها.. مَن عرف محمداً وعلياً من أبنائها ومَن جهلهما.

أليس كل بشري يتجه بطبيعته وجهة الحق والخير والجمال؟

أوليســـت هـــذه المعاني هي ذات محمد أو ذات علي حين تتجسد في شخص؟!

أوليست هذه المعاني هي مبدأ محمد وعلي حين تتمثل في مبدأ؟

نعم يا صاحبي، وستدرك البشرية رشدها يوم تعي هذه الحقيقة، فتسير كلها في ركابهما، وتحيا بحياهما وتتفيأ ظلالهما.

ستدرك البشرية رشدها، وستنال هداها يومها ذاك، وما هو منها ببعيد.

العلم والعقل مؤمنان لا محالة:

لقـــد سار الركب مع العلم وسار مع العقل، والعلم والعقل مؤمنان لا محالـــة، وإن طـــال بهما الطريق. وأقول: هما مؤمنان لا محالة، وأريد بذلك إيمانهما العلني الصريح؛ فإنّ العلم والعقل لم يزالا مؤمنين منذ يومهما الأول، ولن يزالا مؤمنين كذلك حتى يومهما الأخير..

لقد سار الركب مع العلم، وسار العلم مع التجربة ومع المشاهدة، ومع الملاحظـــة الدقيقة العميقة، و لم تبق إلاّ لفتة واحدة يدرك بها حقيقة الحقائق، ونتيجة النتائج.

أجل، لقد سار العلم، وتقدّمت تجاربه، ومُنحت تجاربه، فقال البسطاء مـــن الـــناس: لقـــد تباعد العلم والدين، وقالت الحقائق: لقد تقاربا جدّاً، وسيلتقيان، وسيعلن الواقع كلمته الحاسمة في يوم جدّ قريب.

أما قولة الله في ذلك فقد أنزلها قبل ألف ومئات من السنين:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ، أَوَلَمْ

يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٍ؟ [١] ﴾.

ما أروع الذكرى تقام في الأفئدة:

ما أروع الذكرى تقام في الأفئدة قبل أن تقام في الأندية، وتعقد مجالسها للقدوة قبل أن تُعقد للثناء.

ذكرى الإسلام بذكرى بطله الثاني، وإذا عرفنا الإسلام ما هو؛ فقد عرفنا من هو بطله وما هي ذكراه.

ما أروع الذكرى تقام في ضمير كل فرد مسلم ليعرف قيمته في هذا الدين، ويعرف حدوده في المجتمع المسلم، ويعرف واجباته التي ترتفع له بتلك القيمة وتصون له تلك الحدود.

وتقام في حفل الجماعة لتعرف الرباط الذي يجعل منها وحدة لن تفلّ، والمدد الذي يكون لها قوة لن تذل.

لتعرف الإسلام، وإذا عرفت الإسلام فقد عرفت وجودها، وحياتها، وقوتها، وحضارتها، وأمجادها الماضية، وذخيرتها الباقية، ومدارج رقيّها في الحياة، ومراقي سعادتها فيما بعد الحياة .. إذا عرفت الإسلام فقد عرفت عن ذلك كل شيء..

إن هذا الرباط المقدّس الذي يشدّ المسلم إلى كُبراء الدعوة في الإسلام، ثم إلى كل فردٍ من حَمَلة العقيدة وأتباع الهدى .. هذا الولاء الوثيق العميق

١ــ فصلت: ٥٣.

الـــذي يخفـــق به القلب المسلم حين تعنّ له هذه الذكرى، هو الذي يعرّف المسلم قيمته ويوضّح له حدوده، ويعيّن له واجباته.

مـــا أروع الذكرى تعقد للاقتباس من العلم، وللاقتداء في العمل، أجل لقـــد تعـــالى علي (ع) وتمجدت ذكراه عن أن تكون لفظاً يزوّق، وحديثاً ينسّق، ثم لايمكث له أثر ولا ظلّ عدى ما يعقب الأدب من هزة في الروح، وما يترك الحديث من متعة في النفس.

قيمة المسلم في سوق الحقائق:

يقـــول علي (ع) وليد الكعبة، وربيّ محمد (ص) وسمير القرآن، ونصير الإسلام، يقول المسلم الأول ليعرّف المسلم الصحيح قيمته في سوق الحقائق:

« لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ».

هـــذه الدنيـــا كلها بما فيها من عَرَض ومتاع، ومِن نامٍ وجامدٍ، ومن خـــزائن ودفائن، لن تتطاول لأن تكون ثمناً لنفس هذا الكائن إذا هو اعتقد الحـــق، وراضَ نفسه به، ووقفها عند حدوده، وسار بها على نهجه، فإنْ هو رضـــي بالدنيـــا عن نفسه ثمناً فقد اتّجر بئس المتجر، كذا يقول سيد نقدة الحقائق.

أجل، إنما تكون له هذه القيمة إذا هو اعتقد الحق، ووقف عند حدوده، وما هذا الكائن لولا هذا السرّ.. لولا هذه الروح؟

حثوة من تراب هذه الأرض لا تختلف عن سائر ترابها في عنصر، وحفنة من ذرّات هذا الفضاء لا تفضل باقي ذراته في جزيئات ولا تركيب .. ولكنه

السـر، ولكنه الروح، ولكنّه المعنى الذي يرتفع بالجوهر فيعليه عن الحصى، والمعدن فيه هو المعدن، والعنصر هو العنصر.

﴿ مَـنْ عَمِـلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَـنَّهُ حَيَاةً طَيِّـبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١]﴾.

إجمع ما في هذا الكون الرحيب من معنى للعدل، ومن مسمّى للصدق ومن مدلول للرحمة، ومن مفهوم للإخلاص، ومن حدٍّ للعزة والكرامة، ومن مغزى للشجاعة والبطولة، ومن رسم لكل صفة رضيّة وسَمْتٍ كريم.

إجمع كل هذه المعاني العظيمة النبيلة في إطار، ثم اطوِ كل هذه المفاهيم في مفهوم، فإنك لن ترى لفظاً يحكيه -أصدق الحكاية- غير لفظ (الإسلام)، ولـن تـلقى مظهراً يطابقه -أتمّ المطابقة- غير (الفرد المسلم) ولن تجد قلباً تنطـبع فيـه كـل هذه الحالات، وترسم فيه كل هذه الظلال غير (القلب المسلم).

أفتطمع الدنيا -إذن- أن تكون لنفسه ثمناً؟

وماذا في الدنيا بعد هذا الاستثناء من غناء؟

هـذا هـو المسـلم الحق، وهذه حدوده وغاياته، في كلمة قصيرة من كلمات المسلم الأول.

وهـذا هو الإسلام بروحه ومعناه، وبمجمله الذي يغني عن التفصيل ..

١ـ النحل: ٩٧.

لفظ يجمع كل فضيلة، وطِبٌّ يُصلح كل دخيلة..

أما بعد هذا وذاك فاطمح ببصرك جيداً.. إلى فوق .. إلى القمة من هذا البناء الشامخ الرفيع..

إلى البطولة التي تضمّ البطولات .. والعبقريّة التي تضمّ العبقريّات..

إلى الإسلام في صورته الصادقة الناطقة..

فإنك سترى محمداً (ص) يتلو قرآنه .. وعلياً (ع) يلقي نهج بلاغته.

في بيعة الغدير

موقف الغدير:

« من كنت مولاه فهذا علي مولاه »..

هذا هو التّاج الذي وضعه محمد (ص) **على** مفرق علي (ع) في ظهيرة يوم الغدير.

وهذا الميثاق الذي قطعه رسول السماء **على** أهل الأرض كافّة في حجّة الوداع.

وهـــذا هـــو النصّ القاطع الذي أنبأ الله **رسوله** أنه إن لم يؤدّه فما بلّغ رسالته.

وهذه هي العزيمة التي تمهّل الرسول (ص) **في** تبليغها للأمة حتى ضُمنت له العصمة من الناس.

وما كان الرسول (ص) ليتباطأ في بلاغ **أمر**، وما كان ليتمهّل في إنفاذ عزيمة، ولكنه يطلب من السماء مدداً لنفسه **وتسديداً** لأمته.

إنـــه يطـــلب من الله العصمة من الناس **لنفسه**؛ فلا يُكَذَّب ولا يُتَّهم، ويطلب القوة لأمته؛ فلا تضعُف تحت ثقل **هذا الأمر**، ولا تضلّ.

وأمـــر الإمامة شبيه الملامح بأمر النبوّة، **لا** تحتمله ضعاف النفوس، ولا مرضى القلوب، ولقد جاهد الرسول (ص) **من أجل** النبوّة طويلاً من السنين،

وهـــو يوقن أن تثبيت الإمامة يقتضيه مثل هذا الجهاد، ومثل هذا البلاء، بل ويحذر أن يسري الريب في نفوس بعض الناس إلى ذات الرسالة، وقد يتعدّى إلى ركيزة التوحيد، فهو من أجل ذلك يطلب من الله أن يعصمه من الناس، وإنـــه ليعـــلم –حق العلم– أن الله عاصمه منهم، ولكنّه يريد نزول آية من الكتاب صريحة بذلك ليعرف الناس عِظَم الحادث، وعِظَم المراد.

وتحقّـــق للرســـول (ص) ما تمنّى، وأنزلت الآية تضمن له العصمة من الناس كما أراد:

﴿ يَاأَيُّهَـــا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللهَ لايَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِيْنَ [١] ﴾.

فلم يبقَ إلاّ أن يصدع بالأمر، ولم يبق إلاّ أن يبلّغ الوحي، وليهلك –بعد ذلك– من يهلك عن بيّنة، وليحي من يحيا عن بيِّنة.

وأذّن مؤذّن الرسول (ص) بالناس لينـــزلوا صحراء الغدير، في رمضاء الهجـــير، وتهامس الناس فيما بينهم: أن لات حين نزول؟ إنه موضع لايصلح للاجـــتماع، وإنـــه زمان لايصلح للقول، صحراء قاحلة، وظهيرة متوهّجة، ولاظلّ يمنع من حرّ الشمس، ولا جبل يقي من لفح السموم، ولكن الرسول يأمـــر بالنـــزول، ويأمر بالاجتماع، وإذن ففي الأمر سرّ، وفي الأمر اهتمام، ولابد من أن يطاع أمر الرسول.

وردّ المـــتقدم مـــن الـــناس، وحبس التالي، واحتشد الجمع، وارتقى

١ــ المائدة: ٦٧.

الرســـول(ص) منبراً أقيم له من الأحداج والأكوار، ودعا علياً (ع) ليرتقي معه، وإذن فالهيئة -ذاتها- توضح الأمر، وتكشف اللّبس، وتزيل المِراء، وإذن فالمعنى الصريح لذلك أن يرتقي عليٌّ منبر النبي، وأن يخلفه على وديعته.

وتطـــلّعت الجماهير للرسول العظيم (ص) وهو على منبر التأريخ يلقي عهـــد الله لوليـــه، ويأخذ على الناس بيعة الله لخليفته فليسمع كلّ ذي سمع، وليبلّغ الشاهدُ الغائب، والوالدُ الولدَ إلى يوم القيامة.

وإذن فهاهـــنا عهد، وهاهنا بيعة، وعاقد هذه البيعة هو الله الذي عقد بيعة العقبة وبيعة الرضوان، والخطيب في تبليغها هو محمد (ص) الذي علموا - من الكتاب- أنه أَوْلى بهم من أنفسهم، محمد الذي لاينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى..

.. وتطـــلّعت الجمـــاهير للرسول العظيم (ص) وهو على منبر التأريخ يهـــتف بالجمـــاهير: « ألست أولى بكم من أنفسكم؟ ألستم المؤمنين أيها الناس؟ ألم يقل الله في كتابه: ﴿ النَّبي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ [١] ﴾ ؟ ».

أوليســـت هـــذه هـــي ولاية الله التي جعلها لنبيه على الناس أجمعين؟ لايشكّ في ذلك مسلم يؤمن بالرسالة، ويؤمن بالقرآن.

وإذن فـــبأمر الله وأمر رسوله وأمر كتابه: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه».

يقول هذا وهو يرفع علياً بيمينه حتى يبين للناس بياض إبطيهما.

١ـ الأحزاب: ٦.

لاغموض في الموقف:

هـــذه حادثة النصّ، وهذا مدلولها ومعناها، ليس في اقتضائها غموض، ولا في معناها خفاء، ولا في سندها ريبة.

والإمامة امتداد وضعي لعمر النبوة، وسيرة الإمام تكملة لسيرة النبي من حيـــث تـــنقطع، وصلة لها من حيث تنتهي، فلابدّ وأن تكون للخليفة مترلة الرســـول في الأمة، ولابد للرسول أن يوضح ذلك للأمة في موقف كموقف الغدير فيقول: ((من كنت مولاه فعلي مولاه)).

وأمَـــرَ الرســـول (ص) من حضر من المسلمين أن يبادروا إلى بيعة الله ورسوله، وأن يُعلنوا تسليمهم لولاية الله وعهده، نعم، وشهد سكّان السماء سكّان الأرض وهم يُظهرون الطاعة، ويؤدّون عليها الميثاق.

واســـتقبل التأريخ يوماً من أيام الامتحان، تقول فيه الأمة ما لاتعمل وتعـــترف بمـــا لا تؤمن، وتقسم على مالا تفي، وتبعد وهي تريد القرب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيْـــناً [١] ﴾.

القرآن ومواقف الرسول (ص) في النص على علي (ع):

و لم يكن يوم الغدير أوّل يوم جهر فيه النبي (ص) بالنص على علي(ع) بالإمامـــة، وشهد له بالتقدمة، فقد قال له في يوم تبوك: ((أنت مني بمنـــزلة

١ـ الأحزاب: ٣٦.

هارون من موسى ».

وقال له في يوم آخر: « عليٌّ مع الحق والحق مع عليٍّ يدور معه حيثما دار ».

و « عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليٍّ يدور معه حيثما دار ».. وقال في مواقــف أخرى كلمات كثيرة لايأتي عليها الإحصاء، وذكر الجمهور منها نصوصاً غفيرة لاتبقي مجالاً للشك...

وأنزل الله سبحانه في يوم الصدقة بالخاتم: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيْمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ [١] ﴾.

وأنزل في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْراً [٢] ﴾.

وجعل علياً نفسَ الرسول (ص) في آية المباهلة.

وأنزل آيات أخرى كثيرة يذكرها علماء الكلام وعلماء التفسير.

بــل وذكــرها الرسول (ص) لبني عبدالمطلب يوم أُنزِل قوله (تعالى): ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ [٣] ﴾ على ما ذكره المؤرخون [٤] .

لم يكن الغدير أول موقفٍ أوضح الرسول (ص) فيه أمر الإمامة ولكنه اليوم الذي أعلن فيه النصّ وفرض فيه البيعة.

١ــ المائدة: ٥٥.

٢ــ الأحزاب: ٣٣.

٣ــ الشعراء: ١٤.

٤ــ سبق أن مرت مصادر بعض الأحاديث السابقة في هوامش البحوث المتقدمة. فلتراجع.

نص الغدير وموقف البعض منه:

يذكر المسلمون جميعهم حديث الغدير على السواء، ويتّفقون على لفظه في الأكثر، ثم يذكر بعضهم له تأويلات متنافرة، ترتسم عليها الأغراض، وتبين فيها الغايات...

يقولون: إن (المولى) في الحديث بمعنى الناصر، أو بمعنى المُعتق.

أسمعت أعجب من هذا ؟!

يجمع محمد سبعين ألفاً من المسلمين في حرّ الهجير، وفي رمضاء الغدير .. يجمع هذا الحشد العظيم، في هذا الزمان، وفي هذا المكان .. يستوقف الأول من الركب، ويستلحق الآخر .. يجمعهم في صعيد واحد، ثم يرقى المنبر التاريخي، ويصعد علياً معه، ويرفعه بيمينه حتى يبين للناس بياض إبطيهما، يصنع محمد كل هذا، ليقول: من كنت ناصره فعليّ ناصره، أو من كنت معتقه فعليّ معتقه!!

إنها مهزلة من المهازل أو منقصة من النقائص، يريدون أن ينحّوا علياً عن إمامته فيطعنون محمداً في حكمته.

رحماك اللهّم، ماذا تفعل الأغراض وإلى أي حد توصل؟!

ليتأوّلِ المتأوّلون في معنى الحديث، وليُنكرْه المنكرون إذا شاؤوا، فإنّ العهْد قد كمل، وإن الميثاق قد قُطِع، وقد سجّل الوحي في صحائفه إلى اليوم الأخير:

﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيْتُ لَكُمُ

الإسْلامَ دِيْناً[١] ﴾.

والائـــتمام بأئمـــة الهدى ليس قولاً بإمامتهم فحسْب، ولكنّه اعتراف يســـتتبعه إيمـــان، وتسليم يتبعه عمل، وحبّ يتبعه اقتداء واهتداء، فهل نحن مقتدون بما سلكوا، مقتفون لما رسموا؟

وهـــل تصدّق أعمالنا ما نجهر به من دعوى الحب، وما نفخر به من دعـــوى الولاء، أم هو القول الفارغ الذي يكذّبه العمل، والدعاوى العريضة التي يُعوزها البرهان؟!

﴿ قُـــلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ[٢] ﴾.

صدق الله العظيم.

١ــ المائدة: ٣.

٢ــ آل عمران: ٣١.

وليد العصمة

لأيـــام الإنسان الأولى أثرها البليغ في نشأة الإنسان، وفي غرس طباعه، ولأحداث تلك الأيام عملها الكبير في إتمام شخصيته وإثمار صفاته.

بـــلى -أيها السادة-، لدور الطفولة آثار بعيدة الغور، عميقة الجذور، ولحوادث ذلك العهد ظلال شديدة الانطباع، قوية التأثير .. آثار بعيدة الغور في خـــلق ذلك الإنسان الطفل رجلاً نابـــهاً من الرجال، أو إحالته وحشاً ضارياً من الوحوش، أو --على أدنى التقادير- تجميده على أسبق أدواره طفلاً ساذجاً من الأطفال.

فمـــا مشارف العظمة في الرجل العظيم، ولا مهاوي الحقارة في الرجل الحقـــير، بـــل ولا مـــخائل السعادة في السعيد، ولا الشقاوة في الشقي إلاّ نـــهايات محتومة لتلك المبادئ، وارتسامات كاملة لتلك الظلال.

تمـــرّ الكلمة التافهة العابرة على مسمع الطفل .. العابرة التي لم نعرها -حـــين تكلمنا بها- اهتماماً، التافهة التي لم نقم لها -حين سمعناها- وزناً ... تمـــر هـــذه الكلمة على مسمع الطفل.. فتعلق في شعوره خاطرة بسيطة، ثم تتركز في عقله فكرة ثابتة، ثم تتحوّل في نفسه ركيزة مكينة، وخلقاً لازماً.

وتجــري الحادثة أمام ناظريه فيقبسها منهاجاً لما يستقبله من الحوادث، ومبدأ فيما يجدّ له من الأمور، وتتركز كل هاتيك الأشياء في نفس الطفل قوة لاشعورية هائلة، تصرّف إرادته في العمل، وتركّز غرائزه في السلوك.

هكــذا يقــول علماء النفس، وهكذا يرى علماء التربية، وهكذا يقرّر علماء الشريعة..

نعــم، ومن هذا يأمرنا علماء الشريعة أن لانحدّث الطفل، ولا نتحدّث عنده إلاّ صادقين، وأن لا نعامله ولا نتعامل أمامه إلاّ جادّين..

ومــن أجل ذلك يأمرنا علماء النفس، وعلماء التربية، وعلماء الشريعة، أن نعــدّ لــلطفل منبتاً مفعماً بالسعادة، وجواً مليئاً بالطهر، ومحضناً عامراً بالحنان..

يأمــرنا هؤلاء كلهم، ويأمرنا الدين الإسلامي المقدّس بذلك أيضاً، لأنا نصوغ للطفل ضميراً، ونطبع له أخلاقاً، وننشئ له شخصية، فلا يباح لنا أن نصوغ له ضميراً يستمرئ الكذب، ولا يباح لنا أن نطبع له أخلاقاً تجنح إلى الهــزل، أو تســتلذّ الخيانة، ولا يباح لنا أن نكوّن له شخصية قلقة ملتوية، تنعدم فيها عناصر الرحمة، أو تقلّ فيها ركائز الخير.

ألسنا نحن المسؤولين عن سقوط ناشئتنا إذا نحن أهملنا هذه الحقائق ؟.

أوَلسنا ظالمين إذا طلبنا الصلاح من ناشئ قد زودناه بجهاز فاسد ؟.

بــلى –أيها السادة– هذه قواعد التربية الحكيمة التي وضعها الإسلام، ولقد كان الرسول (ص) أعلى طرازاً من هؤلاء المربّين.

احتضن (ص) ولده حسناً (ع)، والرسول (ص) هو منبع الخلق الأعلى، فكـــانت هذه الحضانة هي السبب الأول -بعد الاصطفاء الإلهي- في تنشئة هذا الوليد..

وحـــنت عـــليه فاطمة (ع) فكان هذا الحنو هو السبب الثاني في غرس صفاته.

وحدب عليه علي (ع) فكان هذا الحدب هو السبب الأخير..

وكـــان لهذه البيئة الطاهرة طابعها الخالص في التفاني في الله -سبحانه- والتضحية في سبيله، فماذا يُنتظر -إذن- من هذا الربيب؟.

آثـــرت هـــذه الأســـرة بقوتـــها ثلاثة أيام فأطعمته -كما يقول الله (تعالى)- مسكيناً ويتيماً وأسيراً، لوجه الله لاتريد منهم جزاء ولا شكوراً.

نعـــم، آثرت بقوتها، وطوت صائمة، وقصّ الله (عز وجل) حديث هذا الإيـــثار في كـــتابه، وكان الحسن (ع) في أحضان هذه الأسرة، وكان أحد المؤثرين بقوته في الله، فكانت هذه الحادثة تمريناً عملياً على التضحية في الله، والفناء في سبيله.

وألّـــف الرســـول (ص) وفده لمباهلة نصارى نجران، فكان هذا الطفل الـــدارج أحـــد الأربعـــة الذين جمعهم (ص) لهذا الشأن، والمباهلة -بمعناها الواضـــح- هي المحاكمة إلى الله، والمباهلون هم الفداء الذين قدّمهم الرسول (ص) لهذه الغاية.

فكانت هذه الحادثة تمريناً آخر على التضحية والفداء.

وانعكست هذه التمارين في نفس الوليد ظلالاً، ثم انطبعت فيها خلالاً، ثم اختلطت بها مزاجاً لا يستقل، واستحالت جزءاً لاينفصل.

ومــا صُــلح ساباط الذي قام به سيد شباب أهل الجنة إلاّ ثمرة لذلك المراس، وأثر لذلك الطبع.

نظريّة الأوساط في هدى أهل البيت (ع)

الأوساط في المجال الهندسي:

إذا أخذنـــا ورقة بيضاء ، ووضعنا عليها نقطتين متقابلتين، ثم أردنا أن نصـــل بيـــنهما بخطّ، وجدنا أن بإمكاننا أن نرسم خطوطاً كثيرة تصل بين النقطـــتين، ولكنّنا إذا طلبنا أن يكون الوصل بينهما بخطّ مستقيم، لم نستطيع أن نرســـم أكثر من خطّ واحد، هو الوسط الحقيقي بين جميع تلك الخطوط. أو هـــو -كما يقول الهندسي- أقصر خطّ يكون بين النقطتين، فالمعتدل هو الوســـط الحقيقـــي بين الخطوط المنحرفة. والاعتدال هو التوسط الدقيق بين مجموعة الانحرافات.

هـــذه هي نظرية الأوساط -أيها السّادة- ومبدؤها بدهي لاشبهة فيه، وبرهانـــها يقينـــي لاريبة معه، فإذا نقلنا الفكرة من الورقة البيضاء التي بين أيديـــنا إلى النفس الإنسانية: رأينا أن الفكرة لاتزال هي الفكرة، والمبدأ هو المبدأ، والنتيجة هي النتيجة، لم تختلف بجوهر، وإن اختلفت بأعراض.

الأوساط في النفس الإنسانية:

للـــنفس الإنســـانية قـــوىً كثيرة، وغرائز جمّة، ولها رغبات ونزعاتٌ وأحاسيس وانفعالات.

وكلّ أولئك أمور قد تطغى في الإنسان لتأخذ أكثر مما تستحق. وهذا نشوز يجب أن تُردّ عاديته وأن يحدّ من فَورته.

وقد تهبط في المرء حتى تتساهل في أقلّ ما يجب، وهذا خنوع يجب أن يُترفّع عنه، وأن يُؤنف من ضعته.

وقد تتّزن في المرء، وتقف على حدودها الصحيحة فلا تأخذ إلا بقدر، ولا تترك إلا بقدر.. تأخذ بقدر ما تستحقّ، وتترك ما لاتستحق، وهذا هو الاعتدال الذي يجب أن يكون، ولا يسوغ إلاّ أن يكون.

بلى، هكذا نجد أن الفكرة بذاتها هي الفكرة، ومبدؤها البدهي بنفسه هو المبدأ، وبرهانها القوي بعينه هو البرهان، لم تختلف بشيء يذكر، ولم تتخلف في نتيجة تُلمس، والفارق الأصيل أن الورقة البيضاء فرضت لنا أن الخطوط مجتمعة في النهاية كما هي مجتمعة في البداءة، أمّا صحيفة النفس فلا يمكن فيها هذا الفرض، فإن الخطوط المنحرفة فيها يمتنع أن تجتمع على غاية.

يستحيل ذلك أبداً وهذا هو السرّ في جهاد المربّين في طلب الاعتدال، فإن الطريق الملتوي لا يضيره التواؤه إذا كان ينفذ بسالكه إلى الغاية.

عموم النظرية في الحياة:

ومدّ الفكر يده إلى هذه النظرية -(نظرية الأوساط)- فأفاد منها في كثير من العلوم، وقبس منها كثيراً من القواعد، وشعّب عليها كثيراً من الفروع. أفاد منها في علم الطبّ، وأدخلها في كثير من فروع الفلسفة، وبنى عليها نظريات علم الأخلاق، وقبس منها في علوم كثيرة أخرى.

فالصحّة في الجسد اعتدال بين مرضين، والصّواب في القياس اتزان بين خطأين، والرشد في السُلوك استقامة بين شذوذين، والأصالة في الرأي استواء بين التواءين، والخلق الكريم توازن بين انحرافين، وكل فضيلة فهي وسط بين رذيلتين .. وكلّها أرقام حسابية لامجال فيها لشكّ ولامساغ لتردّد.

وما الموازين التي وضعها الإنسان لضبط المقادير، وتمييز الحقوق وإقامة العــدل، وإزاحــة اللَّبس إلاّ وليدة لهذه النظرية، فالزيادة والنقصان كلاهما انحراف يجب أن يجتنب، أمّا القسط فهو الاتزان بين المَيلَين.

الوحي ونظرية الأوساط:

وجــاء دور الوحي الحكيم، فأخذ بيد هذه الفكرة، لأنها فكرة الحق، والحق ملك الله (تعالى) قبل أن، يكون ملكاً لأحد.

أخــذ الوحي بهذه الفكرة فطبّقها في تشريعه، ونهج إليها في تعاليمه. وحسبي في الدلالة على ذلك أن أشير إلى آيتين من الكتاب الكريم..

ففــي مجال الأمر بالبرّ، وإيتاء ذي القربى حقّه والمسكين وابن السبيل يقول (تعالى) في سورة الإسراء:

﴿ وَلا تَجْعَــلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً محسوراً [1] ﴾.

١ـ الإسراء: ٢٩.

غَـــلُّ اليـــد إلى العنق، وبسطها كل البسط كلاهما انحراف، وبعدٌ عن الحق، أما الصَواب الذي تأمر به الآية، وتنهى عن التعدي عنه والتقصير فيه، فهو الاعتدال بين ذلك.

وفي وصـــف عـــباد الرحمن الذين ارتضى هَدْيَهم، وشكر سعيهم، ثم جـــزاهم الغرفة بما صبروا، ولقّاهم السَّلام والتحيّة، يقول (تعالى) في سورة الفرقان:

﴿ وَالَّذينَ إذا أنْفَقُوا لَمْ يُسرِفُوا وَلَمْ يَقْتُروا وَكانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً (١) ﴾.

وقال الرسول (ص) في حديثه المشهور: ((خير الأمور أوسطها)).

وهو في قوله هذا إنما يقرّر هذه النظرية.

أمـــا قـــرناء الكتاب ووديعة الرسول (ص) أما الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام)، فإنـــهم لم يعدلوا عن هذه الفكرة في قول، ولم يزيغوا عنها في عمل.

من هدى الإمام الحسن في النظرية:

يقول الإمام الحسن السبط (ع) في بعض نصائحه:

((لا تجـــاهد الطـــلب جهـــاد الغـــالب، ولاتتكل على القدر اتكال المستســـلم، فـــإنّ ابـــتغاء الفضل من السنّة، والإجمال في الطلب من العفّة، وليست العفة بدافعة رزقاً، ولا الحرص بجالب فضلاً)).

٢ــ الفرقان: ٦٧.

هكـــذا يقول الثاني من أئمة أهل البيت (ع) والسبط الأكبر من أسباط الرسول (ص)، وأحسب أن الكلمة وافية في معناها لا تضطرنـــي إلى شرح.

الإنسان مجموعة من الخلايا الكادحة، والغدد العاملة، والغرائز الحافزة، والقوى المسخّرة.

ولـــلفكر - فوق هذه المجموعة- قوّة مسيطرة، توجّهها حيث يحسن التوجّه، وتثبّطها حيث يذمّ الانطلاق.

وقـــد قرّر العلماء النفسيون أن إفراط أية قوة من قوى هذا الكائن إنما تكون على حساب قواه الأخرى، فإذا مالت الكفّة بواحدة منها فلابدّ وأن تخـــفّ بالأخـــرى، فيُفقَـــد الاتـــزان العام بين الملكات، وينعدم التكافؤ في الشخصيّة.

فمـــن الخـــير أن تـــتعادل القوى في الحقوق، ومن الخير أن تتكافأ في الاقتسام.

وطلب الرزق إحدى ضرورات الحياة التي تشغل الإنسان، ولعله أكبر أنـــواع هـــذه الضرورات، والناس فيه متفاوتون في السلوك، متفاوتون في النظرة.

فمنهم الحريص المُفرط في الحرص، الذي لايرى لرزقه سبباً وراء سعيه، فهـــو يجاهد الطلب جهاد الغالب، يكدح حتى يسخّر من نفسه كل ملكة، ويستغرق من جسده كل نشاط. وإغراق هذا المُفرِط ضرر في دينه، ونقص في عقيدته، قبل أن يكون جوراً على شخصيته، ومَيلاً في اتّزانه.

ومـــنهم الاتكالي المُفرِط، الذي يستيقن أن القدر سيُدخل له قُوْته في فمه، وإن لم يحرك هو يداً، ولم يصنع شيئاً، وأنّ سعيه فضول من العمل، فهو يـــتّكل على القدر اتكال المستسلم. وخمول هذا: ضعة في مجتمعه، ولوثة في عقله قبل أن يكون فقداً للتكافؤ في شخصيته، والمضاء في رجولته.

كلا الصنفين متجاف عن السلوك الصحيح، الذي يطلبه الحزم، ويأمر به الدين.

من الحزم أن يكدح العاقل ما حَسُن له الكدح، وأن يسعى ما مُدِح له السَّــعي، أما إذا انتهى إلى الحِرص. أمّا إذا انتهى إلى جهاد الغالب، فليقف وليتعفّف؛ فليست العفّة بدافعةٍ رزقاً، ولا الحرص بجالبٍ فضلاً.

أيها السادة:

حســـبي أن أقف على هذه الكلمة من بين مئات من الكلمات يقولهن هذا الإمام العظيم ..

وحسبي أن أجعل هذا التعليق القصير عليها موضوعاً لحديثي في ذكراه المباركة.

وأنتهز الفرصة فأقدّم لكم أسنى التهاني بهذه المناسبة الميمونة. ومن الله – ســبحانه– أســأل أن يلقّينا ثمار هذه الذكرى: عِبرة نافعة، ونوراً هادياً، وعملاً رضياً في هذه الحياة، وسعادة دائمة موفورة فيما بعد هذه الحياة.

صراع الحق والباطل

بدأ الصراع بين الحق والباطل في أول يوم من أيام التاريخ..

يوم علم الحقّ أنه حقّ، وعرف الباطل أنه باطل، وعلم كل واحد من الخصمين أن له مناهج يعارضه الآخر فيها، وأن له غايات يقاتله الآخر من أجلها.

بدأ الصراع بينهما منذ اليوم الأول من أيام التاريخ و لم يخمد، وتوقّدت الجمرة ثم لم تنطفئ، ولا يمكن أن ينتهي هذا الصراع، وأن تخمد هذه الجمرة، مادام الحق يعلم أنه الحق، وما دام الباطل يعلم أنه الباطل، وما دام الخصمان يعلمان أنهما متعارضان في المناهج، ومتزاحمان في الغايات.

.. يستحيل أن ينتهي هذا الصراع، وأن تخمد هذه الجمرة، إلاّ أن ينقلب الحق باطلاً، أو يعود الباطل حقاً، أو يحين الوقت الموهوم الذي يصطحب فيه الضدّان، ويأتلف فيه النقيضان.

ولنفرض أن أحد الخصمين ربح المعركة يوماً مّا، وفاز بالانتصار، فليس معنى الفوز أن الصراع قد انتهى، وأن الجمرة قد انطفأت..

.. إن حرب الحق والباطل حرب مبدأ وفكرة، وحرب المبادئ لاتنتهي بنزع السلاح واندحار الخصوم.

ذلك أن المبدأ يحاول أن يضمن لنفسه الثبات والرسوخ، ثم الاستمرار

والـــبقاء؛ فهـــو يناضـــل من أجل ثباته ورسوخه، ويناضل من أجل بقائه واســـتمراره، وهو يطارد عدوّه المختفي كما يناضل عدوّه الظاهر.. وكيف ينـــتهي الصـــراع إذا كـــان المـــنهزم يقاتل في هزيمته، والمنتصر يناضل بعد انتصاره؟.

من أشكال الصراع بين الحق والباطل:

ظهر الحق في فترات التاريخ بأشكال متنوعة، وكان الباطل يقابله فيها بأشكال أخرى، وكانت الحرب بين الخصمين تظهر في كل يوم بحلة جديدة، وتستخدم أساليب مبتكرة..

فظهـــرت بشكل بين آدم (ع) وإبليس، وبأشكال أخرى بين إبراهيم (ع) ونمرود، وبين موسى (ع) وفرعون، وبين محمد (ص) وأبي سفيان، وبين علي (ع) ومعاوية، وبين آخرين في جانب الحق وآخرين في جانب الباطل.

.. نعم، لصراع الحق والباطل ألوان مختلفة، وفي بعض هذه الألوان من الحرب ما يُشبه السِّلم.. فقد تتعارض الغايات في نظر الحق، فيلقي السلاح، فهـــو يهـــدر غاية ليتلافـــى غاية أخرى هي أسمى منها، وهو يلقى سلاحاً ليشـــهر سلاحاً آخر هو أمضى منه .. والحق لا يزال هو الحق، والباطل هو الباطل في كل أولئك.

.. من صراع الحق مع الباطل أن يعلن محمد (ص) دعوة الحق في مكة، وليس لديه غير نزر من الأنصار، وغير قليل من المعاضدين.

ومـــن صراع الحق مع الباطل أن يجاهد محمد (ص) الأقربين والأبعدين

في نبذ الأوهام والأحلام.

ومن صراع الحق مع الباطل أن يشهر السيف حين يجد العدّة، وحين تتاح له الفرصة.

ثم، من صراع الحق مع الباطل أن يحتجب محمد (ص) في الشِّعب ثلاث سنين في مكة، وأن يفرّ بدينه بعد ذلك إلى المدينة.

ومن صراع الحق مع الباطل أن يغمد السيف عن قريش عام الحديبية ليشهره عليهم عام الفتح.

وأن يوادع اليهود من أهل المدينة في يوم ويعلن عليهم الحرب في يوم آخر..

كل هذه الألوان -أيها السادة- من صراع الحق مع الباطل، وإن كان بعضها يشبه السلم في الصورة.

.. من صراع الحق مع الباطل أن يغمد السيف حين يكون إغماد السيف أقرب إلى الخير الذي عنه يناضل، أو يكون أبعد عن الشر الذي له يصادم.

.. من صراع الحق مع الباطل أن ينظر قائد الحق وجه المصلحة للمبدأ الحق في الحركة والسكون، وفي التقدّم والوقوف.

لم يتنازل الحسن عن حقه:

وهذه هي الخطة الحكيمة التي اتّبعها قائد الحق أبو محمد الحسن (ع) .. وهذا هو المنهاج السّديد الذي طبّقه على أعماله..

لم يتنازل أبو محمد (ع) عن حقه في يوم من الأيام، وإن أصرّ التاريخ على ذلك، وسجّله المؤرخون .. ولم يطمع معاوية ذاته في تنازل الحسن عن حقه المشروع.

لم يسالم الحسن (ع) باطلاً حاربه هو بالأمس، وناضله أبوه من قبله، وجاهده جدّه من قبله ومن قبل أبيه.

ولم يصافح الحسن (ع) يداً حملت السيف على جدّه في يوم بدر، وقطّعت كبد عمه في أُحد، وأطلّت دماء الأبرار في المواقف، وآخرها في التاريخ يوم صفّين .. وما أدراك مايوم صفّين.

متى تنازل الحسن (ع) عن مبدئه ليقال: إنه سالم معاوية؟. ومتى تنازل معاوية عن مبدئه ليقال: إنه سالم الحسن؟ إنه قول كاذب –دون ريب– وإن أصرّ عليه المؤرخون.

ألقى الحسن (ع) السلاح من كفه ليشهر على الباطل سلاحاً من نوع آخر، وليعدّ الفرصة لليوم القريب الذي ستأتي دورته في الزمان وموضعه من التأريخ.

من سقطات التاريخ:

ووددت لو تتاح لي الفرصة فأحاسب التأريخ عن سقطاته، ومن لي بهذه الأمنية ولو وهبت تعمير السابقين وجلد المجاهدين. قلت قبل عام في مثل هذا الحفل: التاريخ مصوّر شكلي يحفل بالأشكال الظاهرة، ويصوّر الهيئات البارزة، وقد يكون دقيقاً جداً؛ فيصور الألوان، ويرسم الحركات،

ولكنه لا يتغلغل إلى اللباب، ولا ينفذ إلى الأعماق.

ولو أتيحت لي الفرصة وحاسبت التاريخ لقلت:

إن التاريخ مصوِّرٌ مراءٍ، يمسخ الحقائق ويشوّه الصور، حتى في الأشكال البارزة والمعالم الظاهرة التي تلتقطها العدسة البسيطة.

إن سقطات التأريخ أكثر من أن تعدّ، وتنكّره لمن يخالفه في العقيدة أظهر من أن يخفى، وللتاريخ جلبة شديدة خلف السياسة، وخلف العقيدة، يستجديهما الحوادث، ويسترفدهما الوقائع.

يتنكر التأريخ حين تتنكر السياسة الزمنية، ويغضب حين تغضب العقيدة الموروثة، ويتسامح حين تتسامحان، ولو أردت أن أثبت هذه الدعوى لأقمت عليها ألف برهان وبرهان.

لو كان يزيد موفّقاً في سياسته لعرّفه التاريخ بأنه الزاهد العابد، وإن أطلّ من الدماء أكثر مما أطلّه أبوه في صفّين، وإن أراد أن يزلزل مركز الدين في يوم كربلاء، وأن يستأصل الوحي في مهابط الوحي.

سقطات التأريخ أكثر من أن تعدّ، وتنكّره لمن يخالفه أظهر من أن يخفى، وحسْبي هنا أن أذكر شاهداً واحداً يتّصل بالموضوع .. يقول التاريخ:

(لما أراد الحسن (ع) أن يسالم معاوية، زجره الحسين (ع) واشتدّ عليه في هذه الفكرة وقال له -فيما قال-: أعيذك بالله أن تسيء أباك وهو في قبره.

(فغضب الحسن وقال: علمت أنك تقول هذا، ولقد وددت أن أصيّرك في بيت ثم أطيّنه عليك حتى أفعل ما أنا فاعل).

يقول التاريخ هذا في الحسنين (ع) اللذين أذهب الله عنهما الرجس..

وبعد، فإن وجه المصلحة أظهر من أن يخفى على الحسين (ع)، فيحتجّ على أخيه الأكبر بهذه الشدّة..

وفي وداعة الحسن (ع) وحلمه المعروف ما يمنعه عن مقابلة أخيه بهذه الغلظة.

وفي أدب السبطين (ع) ما يعصمهما عن المراشقة بفضلات الكلام وأوساخ اللغة.

وليت التاريخ نقل لنا بعض هذه الشدّة من الحسن (ع) على أصحابه الآخرين الذين اعترضوا عليه في أمر المصالحة، وقالوا في كلماتهم ما قالوا.

إن الحديث كاذب -دون ريب-، ولكن التأريخ يقول ذلك، والمؤرخون يصرّون على تدوين ما يقول.

من مزالق التاريخ

تعوّدت أن أتحدث إليكم في أمثال هذه المناسبة الكريمة عن تراث النبوة في هيكـــل الإمامة، وعن طبيعة الخلافة الراشدة، وسمة الخليفة الراشد في نظر البرهان، ومن نصّ القرآن.

.. أتحدّث بهذا لا لأثبت أن الخلافة بعد علي (ع) لايستحقّها غير ولده الحســـن (ع)، فهـــذا شيء لايفتقر إلى الإثبات، ومن مؤسفات الحقائق أن يضطر قائله الى برهان. بل لأحاكم التأريخ في سقطته عام الجماعة، ماذا لوّن من حقائق، وماذا سطّر من أخطاء.

.. تعـــودت أن أتحدث إليكم عن هذه المآسي، فهل تسمحون لي أن أنصـــرف بكم -هذا اليوم- الى طرف آخر من الحديث .. إلى لون طريف من هذه المزالق التي تضعها الأهواء في طريق الآراء.

أود أن أتحـــدث إليكـــم -أيها السادة- عن آيتين كريمتين، قال سياق القـــرآن الكريم، وقال المفسّرون كلهم -على تفرّق مذاهبهم-، وقال علماء الحديـــث .. جميعهـــم -على تنوّع مشاربهم-: إن الآيتين إنما ذكرتا أهـــل البيت (ع)، خاصّة النبي (ص) الزكية، ولُحمته القريبة، وتقول الأهواء: إنما عَنتا أناساً آخرين!!.

هاتـــان الآيـــتان هما آية التطهير، وآية القربى. فهل سمعتم بأغرب من هذا؟.

آية التطهير لم تنـــزل في شأن أهل التطهير..

وآية القربى لم تفرض حبّ ذوي القربى .

هكذا يفكّر جمع من الناس، وهكذا يكتبون .. يصرفون الآيتين من قوم إلى قوم ليستطيعوا حملهما من معنى إلى معنى.

حول آية التطهير:

يقولـــون: آية التطهير نزلت في نساء النبي (ص) لأنها وردت في سياق أحكـــامهن من سورة الأحزاب!. نعم، في الدرس الذي يخصّ نساء النبي من هذه السورة، وفي المـــورد الذي يقرّر لهن مناهجهنّ في الحياة وواجباتهن في السلوك .. في هذا المجال -بعينه- وردت آية التطهير، ولكن..

أيكون هذا -بمجرده- برهاناً على أنّ الآية الكريمة نزلت في النساء؟؟.

إذن، فأين أسلوب القرآن العظيم؟، وأين الذوق العربي الصحيح، الذي يفرّق بين ضمير الذكور وضمير الإناث؟.

سمعـــنا القـــرآن يكـــلم نساء النبي في سابق هذه الآية وفي لاحقها، فيخاطبهنّ بنون النسوة[1] . وهذه هي خاصّة اللسان العربي القويم، فما باله

١ـ قال تعالى: ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأزْواجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَياةَ الدُّنْيا وَزينَتَها فَتعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَميلاً. وَإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإنَّ اللهَ أعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أجْراً عَظيماً. يـــا نِساءَ النَّبيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَها العَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلى اللهِ يَسيراً.

في آيـــة واحدة من هذا السياق الرتيب، بل وفي فقرة واحدة من هذه الآية المحكمة يجعل الإناث ذكوراً فيقول:

﴿ إنَّما يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾

وهو يقصد فريقاً خالصاً من النساء؟.

تعـــالى القـــرآن، وتعالى ربّ القرآن عن هبوط يترفّع عنه أقل عارف باللغة، وتنـــزّه العقل الحصيف والغايات النبيلة أن تنسب الكتاب العزيز إلى هذه الخطّة السحيقة.

أمـــا التغليب المألوف في اللغة العربية فليس له ههنا وجه مقبول، فقد عهدنـــا العربي إنما يغلّب الرجال على النساء إذا خاطب مزيجاً من الفريقين، أما حين يحدّث جماعة خالصة من النساء فإنه لا يكسوهن حلة الرجولة أبداً.

فالحكم بمنطوق الآية الذي لامراء فيه، والحكم لمعناها الذي لم يشكك فيـــه محقـــق من علماء التفسير، والحكم في سبب نزولها الذي لم يرتب في تصحيحه ناقد من علماء الحديث[1] .

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً. يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْـــتُنَّ كَأحَدٍ مِنَ النِّساءِ إنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً وَقَـــرْنَ في بُيوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى وَأقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتينَ الزَّكاةَ وَأطِعْنَ اللهَ وَرَسولَهُ ﴾ ويقول بعد آية التطهير: ﴿ وَاذْكُرْنَ ما يُتْلَى في بُيوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ إنَّ اللهَ كانَ لَطيفاً خبيراً﴾ الأحزاب: ٢٨-٣٤.

١ــ أخـــرج الترمذي بسنده عن أم سلمة، أن النبي (ص) جلّل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء ثم قـــال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقالت أم سلمة : وأنا معهـــم يا رسول الله؟ قال: إنك إلى خير وأخرج الحديث أيضاً الطبري في تفسيره ج٢٢ ص٦، وابن حنبل في مسنده ج٦ ص٣٠٦، وابن الأثير في أسد الغابة، وابن حجر العسقلاني في التهذيب ج٢ ص

وآية القربى.

وآية القربى هي الأخرى لم تعن ذرّية الرسول (ص) على مايدّعون.

يقولون: هي آية من سورة الشورى، وسورة الشورى مكيّة نزلت قبل الهجرة، وقبل ولادة الحسن والحسين (ع)، فكيف تفرض على الناس حبهما، وهما -بعدُ- لم يولدا؟.

أسمعتم؟ .. هكذا يحتجّون.

كأن مفسّري الآية بقرابة الرسول (ص) يقولون: إنها نزلت في نفر مخصوصين، فلابدّ وأن يكونوا موجودين وقت نزول الآية. فعدم وجودهم حال نزولها يكون دليلاً على كذب هذا التفسير.

ذكرت الآية عنواناً عاماً لفريق من الناس، وجعلت ودّهم أجراً لرسالة الرسول (ص)، فإذا عيّن التفسير الصحيح والحديث المتواتر هذا الفريق[1] ،

---

٢٩٧ والمحبّ الطبري في ذخائر العقبى ص٢١ إلى عشرات المصادر الأخرى. ويراجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج١ ص٢٢٤-٢٣٣. ويقول الرازي بعد نقله لهذه الرواية: وأعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث.

١ـ ومن الأحاديث التي عينت ذوي القربى في هذا الفريق ما ذكره في حلية الأولياء بسنده عن جابر، قال: جاء إعرابي إلى النبي (ص) فقال: يا محمد اعرض عليّ الإسلام، فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. قال: تسألني عليه اجراً؟ قال: لا، إلا المودة في القربى. قال: قرباي أو قرباك؟. قال: قرباي. قال: هاتِ أبايعك. فعلى من لايحبك ومن لايحب قرباك لعنة الله، قال (ص): آمين. وروى الزمخشري في الكشاف عند تفسيره للآية الكريمة: إن الآية لما نزلت قيل: يا رسول الله، من قربتك هؤولاء الذين أو جبت علينا مودّتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما ونقل الرواية كذلك الرازي في تفسيره وعقّب قائلاً: فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي (ص) وإذا ثبت هذا، وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم. وروى الحديث كذلك السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي

وطــبعا عــليه هذا العنوان، شمل الحكم المذكور في الآية من وُجِد من هذا الفريق ومن سيوجد، وأيّ خفاء في ذلك؟.

لاخفاء في الدلالة، ولاخفاء في المدلول، غير أن الأهواء تحاول أن تنطق بما تريد.

أيها السادة؟؟

ما أغنى المسلمين المحمديّين عن هذه الأحقاد التي تسدّ الطريق في وجه الباحث، وتحجب الضوء عن بصر المتتبّع!.

أجــل ما أغنانا بالقرآن العظيم .. ننظره مجرّدين إلاّ من نور البصيرة، متجنّبين إلاّ عن الإنصاف!!.

وما أغنانا بالسنة النبوية .. نعتمد منها ما تواتر ، ونتبع ما تُيقّن!!.

ومــا أغــنانا بأقوال الصفوة من العترة الطاهرة، نجوم أهل الأرض(١) -كمــا يقــول الأثر النبوي الكريم- ، وقربى الرسول (ص) -كما يعرّفهم القرآن العظيم-!!..

حــاتم، والطــبراني وابن مردوية. ورواه أيضاً في ذخائر العقبى ص٢٥ عن أحمد بن حنبل في المناقب، وأخــرجه الهيثمي في مجمع الزوائد" ج٧ ص١٠٣ و ج٩ ص١٦٨ وابن حجر في الصواعق المحرقة ص ١٠١ ، والشبلنجي في نور الأبصار وغيرهم يراجع فضائل الخمسة ج١ ص٢٥٩-٢٦٤.

١ــ روى في (ذخائر العقبى ص١٧) عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: قال رسول الله (ص): (النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي). وروى أيضاً عن علي(ع)، قال: قال رسول الله(ص): (النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض). وقال: أخرجه أحمد في المناقب وعلي بن سلطان في مرقاته ج٥ ص٦١٠

وما أغنانا بالبرهان العقلي المستنير، يستند على هدى الفطرة، ويستمدّ من روح العلم، ويقتبس من ضوء العقل!!.

أمـــا التأريخ المجرّد.. أما التأريخ حين يخالف هذه القطعيّات أو يخالف شيئاً منها، فلا قيمة له عند الأحرار الناقدين.

صلح الإمام الحسن (ع):

لست أكتمكم -أيها السادة- أن التاريخ كتب بأيدٍ غير نزيهة، وغير حـــرة أيضـــاً، وقد كان التأريخ والحديث في دور أمية وبني العباس أداتين عاملتين للدعاية، وكان لهما في الناس كتّاب مرتزقون.

والسياســـة التي لوّنت تأريخ عليّ (ع) وهو يحارب، جديرة أن تلوّن تـــاريخ الحسن بن علي (ع) وهو يسالم. طبيعي لهذه السياسة وقد وصلت قدمهـــا إلى الأرض عام الجماعة أن تثبت أناملها بالأرض لتستقرّ، وأن تمهّد لبقائها كي لا تتزلزل، فكان من حركتها ومن إملائها هذا التأريخ المضطرب المشوّه.

وإلاّ فكيف يقول تاريخ صحيح: "تنازل الحسن (ع) لمعاوية عن الحكم لقاء أموال معيّنة يقبضها منه في كل عام "..

كيـــف يصـــحّ هذا في قياس؟. ولنفرض الحسن (ع) -كما يريدون- طامعـــاً يحبّ كثرة المال، فهل يتنازل طامع يحبّ المال عن الخلافة الإسلامية الكـــبرى، وعـــن بيوت الأموال، وخزائن الدّولة كلها، لقاء أموال محدودة يدفعها إليه معاوية بن أبي سفيان؟.

هذا لايقبله عقل، ولا يصدّقه عاقل.

وكيف يقول تاريخ صحيح: كان الحسن بن علي (ع) يخالف أباه في العقيـــدة، ويباينه في الهوى، وكان يشادّه في ذلك إلى حدّ كبير، وكان علي (ع) يتبرّم بمخالفة ولده إياه إلى أمد بعيد، حتى أن معاوية في الشام كان يعلم مـــدى هـــذا التنازع بين عليّ وولده، وكان هذا هو السبب في عطفه على الحسن في حوادث الصلح؟.

كيف يصحّ هذا في منطق؟. ولنفرض أن علياً (ع) وولده الحسن (ع) رجـــلين كسائر الرجال يتقاربان في الرأي، ويتباعدان فيه .. لنفرض ذلك، فكيـــف يعهـــد علي إلى هذا الذي يخالفه في المبدأ، وقد كانت له مندوحة واسعة بولده الحسين (ع)، فقد كان على مبدأ أبيه بإجماع المؤرخين..

كيـــف يكـــتب هذا وذاك تأريخ صحيح، وكيف يتنـــزل إليه تفكير نيّر؟.

أتعلمون -أيها السادة- من يكتب هذه السقطات البادية العوار؟.

لا أظنكم تصدّقون إذا ذكرت لكم اسمه.

إنه كاتب شهير، وناقد يقول الناس: إنه حرّ .. إنه معالي الدكتور طه حسين في كتابه (علي وبنوه[١]) فهل تعجبون؟

لقد ذهبت قداسة التاريخ عند هؤلاء الكتّاب كل مذهب، فلا ينتقدون منه حتى التافه، ولا يهملون حتى الساقط.

١ــ يـــراجع كتاب (الفتنة الكبرى: علي وبنوه) للدكتور طه حسين ص١٩٣-٢٠٢. دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣.

لأعد من حيث أتيت، ولأقف -مرة أخرى- عند آية التطهير وآية القربى، ففيهما الردّ الكافي لهذه الأهواء: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [١]﴾.

﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْراً إِلاّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبى، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ[٢] ﴾.

صدق الله العلي العظيم.

١ــ الأحزاب:٣٣.

٢ــ الشورى: ٢٣.

فطرة الله التي فطر الناس عليها

﴿ فَأقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً، فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيها، لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمونَ. مُنيبينَ إليهِ واتَّقُوهُ وَأقيموا الصَّلاةَ وَلاتَكونوا مِنَ المُشْرِكينَ. مِنَ الَّذينَ فَرَّقوا دينَهُمْ وَكانوا شِيَعًا، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيهُم فَرِحونَ. وَإذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ؛ دَعَوا رَبَّهُم مُنيبينَ إليهِ، ثُمَّ إذا أذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إذا فَريقٌ مِنْهم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكونَ[١]﴾.

صدق الله العظيم.

عوّدتكم -أيها الإخوة الأعزة- أن أتحدّث إليكم بهذه المناسبة السعيدة: ذكرى ميلاد السبط الأول، والإمام الثاني، سيد شباب أهل الجنة، الإمام أبي محمد الحسن بن علي (ع)، ومن الله -سبحانه- نَسأل أن يجعل لنا من هذه الذكريات مَدَداً يُثبّت لنا إيماننا، وعصمة تزكّي لنا نفوسنا، ونوراً يضيء لنا معالم طريقنا، وقوّة تثبت منا أقدامنا، ومنهاجاً نتّبعه في أعمالنا وجهادنا.

هذه الذكريات التي نجدّد فيها ولاءنا لقادتنا من أهل البيت (ع)، ونوثّق عهدنا على العمل، ونصمّم عزيمتنا على الإقتداء بهم، والتمسّك بمنهاجهم، إلى آخر الشوط.

١ـ الروم: ٣٠-٣٢.

نعم، والذكريات إذا خلت من هذا الجوهر فهي خواء.

.. عوّدتكم أن أتحدث إليكم -أيها الأعزاء- بهذه المناسبة الميمونة، وقد أوحت الآيات السابقة إليّ في هذه المرّة أن أقتبس منها خطوط الحديث.

فِطرة الله:

ونقطة الانطلاق: أن الآيات الكريمة جعلت الديّن هو الفطرة .. هو الخِلقة .. هو الطبيعة السليمة المستقيمة .. هو الجِبلّة الإنسانية الأولى... الأولى التي لا التواء فيها ولا تعقيد.

« فِطْرَةَ اللهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيها » ... فكلّ ما فيها اعتدال واستقامة، وثبات ورسوخ.

وهذا أنصع الأدلة على أن الإسلام هو دين الله (الحق)، وأوضحها تجلية لحقائقه و تبييناً لمعالمه .. أفيريد الإنسان شاهداً أعدل من الفطرة، وأصرح قولاً منها، وأكثر وضوحاً من دلالتها؟!.

إن واضع الدين هو جاعل الفطرة، ومن جليّ حكمته أن شدّ أحدهما بالآخر.. فالفطرة تعترف بالدين، وتبيّن مراشده، وتوضح مقاصده، والدّين يعترف بالفطرة، وينظم مطالبها وضروراتها، ويرجع بها إلى الاستقامة إذا هي زاغت، ويجلو عنها أوضار المؤثّرات والمغيّرات إذا هي صدئت.

قلت: وهذا أنصع الأدلة على أن الإسلام دين الحق، وأوضحها تجلية لحقائقه وتبييناً لمعالمه، فالفطرة هي الدليل الذي يشترك فيه العالم والجاهل، والفيلسوف المعقّد والبدوي البسيط، ولا يمتري في حكمها عاقل أياً كانت

درجته من الثقافة، وأياً كان حظّه من الذكاء.

والفطرة هي الركيزة التي يملكها كل واحد من الناس، وإن انحرفت بها الغايات في كثير منهم، أو رانت عليها الأهواء فحجبتها عن الإدراك الصحيح.

« فأقِم وجهك للدين ».. للإسلام، للدين الحقّ الذي لاعوَج فيه ولا اضطراب، ولاتبديل ولا تحويل ..

أقم له وجهك .. أقم به أفكارك وعقيدتك وتصوّراتك. أقم به عقلك ونفسك وروحك وقلبك ومشاعرك وأحاسيسك. أقم به علائقك وحبك وحقوقك وواجباتك. أقم به كلّ ما تتوجّه إليه في حياتك.

« .. أقم وجهك للدين حنيفاً » اتجه إليه في كل ناحية من نواحي نشاطك وكفاحك. مستقيماً إليه دون سواه، ولاتمل بك المبادئ والفلسفات والنظم والأديان إلى سبل أخرى لاسند لها من فطرة، ولا دعامة لها في فكرة.

« فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها » وهذا هو الدليل المأمون المضمون الذي يعرّفك ما يجب اتّباعه من المناهج، ومالا يجوز. فاستفتِ الفطرة، وانتهج السبيل، أليس الدّين الحق ما واءَم الفطرة، وواكب نواميس الخلق؟.

أليس اتفاق الفطرة والدين يدلّ على أنهما من مصدر واحد؟، وأنهما ينهجان بالإنسان وبالحياة إلى غاية واحدة .. إلى الكمال الأعلى؟.

« لاتبديل لخلق الله » إنها نواميس ثابتة، لم تتبدّل ولن تتبدّل، ومقتضياتها التي تنبثق عنها وتدور في ركابها ثابتة كذلك، لم تتبدل ولن

تتبدل، ودين الله (تعالى) إنما شُرّع ليوجّه الإنسان إلى تلك الغاية المعيّنة، وفي ذلك السبيل المحدّد، فهو ثابت كذلك.

« ذلـــك الديـــن القيّم، ولكن أكثر الناس لايعلمون »، واستقامة هذا الدين آتية من مواكبته للفطرة المستقيمة..

.. ومن أنه أحد النواميس الكونية الثابتة التي وضعها ربّ الكون، فلا تبديل ولا تحويل.

« منيـــبين إليه، واتّقوه وأقيمو الصلاة، ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعَاً كل حزبٍ بما لديهم فرحون ».

وهـــذه نماذج من إقامة الوجه للدّين .. نماذج تمثل وجوهاً من نشاط الإنسان في هذه الحياة..

« أقيموا وجوهكم للدين حنيفاً، مُنيبين إليه » منيبين إلى الله، راجعين إليه في كل صغيرة وكبيرة، وعلانية وسريرة..

.. إنـــه نمـــوذج مـــن نماذج إقامة الوجه للدين، وإنه وجه من وجوه الاستقامة مع الفطرة، لأنها تتعلّق بخالقها، وتشعر كل مخلوق أن ينيب إليه.

« واتّقـــوه وأقيموا الصلاة، ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعَاً كل حزبٍ بما لديهم فرحون ».

وتقـــوى الله (سبحانه) واستشعار الخشية منه، وإقامة الصلاة خالصة لوجهـــه، وتوحيده بنفي الأنداد والأضداد عنه، ومنابذة المشركين في سبيله، وتوحيـــد الدين، وتوجيه الصفّ والهدف، في ظل وحدة الله (تعالى) ووحدة الفطرة وثباتها واستقامتها .. كل هذه من معاني إقامة الوجه للدين.

والفطـــرة وإن انحرفت بها الغايات في كثير من الناس، أو رانت عليها الأهـــواء فحجبتها عن الإدراك الصحيح، إلاّ أنها لاتعدم بصيصاً من النور، تـــرجع إليه حين يضعف تأثير تلك المؤثّرات.. حين يقع الإنسان في لهوات الشـــدائد، فتشغله عن أي مؤثّر وتأثير، وترجع الفطرة إلى طبيعتها ويكشف عن حجابها:

« وإذا مـــس الناس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يُشركون ».

وإلى هـــذا البصيص من النور الذي يجده المنحرفون في ساعات الضرّ يُرجعهم القرآن، ليتعرّفوا دلالة الفطرة وحكمها الصريح.

حسين مني وأنا من حسين

ما هذه الحبسة التي ملكتني من يومين، وأنا أريد أن أعدّ هذا الحديث؟

ما للكلمات تموت على شفتيّ حتى كدتُ أن أيأس، وأن ألقي اليراع؟

ثم مالي أريد أن أقول يا للبشرى، فيكتب قلمي يا للأسى، فهل أنا في حفل مولد أم في ذكرى شهادة؟

لا أكـــتمكم –أيها السادة- أني بكيت قبل أن أكتب، وبكيت بعدما كتبت، وما أدري ما هو شأني إذا وقفت لأقرأ لكم ما كتبت؟

مــــا هـــذه العاطفة العاصفة التي لاتفارق ذكر الحسين (ع) حتى عند الابتسامة لميلاده؟

وقـــد قال الأثر الكريم: إن الرسول (ص) بشّر في يوم ميلاده فبكى، وأنـــه دخل على ابنته الصديقة (ع) ليهنئها بوليدها فبكت، وأن أهل البيت الطاهر (ع) قد استقبلوا هذا الوليد الحبيب بالابتسامات والدموع.

.. بدمـــوع الحـــزن .. نعم، وأحزان أهل البيت هي الأفراح لهم في الصميم!!

أحـــزان أهـــل البيت (ع) هي أفراحهم الأثيرة عندهم، لأن الغايات العظمى التي أنيطت بهم لاتتحقق إلاّ بهذه الأحزان.

وكـــان الســـهم الذي ينالونه من قِبَل هذا الوليد هو السهم الأوفر،

ولذلك كان بمقدمه أكبر، وعلى ذلك المقياس الخاص بهم كان فرحهم بمولده أكبر.

الحسين شريك جده (ص):

أيها السادة..

يقول العلماء -وهم يفسرون كلمة الرسول (ص) المشهورة أو المتواترة: (حسين مني وأنا من حسين)..

.. يقولون: إن الكلمة تعني أن الحسين (ع) شريك جدّه في الدعوة.

ومن عقائد شيعة أهل البيت: أن الأئمة الإثني عشر (ع) أجمعين شركاء لجدهم الرسول (ص) في الدعوة، فهو المؤسّس لها، والقيّم الأكبر عليها، وهم -من بعده- الأمناء القوّامون على حفظها .. فما هذه الخاصة التي يعنيها العلماء بقولتهم تلك؟

إن الجواب عن هذا -مبسطاً- يتشعب به القول ويطول، وحسْبي أن أقف على ناحية واحدة تتصل بموضوعي الذي بدأت به الحديث.

إن الإسلام دين الله العظيم الذي اصطفاه للناس، وتوّج به الشرائع، وختم به الأديان .. إن هذا الدين منهاج إنساني متكامل، شرّعه الله لتنظيم هذه المجموعة الضخمة من الغرائز والعواطف والمشاعر والأحاسيس .. لتنظيم هذه المجموعة التي يسمّونها (الإنسان).

والإنسان -كما تعلمون- موجود واحد، وركائزه النفسية المذكورة، وإن كثرت وتنوعت آثارها واختلف تأثيرها، إلاّ أنها متشابكة متداخلة،

ووحدهمـــا- بعْدُ- آتية من قِبَل القوة الحيوية الواحدة، التي تحرّك جميع هذه القـــوة، والطاقـــة العامة الواحدة التي تمدّها، والإرادة الإنسانية الواحدة التي تصرّفها، والعقل المفكّر الواحد الذي يملك أن يتحكّم فيها.

ومـــن أجـــل هـــذه الوحدة بين نواحي الإنسان، وهذا التّشابك بين غاياتـــهـــا، وبـــين مجالات نشاطها، أصبحت كذلك متبادلة التأثير، فلكل واحـــدة مـــنها أثر قويّ أو ضعيف في سلوك الأخرى، وفي اتجاهاتـــها إلى أهدافها.

والدّين الذي يروم إصلاح الإنسان وتقويم أخلاقه وضمان الخير الأعلى له في حياته هذه الأولى المنقطعة وفي حياته الأخرى الدائمة، لا محيد له من أن يسع هذه النواحي كلّها تنظيماً، ويعمّها تهذيباً وإصلاحاً.

وكيف يبلغ غايته إذا هو لم يصنع ذلك؟

بل، وكيف يمكنه أن يُصلح بعض نواحي الإنسان دون بعض إصلاحاً حقيقيـــاً كـــاملاً، بعـــد أن كانت لها هذه الوحدة الملحوظة، وهذا الترابط المحسوس؟

وهـــذه المحاولة البلهاء هي السقطة التي مُنيت بها المسيحية القائمة، لّما وزّعـــت هـــذا الكـــائن إلى جسد وروح، ثم حاولت إعلاء الروح بإرهاق الجسد، وكبح غرائزه..

أقـــول: هي السّقْطة التي منيت بها المسيحية القائمة المخرّقة، وإلاّ فإنّ دين الله الذي أنزله على السيد المسيح (ع) أسمى من هذا التفكير.

عموم الهدى يتطلّب عموم التربية:

الإسلام منهاج متكامل، شرّعه الله لتنظيم علاقات الإنسان وسلوكه، وتهذيب غرائزه وعواطفه، وإصلاح سرّه وعلانيته، وأعماله وصفاته..

وبدهيّ أن الدين لايستطيع أن يدرك هذا المدى من الإنسان، وأن يحقق لـه هذه الغاية ما لم يثبّت عقائده و أسسه في عقل الإنسان ومشاعره، وما لم يمتزج بعواطفه وأحاسيسه، وبلحمه ودمه.

وكيف يملك أن يهدي العقل ما لم يتّصل بالعقل؟

وكيف يقوى أن يوجّه العاطفة ما لم يمتزج بالعاطفة؟

وكيف يقدر أن يهذّب الأخلاق والعادات ويصلحها إصلاحاً جذرياً ما لم يتّصل بينابيعها من النفس، وبجذورها من الطبع؟

إن الدواء –مهما احتوى تركيبه من العناصر القوية الفعّالة– لن يحقق الشفاء حتى ينفذ إلى مكمن الداء، وإن الدّين –مهما جمع تشريعه من دقائق الحكمة– لن يقوّم طباع النفس حتى يصل إلى أعماق النفس.

والبراهين التي عضدت هذه الدعوة في كتابها الكريم، وفي حديث رسولها العظيم (ص) تنير آفاق النفس من الإنسان، كما تضيء آفاق العقل، فهي مدد للفكر ليقتنع، وهي مدد للقلب ليؤمن، وهي مدد للمشاعر والعواطف، ومنافذ الشعور ومصادر الإحساس لتعترف وتتوجّه.

وبرهنة القرآن قوليّة حين تمدّ الفكر، وفعليّة تمثيلية حين تكون مدداً للنواحي الأخرى.

ولكـــن العاطفـــة -أيها السّادة- ولكن هذا الشعور الرقيق .. ولكن خفقـــة القلب الإنساني بالجمال، تبغي ما هو أقرب من ذلك وألصق .. إنها تبغي قرباً .. تبغي امتزاجاً..

لقد تعودت عاطفة هذا الكائن أن لايشفيها إلاّ القرب، فلابد للدعوة أن تلج العاطفة وتمتزج بها.

فكيف السبيل؟.. وكيف الوصول؟

إلاّ بدم الفداء من وريد أبي الشهداء.

وقد قام حسين بهذا الدور من الدعوة، أفليس شريكاً لجده فيها؟

خلود الأيام في مقاييس الإسلام

في استقبال الوليد:

.. وابتسم الصبح لليوم الثالث من شهر شعبان عام أربعة للهجرة .. وابتسم الإسلام يحيّي القائد الرابع من قادته الميامين، وشعّت دار فاطمة بالأنوار، واستُقبل القادم الحبيب بالتكبير والتهليل.

وخفّ الرسول (ص) إلى فاطمة (ع) .. إلى مشرق النور، ليلقي على وليده وخليفته أول نظرة، ويستقبله بأول ابتسامة، ويطبع على فمه أول قبلة .. ثم ليضع على جبينه المشرق أول وسام .. أول دمعة.

والتقت نظرتان حبيبتان سعيدتان، ليس في الدنيا أسعد منهما ولا أغبط، ثم التقت شفاه .. وسكبت دموع.

وانكفأ محمد (ص) ومِلء نفسه آمال، ومِلء قلبه أفراح وأحزان، وأعيد حسين إلى ذراعي علي (ع)، ثم إلى حجر فاطمة (ع) ليستقبل منهما مثل ما استقبله من جدّه الرسول (ص).

للغيب وحده تفسير كل هذه الظواهر والأحداث.

وأشرقت الشمس عن يوم خالد من أيام الإسلام، بَرّ الإسلام فيه بكثير من وعوده، وعقد به كثيراً من ضماناته، والأسرة العليمة المجاهدة، ووليدها الميمون في حلم سعيد من هذه الوعود التي تُنجز، ومن هذه الضمانات التي

تعقد، وفي أسى عميق من الثمن الذي يدفع، والفداء الذي يبذل.

الخلود في الحق:

يوم من أيام الإسلام الخالدة، وخلود الأيام -في مقاييس الإسلام- ليس مـــداه الـــتأريخ ولا الـــزمان، ولا حسبان الحاسبين من الناس، ولا تقدير المقدّريـــن، ولكـــنه خلود في الحق من أجله قام الإسلام، وفي سبيله كانت مواقفـــه وتضـــحياته، ثم على التأريخ والزمان والناس أن تسير خاضعة في الركاب.

أما تخليدها منّا -نحن المسلمين- فهو بمقدار ما نقبس منها من نور، وما نفيد من إيمان، وما نجدّده للحق فيها من بيعة وولاء، وما نقدّمه -وفاء بهذه البيعة- من إخلاص وعمل.

.. مـــا نقبسه من هدى تلك الأيام من نور يضيء لنا سبلنا، وما نفيده من إيـــمان يُثبّت عقائدنا، ويجلو بصائرنا، ثم ما نجدّده من بيعة للحق تصلنا به وتُخلصنا له، وتثبّت أقدامنا في الدعوة إليه، والجهاد لإعلاء كلمته.

ومهمـــا دجـــت الدياجي، ومهما تلبّدت الغيوم وعصفت الأعاصير، كـــانت حاجتنا إلى ذلك النور أشدّ، وكان اضطرارنا إلى توثيق ذلك الإيمان الهادي، وإلى تجديد تلك البيعة الخالصة أبلغ وأوكد.

والـــنفوس البشرية -بطبيعتها- مفتقرة إلى هذا التعهد، وهذا التجديد. فالفكـــر البشريّ يُقبل ويُدبر، وينشط ويعيى، ويستقيم وينحرف، وتعترضه العوارض وتعتاقه العوائق، وتؤثر فيه وفي عمله المؤثرات.

والوعـــي البشري يستيقظ ويخمد، ويقوى ويضعف، ويغفل وينسى، ويصدّ ويراوغ، والنفس تصدّها الألفة وتستغفلها العادة.

والإيمـــان - مـــن جـــرّاء هذه المؤثرات -، - من داخل النفس ومن خارجها- يكون عرضة للضعف والزلل، بل وقد يكون عرضة للزوال..

والإيمـــان -ذاته- يختلف من نظرة إلى نظرة، ومن ركيزة إلى ركيزة، ومن دليل إلى دليل.

ومن أجل هذه المؤثرات تنوّعت أساليب القرآن في تقديم الهدايات إلى الناس، وتنوّعت طرائقه في تنبيههم، وفي صوغ الأدلة وعرض الشواهد على أنظارهم وأفكارهم، وتفنّنت في إيقاظ مشاعر الإنسان، وتنبيه فطرته وإثارة شـــتى أحاسيســـه وانفعالاته، ثم تحريضه ليفكّر واعياً يقظاً فيما يعرض عليه الكـــتاب الكريم من دلالة، وما يقيمه له من شهادة، وما يلفته إليه من بيّنة، فلا تصدّه عن التفكير الحازم الواعي ألفة أو اعتياد.

إن الحكمة القادرة القاهرة زوّدته بأدوات التفكير، وبثّت أمامه في هذا الملكوت الفسيح العظيم آيات التقدير .. فلينظر، وليفكّر بجدّ، وليثبّت إيمانه على قاعدة من الفكر وأقوى ركيزة من الفطرة .. ليفكرّ .. وليستنتج .. إنْ كان ممن يهمّه أمر مبدئه ومعاده.

أمّـــا الذيـــن لا ينتفعون بمدركاتهم، أو الذين لايرتفعون بإدراكهم عن حواسّهم، فقد ذكرهم الكتاب الكريم فقال:

﴿ وَلَقَـــدْ ذَرَأْنَـــا لِجَهَنَّمَ كَثِيْراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لايَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لايُبْصِرُون بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لايَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُون(١) ﴾.

هـــذه هـــي قيمـــتهم، وتلك هي غايتهم، أفلا يربأ الإنسان بنفسه أن يرتكس إلى هذا الحضيض؟

هذا أحد أساليب القرآن التي يصكّ بها مسمع الإنسان ليفكّر، وينتفع بتفكيره.

ما موقفنا؟

قلت: إن تخليد أيام الإسلام منّا -نحن المسلمين- بمقدار ما نقبس منها من نور، وما نفيد من إيمان، وما نجدّده للحق من بيعة وولاء، وما نقدّمه -وفاء ببيعتنا- من إخلاص وعمل.

هذا هو مدار الخلود في مقاييس الإسلام، وهذا هو سرّ التقديس لأيامه ولعظمائه.

صـــلة دائمة بالحق، وفكرة عامرة برشده، وسبيل مشرق المعالم بنوره، وعمـــل دائب في الدعوة إليه والذود عن حياضه.. فما موقفنا نحن من هذه الشروط؟

مـــا موقفنا نحن، وكلّ ناحية من أمورنا تقتضينا العمل، وكل شيء مما يحيـــط بـــنا يقتضـــينا الانتباه، وكتاب الله بين أيدينا يأمرنا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر؟

مـــا موقفنا نحن من هذه الواجبات التي يشترطها الإسلام على أتباعه؟،

١ــ الأعراف: ١٧٩.

وما مدى استجابتنا لنداءات كتاب الإسلام وزعماء الدين وقادة الحق؟

ولا أعدد، ولا أحدد، فقد يطول بي التعداد والتحديد، ولكني أقول: إن أمر الإسلام -أيها الإخوة- أعظم من أن يتلقّى بمثل هذا البرود.

.. مـــاذا أعددنـــا لتربية ناشئتنا وهم أمانة الله في رقابنا؟، ماذا أعددنا لتربيتهم وحصانتهم من خطر الأوباء، وصيانتهم عن تيّارات ملوّنة تتقاذفهم ذات اليمين وذات الشمال؟

.. إن الإســـلام يحتّم علينا أن نضمن لهم تربية إسلامية موجّهة، فهل قمنا بعمل يذكره لنا الإسلام في هذا السبيل؟

وحياتـــنا الحضـــارية الـــتي طمت عليها المادّة، وطغت عليها الشهوة، واحتكمت بها الأهواء والأغراض حتى فقدت كل سمة من سمات الإسلام .. ماذا أعددنا لتوجيهها الوجهة الصحيحة، التي لاتجعلنا -على أدنى الفروض- قوماً متناقضين؟

إن الإســـلام يحـــتّم علينا أن نلتزم منهاجه في كل خطوة، وأن نولّي وجوهـــنا شطره في كل حركة، فهل عملنا شيئاً يحمده لنا الإسلام في هذا السبيل؟

وقـــد قلت لكم -أيها الإخوة- إني لا أعدّد ولا أحدّد، ولكني أذكر أمثلة من وضعنا الراهن، لنعرف مدى انطباقها على مناهج الإسلام.

آن لـــنا أن نعـــترف بأخطائـــنا، وأن نستعين الله (جلّت قدرته) على إصلاحها، ثم نبدأ العمل جادّين، والله معين كل عامل، وناصر كل مصلح.

آن لنا أن ننطلق مع إسلامنا كما يريد، لنبلغ به الغاية التي نريد.

لنـــتفاهم، فالإصـــلاحات العامّة لاتكون دون تفاهم. ولنتعاون، فإن الثمار الطيبة منها لاتنال دون تعاون. ولنبذل ما نستطيع بذله في هذا السبيل، فإن الغايات السامية لاتمنح بغير ثمن، ولاتدرك بغير جد.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [1] ﴾.

وصدق الله العلي العظيم.

١ــ محمد: ٧.

المصلح المنتظر

﴿ وَنُـــرِيْدُ أنْ نَمُــنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئمَّةً وَنَجْعَــلَهُمُ الوَارِثِيْـــنَ، وَنُمَكِّـــنَ لَهُــمْ في الأرْضِ، وَنُرِيَ فِرْعَونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَاكَانُوا يَحْذَرُونَ[1] ﴾.

﴿ وَعَـــدَ اللهُ الَّذيـــنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ كَمَـــا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِيْنَهُمُ الّذي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً، يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئاً [2] ﴾.

رسالات السماء والمصلح المنتظر:

اتفقت رسالات السماء أجمع، على البشارة بالمصلح المنتظر، الذي يقيم العـــدل، وينسف الجور، ويطهّر الأرض من فساد يغمرها، ويطبّق أرجاءها، ويثقل مناكبها بما تكسب أيدي الناس.

اتفقـــت رسالات السماء أجمع على البشارة بهذا المصلح المنتظر، حتّى ماحُرّف من هذه الأديان عن وجهته الصحيحة، ولعبت به الأهواء والآراء، واتفق معها كثير من الأديان الأخرى التي وضعها ابن الأرض ونسبها افتراءً

١ــ القصص: ٥-٦.

٢ــ النور: ٥٥.

إلى وحي السماء.

اتفقت رسالات السماء على ذلك، فكلّها تُبَشّر، وكلّها تنتظر، وأكثرها يصف خروج هذا المصلح العظيم، ويذكر ملامحه، ويشير إلى سيرته، وصفات الزمان الذي يخرج فيه.

وسِرُّ الاتفاق بين الأديان على هذا الأمر، والتعاقد الكامل بينها على ذكره والتأكيد عليه: أن هذا المصلح المنتظر هو أمل الأديان الذي يحقّق لها غايتها، ويتمّ أشواطها ويطبّق مناهجها، ويقيم عدل الله على جديد الأرض، فلاميل ولاجور ولا عسف.

وهو أمل الإنسانية الذي تسمو به عن موارد الهون، ويأخذ بيدها إلى الخير الأعلى، ويجذّ أيدي العابثين بمقدّراتها، ويدكّ صروح المتحكّمين في شؤونها، المستهزئين بقيمها ومُثُلها.

أمل الإنسانية ورجاؤها الذي يشدّ قلب الضعيف، ويطامن من غلواء القوي، ويهذّب شذوذ المنحرف.

وهو أمل الحياة الذي يقوّم أودها، ويوحّد أنظمتها، ويقود مسيرتها. نعم، ولولا هذا الأمل المرجوّ أن تبلغه الأديان وتبلغه الإنسانية والحياة في يوم من الأيام، لكانت الحياة نَكَداً من النّكَد، وشراً مستطيراً من الشر، وعبأً ثقيلاً على الأحياء، وما حياة شيء يعيش محطّم الأمل، مقطوع الرجاء، مجذوذ الغاية؟

للأديان غاية واحدة:

إن الأديان التي أنزلتها السماء كافة تهدف إلى غاية واحدة، هي إقامة العدل التامّ في هذه الأرض، العدل في الفرد، والعدل في المجتمع، والعدل في الأخلاق، والعدل في المعاملة، والعدل في الحكم.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ[1] ﴾.

هذه الغاية التي من أجلها أرسلت الرّسل، وأنزلت الكتب، ووضعت الشرائع والمناهج والموازين: « ليقوم الناس بالقسط ».

ليقوم الناس كلّهم بالعدل في كلّ مجالات العدل، ليقوم الفرد منهم والأمة، والرئيس والمرؤوس، والسائس والمسوس، بهذه الوظيفة ويرتفعوا إلى هذه القمّة.

لهذا الأمر أنزلت الأديان، وعلى هذا تتابعت، يقفو بعضها بعضاً، ويشدّ بعضها أزر بعض، وعلى هذا ﴿ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيْمُ [2] ﴾.

فالأديان -كافّة- تهدف إلى هذه الغاية، وهي تمدّ أبصارها إلى مؤمَّل منتظَر يحقّق لها هذا الهدف، لأنها توقن أنها من وضع الله (عز وجل)، وتصميم حكمته، وغاية الله لابدّ وأن تتحقق في يوم من الأيام.

١ـ الحديد: ٢٥.

٢ـ الأنعام: ١١٥.

الإنسانية فطرت على التكامل:

وإن الإنسانية قد فُطرت على التسامي والتكامل في صفاتها وسماتها، وقد أعدّت لذلك جميع قواها، وأهّلت له جميع طاقاتها، فهي تهدف إلى الكمال الأعلى في كل ناحية من نواحيها، وهي تسير قُدُماً إلى هذا الهدف ما أمكنها السير، وترتفع ما أمكنها الارتفاع.

ولكن العوائق التي نشرتها الأهواء، والمزالق التي بثّتها الشهوات والشبهات على طول الطريق، هي التى تصدّها عن الغاية، فهي في كفاح دائم، وصراع عنيف شديد، بين ما تقتضيه الفطرة وما تصنعه البيئة، وهي تطمح ببصرها إلى مُصلح ينقذها من هذه الأسواء والأدواء.

وإن الحياة تحكمها أنظمة رتيبة تسمو بها -إذا هي اتُّبِعت- إلى خير ما يمكن، وتوجّه كلّ شيء فيها إلى أفضل ما يستطاع، بل وإلى خير ما ينبغي أن يكون.

ولكن الحواجز التي أقامها الإنسان المنحرف في وجه هذه النُظم، والسدود التي وضعها في سبيلها، هي التي أعاقت السير، وأبعدت الغاية، وفرّقت المسيرة، وربما قادتها إلى درْك سحيق.

فالحياة تنظر إلى أنظمتها الرتيبة، وإلى غايتها الرفيعة، وإلى انحراف هذا المخلوق الذي أشاع فيها الفوضى، وكدّر الصفاء، وهي تطمح إلى المصلح الذي يزيل الحواجز، وينسف السّدود، ويقود المسيرة، ويحقق للحكمة الإلهية غايتها العليا من خلق الحياة وجعل الأنظمة.

إن رسالات السماء لتؤمل وتنتظر، وإن الإنسانية لتؤمل وتنظر، وإن الحياة لتؤمل وتنظر، وإذا لم يكن هذا المؤمّل الذي تنتظره الأديان، وتنتظره الإنسانية، وتنتظره الحياة، من خلفاء محمد (ص) رسول الإنسانية ونبي الحياة، فمن يمكن أن يكون؟

وإذا لم يكن هو البقية من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فمن يمكن أن يكون؟

وإذا لم يكن هو البقية من أُولي القربى الذين فرض الله حبّهم، وأوجب حقّهم، فمن يمكن أن يكون؟!

اتفقت الأديان على البشارة بالمصلح المؤمل، ولكن الإسلام -دين الله الخالد- أصرح الأديان قولاً في ذلك، وأكثرها بياناً وأشدّها تثبيتاً، لأن المصلح المنتظر آخر خلفائه، وختام قادته.

وهو أكثرها قولاً وأرفعها صوتاً في ذلك، لأن الأمر يرتبط بالإمامة إحدى عقائده وأحد أسسه.

وهو أكثرها قولاً وأرفعها صوتاً في ذلك، لأن الأمر يرتبط بمستقبل أمته ومصيرها، وثباتها على الحق، ورسوخها في الإيمان.

حديث الثقلين والمصلح المنتظر:

أيّها الأعزة:

يقول الرسول الكريم (ص) في حديثه المتواتر الذي لايختلف فيه المسلمون: «إني مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن

تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

وهـــذا الحديث من إشراقات النّبوة، وأنوارها الباهرة الخالدة، ما بقي الدهر وما بقي الفكر الصحيح، وهو ينير لنا آفاقاً كثيرة في الإمامة والعصمة والحجة الدائمة الباقية.

إن الرسول (ص) في حديثه هذا يعرّفنا أنه لابدّ لكتاب الله في كل زمان مـــن قـــرين من العترة لا يفارقه ولا ينفصل عنه، معصوم كعصمة الكتاب، محفـــوظ كحفظه، مصون كصيانته، لن تضل الأمة أبداً ما إن تمسّكت به، وســـارت عـــلى رشده، ولن تتمسّك بالكتاب إلاّ إذا استمسكت بالعترة؛ لأنهمـــا لـــن يفترقا أبداً في صدر ولا ورد، ولامبدأ ولا غاية، ولاوجهة ولا زمان، حتى يردا على الرسول الحوض.

وإذن فلابـــد للكـــتاب في هـــذا الزمان من قرين من العترة، معصوم كعصـــمة الكتاب، مصون كصيانته؛ لأنهما -كما يقول الرسول (ص)- لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض.

فـــإذا كان الخلفاء المعصومون من عترة الرسول (ص) اثنى عشر نقيباً، وهو الذي أثبتته البراهين التي لاتقبل الارتياب.

.. وإذا كـــان أمد الخليفة الحادي عشر منهم (صلوات الله عليهم) قد انتهى في أواسط القرن الثالث للهجرة، فلابدّ وأن يكون الخليفة الثاني عشر موجـــوداً مصـــوناً، لايفارق الكتاب ولا يفارقه الكتاب، كما يقول جده الرسول الكريم.

وقــد شاءت الحكمة أن لاتُظْهِر هذا المصلح إلاّ بعد أن يُكمل الإنسان خــبطه، ويلمس الخطر المحدق بجميع تجاربه، وبعد أن يوقن - حق اليقين - أن تجاربه ومحاولاته لاتثمر له إلاّ خساراً ودماراً.

هنالك ينبثق النور، وتنجلي الظُلمة، ويبدو الحق، ويزهق الباطل.

﴿ وَنُــرِيْدُ أنْ نَمُــنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَــلَهُمُ الوَارِثِيْــنَ، وَنُمَكِّــنَ لَهُــمْ فِي الأرْضِ، وَنُرِيَ فِرْعَونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَاكَانُوا يَحْذَرُونَ[1] ﴾.

صدق الله العظيم .

١ـ القصص: ٥-٦.

حركات العلويين في التأريخ(١)

لم أجـد كالسياسـة معـنى مطّته الأهواء، ولوّنته الأوهام، وتلقّفته المشتهيات.

و لم أجد كالسياسة معنى ترفّع الإنسان في تفسيره ثم أسَفّ في تحويره..

مطّـته الأهـواء فطـال ثم طال، واتّسع ثم اتّسع، وانداحت حدوده، وتـباعدت أشـكاله، وتباينت سماته وغاياته، حتى عمّ الجد والهزل، وشمل الصواب والخطل.

فعـدلُ الراعي في الرعية نحوٌ أصيل من أنحاء السياسة، وظُلم المستبدّ في الأمة لون خالص من ألوانها.

وتقلّب الحاكم في إقامة الحق، وإشادة الباطل نمط صحيح من أنماطها، وضعفه عن اتّخاذ أي خطة نهج صريح من مناهجها.

وحـتى ريـاء المـرائي، ونفاق المنافق، وخداع المخادع، وتلوّن ذي الوجوه، وتقلّب ذي المطامع..

كلّ هذه من فنون السياسة كذلك.. بل هي الفنون الصحيحة فيها!!

أرأيـت أولـئك الذيـن ينتقدون سياسة علي (ع) لما باغت معاوية

١ـ مقدمة لكتاب (الحسنيون في التأريخ) لمؤلفه فضيلة الشيخ محمد الساعدي .

بالعزل.. وسياسته الثانية حيث لم يعنت مناوئيه في المدينة، ولا معارضيه في الكوفة، وسياسات له أخرى تكمل له هذا الشوط، وتنتظم في هذا السلك؟؟

إنها مآخذ ناجمة عن الفهم الملتوي لمعنى السياسة، وعن الترهّل العجيبِ الواقع في حدودها.

مفهوم السياسة في الإسلام:

السياسة تدبير شؤون المملكة، وتنظيم أمور الرعية..

والـــتدبير لابـــد له من الخطط المُحكمة، والتنظيم لابد له من المناهج الرشيدة، عنها ينتهل السائس، وإليها يستند، ولآثارها يقتفي.

لابد من الخطط، ولابد من المناهج، ولابد وأن تكون الخطط والمناهج مشتقة من الدستور الأساسي للدولة.. قائمة على الأصول المقررة فيه، متّفقة مع الروح التي أوجدته، أو التي يراد إيجادها بسببه.

.. أما اتّباع الهوى، والاندفاع إلى المشتهيات، والافتنان في وجوه الحيلة لكســـب هذه المطامع بأي سبيل اتّفق، وبأي وسيلة حصلت.. أما هذا فهو سجيّة بهيمية خالصة، وإن استطاع ذلك الإنسان أن يُلبّس على البسطاء: أنه تدبير صالح، وأنها خطة رشيدة، بل وإن استطاع أن يوهم نفسه بذلك.

ولـــلحكم في الإســـلام أنظمة تحمل طابع الدّين، وتتّسم بكل سماته، وتتصل بعامّة رسومه وتخومه.

ولـــلدولة في الإسلام دستور أساسي خاص، ترتبط به سياستها، وتشتقّ منه خططها ومناهجها..

والسياسة الصحيحة التي يقرّها الإسلام، ويوجب الخضوع لها، هي هذا النوع الذي يقوم على أصوله وينطبع بروحه..

والإسـلام لا يـأتي بشيء جديد في هذا المجال، فهذا هو الحد الواقعي لسياسة أي دولة تقوم على مبدأ، وتنهض على دستور.

والسائس المسلم لا مَعدِل له عن هذه الخطة، إذا أراد أن ينتهج سياسةً يعترف بها دين الإسلام، وإذا أراد أن ينفّذ أحكامه باسم الإسلام.

سمات الحاكم الأعلى في الإسلام:

ومن جهة ثانية..

فـإن القيّم على الحكم في هذا الدين قيّم على جميع أحكامه كذلك، يمهّد لتعميمها على الأفراد، ويرعى تنفيذها في الأمة، ويدأب في صيانتها من التحريف، ويمكّن لاحترامها في النفوس، ولانطباع آثارها في القلوب.

ذلـك أن الإسـلام موحّد النظرة، موحّد الأحكام، موحّد الغاية، لم يفصل ناحية عن ناحية، ولم يفرد تشريعاً عن تشريع، فكل تشريعاته لإقامة العـدل، وكـل أنظمته لصون الحق.. العدل التام في صياغة الفرد وفي بناء المجتمع، وفي الحكومة والرعيّة، وفي الرؤساء والمرؤوسين.. والحق الصريح في كل اتجاهات الإنسان، وفي كل غاياته.

من أجل هذا كان الرسول (ص) هو الرئيس الأعلى للحكومة المسلمة في عهد الرسول (ص).

ومـن أجل هذا وجب أن يخلف الرسول (ص) على الحكم من يماثله

حقّ المماثلة..

مـــن يماثله -حق المماثلة- في العصمة لأنه قيّم الله (تعالى) على العدل الـــتام، ويماثله في العلم لأنه نائبه في حفظ الشريعة، ويماثله في صفات أخرى يتوقّف عليها تحقيق هذه الغاية.

هذه طبيعة الحكم في الإسلام، وهذه سمات الحاكم الأعلى الذي يعترف بـــه؛ وإذن فكيف يؤمل من هذا الحاكم أن يتسامح في واجب من واجبات الدين، أو في محظور من محظوراته؟

وكيف يؤمل منه أن يميل به هوى، أو يخفّ به ميزان؟..

بـــلى، قد تجمح ظروف، وتنشز أحوال تضطرّ السائس أن يختار أخفّ الضررين، أو يرجح أهمّ الواجبين، وهذه قواعد ثابتة وضعها العقل وأمضاها الشرع لتنسيق هذه الحوادث.

هذه خطة الإسلام في الحكم..

.. تمهيـــد للعدل العام من ينبوعه في نفس الفرد، وبسط لفكرته المطلقة عـــلى أعمال المرء وعلى كل أخلاقه، وتنفيذ لمنهجه الشامل في كل شؤون المجتمع وفي كل علائقه.

الإسلام ونشر الحق:

وللإسلام ولوع شديد في نشر الحق وإقامة العدل..

يحتّم ذلك كون الإسلام دين الله اصطفاه للناس كافّة، وإنّ ﴿ مَنْ يَبْتَغِ

غَيْرَ الإِسْلامِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِيْنَ [١] ﴾.

ومــن آثــار هذا الولوع: مبدأ إرشاد الجاهل الذي شُرّع وجوبه في الإســلام، وقانون نصرة المظلوم، ونظام الأمر بالمعروف، وقاعدة النهي عن المــنكر.. ثم هذه الولاية المتبادلة بين آحاد المؤمنين على إقامة هذه الأصول، والتواصي فيما بينهم بالحق، والتواصي بالصبر:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَــنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيْمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيْعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ، إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيْمٌ [٢] ﴾.

وإلى هــذه الأصول يردّ كثير من حركات العلويين في تأريخ الإسلام. ولا أدّعــي أنهــا مــردّ جميع هذه الحركات؛ فإنّ ذلك غلوّ لا مُبرِّر له، بل وشطط لا مستند له.

نعــم، إليهــا يردّ كثير من حركات هؤلاء، بل وكثير من الحركات الأخرى التي وقعت في تأريخ الإسلام.

وحُرّف منهاج الإسلام ؟

حــرّف المــنهاج الذي خطّه الإسلام للأمّة في شأن الزّعامة الكبرى، وركــبت الأمــة رؤوسها في هذا المجال، وهذا شيء لا يختلف فيه أحد من المسلمين.

١ــ آل عمران: ٨٥.

٢ــ التوبة: ٧١.

إنهم لا يختلفون أبداً في وقوع هذا التحريف، ولكنّهم يختلفون في التأريخ الذي وقع فيه.

.. حرّف المنهاج الذي خطّه الإسلام للأمّة في شأن الزعامة الكبرى، وركبت الأمّة رؤوسها في هذا المجال، فكان من المنتظر أن يسري التحريف وأن يتّسع، وكان من المنتظر -بعد ذلك- أن تُصبح الزعامة للقوة لا للحق، وللخديعة لا للعدل، وكان من المنتظر أن تنال الأمة جزاء هذا التعدّي..

﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ (١) ﴾.

بلى، كان من المتوقع جدّاً أن يستبدّ هؤلاء الزعماء المستخلَفون بالقوة، أو المترئسون بالخدعة، وأن يستأثروا بحقوق الأمّة، وأن يَفْشوَ التعدّي وينتشر..

وكان من المتوقع كذلك أن تكمّ الأفواه التي تحاول أن تنطق بالعدل، وأن تشلّ الأيدي التي تحاول أن تعمل للعدل، وأن يكون السيف لجام من يتنكّر أو ينتقد..

وكان من المتوقع أن يتربّصَ ناقمون، وأن يثور ثائرون.

كل هذه نتائج محتومة لتلك البوادر..

وسار الأئمة المعصومون (ع) والحكمةَ في معالجة هذه الأحداث، فقاموا حين يحسن القيام، وسالموا حين يحمد السلم، وعملوا للمهمّة التي

١ــ الطلاق: ١.

ناطهـــا الله (تعـــالى) بهم بالجهد المستطاع، على شدة الرقابة عليهم، وتفاقم الظلم المحيط بهم.

ونهض في الأمّة مصلحون من أهل البيت، ومصلحون من غيرهم باسم الدفاع عن الحق، وباسم النهي عن المنكر، وبأسماء أخرى يعترف بها الدين، ولغايات ليس ينكرها.

ونهض آخرون بمثل هذه الأسماء لغير هذه الغايات..

وكـــثر الـــثائرون، وأحـــالت الدماء تلك النصاعة في تأريخ الإسلام، وكـــدّرت منه ذلك الصفاء، وأبدل العدل الذي وضع الله (تعالى) أركانه، ورفع الرسول (ص) قواعده.. ظلماً طاغياً من الرعاة!!..

.. وحقداً ثائراً من الرّعية!!..

الاجتهاد في الأحكام[1]

من مآثر دين الإسلام أنه شرّع للإنسان حقّ الاجتهاد في الأحكام، وليس لهذا الدين الحنيف ضريب بهذه المأثرة، وهي إحدى ممكّناته من مسايرة الحياة، وإحدى مؤهّلاته للخلود. نعم، وما أكثر المآثر التي تميزّ دين الله وتوجب له التقدمة، وتُثبِت أنه -بحق- دين الحياة ودين الخلود.

والنصوص الإسلامية التي تخوّل الإنسان هذا الحق كثيرة وفيرة. وهو - بعد- ليس موضع ريبة عند أحد من المسلمين، ولا مظنّة للخلاف فيما بينهم، ولاموقعاً للموازنة والترجيح، وإعمال الفكر واستعمال الأقيسة.. ليس موضعاً لشيء من ذلك ليقول قائل: إنه إثبات للاجتهاد بالاجتهاد..

.. ولكنه الحق الذي لاجدال فيه من أحد، واليقين الذي لا مِراء فيه من أحد، والتسالم الذي لا خلاف فيه من أحد.

ومن شواهد ذلك؛ هذه الوفرة الكبيرة من المجتهدين في كل فرقة من فرق المسلمين، على تنوّع مسالكهم في الاجتهاد، وعلى تقاربهم أو تباعدهم في مبادئه، واجتماعهم أو اختلافهم في نتائجه.

وإنها لكرامة ومنزلة ليس وراءها مطمح، أن يخوّل الله عباده حق النظر في أحكامه، والتراجيح بين أدّلتها، والغوص في أغوارها، والفقه

١ـ كتبت مقدمة لكتاب (المناظرات) للعلامة الحجة المغفور له الشيخ علي الخنيزي الخطي (طاب ثراه).

لأسرارها، ثم هو يزيدهم –من لدنه– كرامة ومنـــزلة، فيضاعف المثوبة لمن أصاب، ويتفضّل بأجر الصواب على من أخطأ.

الاجتهاد ضرورة إنسانية عامّة:

والإســـلام –في اتجاهه هذا– إنما يغذّي ضرورة من ضرورات الإنسان الفرد، وضرورة من ضرورات المجتمع، وضَرورة من ضرورات الحياة.

يغـــذّي ضـــرورة في الإنسان الفرد؛ فإن الحكمة المُبدِعة القديرة، قد زوّدت هـــذا الكـــائن بغريزة (العلم) أو غريزة (الاستطلاع) –كما يسميها عـــلماء علم النفس الحديث–، وهذه الغريزة هي التي تُهيب بالمرء –منذ أيام طفولته– أن يستقصي عن أي شيء يجده، وأن ينقّب عن كل قولٍ يسمعه، وأن يبحث عن الظواهر والصفات والخصائص والعلل في الأشياء ما وجد إلى الـــبحث ســـبيلاً، وهي من أحقّ غرائز الإنسان بالتلبية، وأجدرها بالعناية، وأحراها بالتوجيه.

فهـــي مـــن مقوّمـــات إنّية الإنسان، وبانيات حياته وسلوكه، ومؤسّسات حضارته ومدنيّته. ونجاح المرء في حياته الأولى، وفوزه في نشأته الأخرى يتوقفان –إلى حدٍّ بعيد– على حسن توجيه هذه الغريزة، وطيب الإفادة منها.

وقـــد عُني الإسلام بأمرها أشدّ العناية، وربط أصوله وفروعه بها أوثق الربط، وحرّض الإنسان على الاهتمام بها أبلغ التحريض. واقرأ آيات الكتاب العزيز لتعْلم أي مبلغ بلغه دين الله في هذا المضمار.

ستجد أن القرآن لايخطو خطوة، ولا يُلقي إنذاراً، ولا يبلّغ هداية، ولا

يُوضح عقيدة، ولايُشرّع حكماً، ولا يبيّن عِظة، ولا يعالج مشكلة، ولايقيم بُرهاناً، ولا يكشف شبهة، ولايقصّ حديثاً، إلاّ وهو يحرص -أشد الحرص- أن يكون الإنسان معه، بسمعه وبصره، وقلبه وعقله، وجميع مداركه ومنافذ شعوره .. أن يكون الإنسان كذلك معه، يحلّق حيث حلّق، ويسمو حيث سما، ويتنقّل حيث تنقّل .. يُصغي إلى نُذُره، ويقف على مراميه، وينفذ إلى غاياته، ويستبْطن حُججه، ويستوضح إشارته، ويتتبّع مواضع الحكمة في كل ذلك، ويتبيّن مواقع العبرة فيه، والإفادة منه.

فأي شوطٍ أبعد من هذا الشوط، وأي غاية وراء هذه الغاية؟

وحديث العقيدة الإلهية، وربطها بالنظر في عجائب الكون، وتقليب البصر في مظاهرها العظيمة وقوانينها الحكيمة .. هذا الحديث الذي تضمنته مئات الآيات من كتاب الله العزيز .. ماذا يعني، وماذا يستهدف؟

إنهُ يروم - أوّلاً- ربط هذه العقيدة العظيمة بأدلة محسوسة ملموسة لامرية فيها، ولاخفاء في دلالتها.

ويروم -ثانياً- أن يُلفت الإنسان، ويشحذ فكرته، ويوجّه طاقته، ويوقفه على كنوز الطبيعة، ويضع بين يديه مفاتيح العلم.

وحين انتهى الدور إلى الشريعة .. إلى قانون الله الذي شرّعه للإنسان ليصل -باتباعه- إلى كماله الأعلى ..

أقول: وحين انتهى الدور إلى الشريعة، فهل أهملت تلك الغريزة من الإنسان: (غريزة العلم)؟

وهل حتّم عليه أن يخضع، وأن ينقاد -دون تفكير ودون ترجيح-

لـــلقوانين التي شُرّعت له، كما يخضع الحيوان والنبات للقوانين الطبيعية التي وُضعت له سواء بسواء؟

إنّ عناية الله بهذا المخلوق قد رفعته عن هذه الخِطّة.

وشريعة الله لايمكن أن يكون له في تشريعها شريكٌ ولا مُعين؛ ذلك أنّ تحديـــد الحـــدود للإنســـان ووضع المنهج لسلوكه، نوع من مطلق التدبير والتربية، فلا قول فيه لغير الله ربّ العالمين، ولاتكون للإنسان في أحكام الله خِيَرة برفعٍ ولاوضعٍ.

غـــير أنه وإن لم تكن لهذا المخلوق خِيَرة في التشريع، فقد جعل الله له حقّـاً في الفَهْـــم، وحقّــاً في البحث عن أحكام الله (تعالى) في مصادرها الصحيحة، وحقّاً في إقامة الشواهد عليها، وإزالة اللبس عنها. وهذه غايةُ ما يتصوّر للإنسان من حقوق في هذا المجال.

وقد قلت -فيما تقدم - إنّ الله (سبحانه) قد اختصّ عبيده الناظرين في شـــريعته بمزيدٍ من فضله؛ فضاعف المثوبة لمن أصاب، وتفضّل بأجر الصواب على من أخطأ.

ومن الحقّ أنْ أُبادر فأقول:

إن هـــذا الحقّ الذي منحه الله لعباده، وهذه الكرامة التي اختصّ بها من اجـــتهد منهم، إنما تعني أن يأتوا الشريعة من أبوابها، وأن يأخذوا أحكام الله من مصادرها..

.. من الأبواب التي فتحها الله للناس لمعرفة أحكامه، ومن المصادر التي أعدّها لبيان حَلاله وحرامه..

.. من كتاب الله الخالد المعصوم الذي تأذّن الله بحفظه وتكفّل برعايته، ووعد بإتمام نوره، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومـــن الســـنّة الصـــحيحة المطهّرة التي روتها الثقاة، وجمعتها الحفظة، ومحّصتها النقدة، ووقف على رجالها العلماء الأثبات.

ومـــن المصادر الشرعية الأخرى التي ترجع إلى هذين، وتستند إليهما، ومن القواعد اليقينيّة التي لايرتاب أحد في ثبوتها، ولايمتري عاقل في الركون إليها.

أمّا الاجتهاد الذي يميل صاحبه مع الأهواء، أو يتّبع فيه الأوهام، فليس من حقّ الإنسان -أبداً- أن يُدخله في دين الله، ويُعمله في أحكامه.

الاستغاثة بالغائبين والموتى:

والاستغاثة بالغائبين والموتى مسألة كَثُر فيها الجدل بين المسلمين، وبالغ بعضـــهم في المـــنع منها، فأفتى بكفر من استغاث بميّت أو غائب، ورأى أنّ الاستغاثة بهما تُناقض عقيدة التوحيد.

والتوحيد أصل الأصول في الإسلام، وهو ضارب الجذور، نافذ الأشعة في ســـريرة المسلم وعلانيته، وصفاته وأعماله، ولايسوغ للمسلم -أبداً- أن يخاطـــر بتوحيده، أو يرتكب ما يناقضه، أو يميل إلى ما يخالفه. وهو إذ يفعل شيئاً من ذلك فإنما يخاطر بإسلامه..

نعم، ولاريب في هذا ولكن ما نتيجته هنا؟

فهل الاستغاثة عبادة ليكون المستغيث بالميّت أو بالغائب مُشركاً ؟

لقــد أجمع المسلمون كافة على إباحة الاستغاثة بالحيّ الحاضر .. وقد كانت الصحابة يستغيث بعضهم ببعض، فما معنى ذلك ؟

هل معنى ذلك أن المسلمين أباحوا نوعاً من الشِّرك، وهم المتشدّدون في التوحيد، المدافعون عن حدوده؟!

أم أن الاســتغاثة نوعان: نوع يوجب الشرك، ونوع لايوجبه؟ واللغة والعرف العام يدلاّن على أنها معنى واحد لا اختلاف فيه ولا تعدّد .

وإذن فالاستغاثة في نفسها ليست عبادة لتتمحض لله وحده.

وعــلى أدنى تقدير، فإن الأمر فيها ليس واضحاً تمام الوضوح، وكونها عبادة لايزال موضعاً للخلاف ومجالاً للاجتهاد، وأقرب المحامل الصحيحة لمن يستغيثون بالغائبين والموتى أنهم مجتهدون؛ فهم معذورون، بل مأجورون.

وكيــف يســوغ تكفير مسلم من أجل عملٍ يمكن أن يكون له وجه صحيح؟

وهذه العقيدة المكينة الرصينة التي يعتزّ بها المسلم، ويوقن أنها قوامُ دينه، ومِــلاك نجاتــه، وســبب فوزه وسعادته، والتي يجاهد دونها بنفسه وماله، ويضحّي في سبيل إعلائها بدمه وما ملكت يمينه..

هــذه العقيــدة الغاليــة التي تكاد أن تمتزج بلحم المسلم ودمه، وتملأ مشــاعره وعواطفــه، كيف يتصوّر أن ينخلع عنها، أو يأتي بما يناقضها، أو يوقع غبار الريبة عليها، وهو مختار شاعر؟

بــلى، قــد يــأتي شيئاً من ذلك وهو ناسٍ أو مخطئ أو غافل، وذلك لايوجب كفراً، بل ولا يوجب فِسقاً، وعلى ذلك إجماع المسلمين.

وقد يأتي شيئاً من ذلك وهو يوقن أنه لاينافي العقيدة، بل لو علم أو ظنّ أنه ينافيها، أو يلقي ظلاً من الرّيب لَتَركه، وتبرّأ إلى الله (تعالى) من فعله، فكيف يحكم بالشرك أو بالكفر من أجل ذلك العمل؟

وكيف إذا كان ذلك العمل موضعاً للخلاف بين المسلمين؟

وكيف إذا كانت مخالفة ذلك المسلم فيه عن اجتهاد أو تقليد صحيحين؟

العبادة عمل قصدي:

والعبادة، أليست من الحقائق التي تثبت بالقصد، ولاتثبت بدونه؟

إن القارئ قد يتلو السورة من القرآن لتجربة صوته، أو إسماع لحنه، فلا تكون تلاوته عبادة، بل قد توجب له عند الله –سبحانه– مقتاً وبُعداً، وقد يتلوها ليتقرّب بها إلى الله؛ فتكون له عبادة توجب القرب وتحطّ الذنوب.

وتالي الدّعاء قد يريد به قراءة قطعة فنيّة توجب المتعة، وتنشّط الذوق، فلا يكون عبادة، وقد يقصد به ضراعة العبد المحتاج لربّه الغنيّ القادر فيكون عبادة وزلفى..

والطائف حول البيت، المستلم لأركانه قد يقصد -بعمله هذا- حركة رياضية خالصة يمرّن بها أعضاءه، وينشّط عضلاته؛ فلا يكون عابداً، وقد يقصد أداء الفريضة أو السنّة التي أمره الله بها؛ فيكون عابداً وممتثلاً.

وهكذا في كلّ عمل يحبّه الله ويأمر به.

وواضح أن المسلم حين يستغيث بالأولياء المقبورين، وحين يضرع لهم،

لايقصد بصنعه ذلك العبادة للوليّ المقبور.

بلى، هنا من الأعمال ما يعدّ -بذاته- عبادة وإن لم يقصد به التعبّد، والعلماء يسمّون هذا الصنف من الأعمال: «العبادة الذاتية»، ويمثلون له بالسجود والركوع، فإنّ العرف العام يراهما من العبادة وإن لم يقصدها فاعلهما.

وواضح -أيضاً- أن الاستغاثة والضراعة ليستا من هذا القبيل، ولو كانتا من العبادة الذاتية لوجب المنع عنهما حتى للأحياء، وهما جائزتان للحيّ الحاضر بالإجماع.

ظلال عقيدة التوحيد:

التوحيد أصل الأصول في الإسلام، وهو -كما قلت- ضارب الجذور نافذ الإشعاع، في سريرة المسلم وعلانيته، وصفاته وأعماله. وواجب المسلم أن يسير مع هذه العقيدة الكبرى، يُحِقّ ما أحقّت، ويُبطل ما أبطلت .. وقد قلت في الحديث عن التوحيد من كتاب (الإسلام):

(إن الإسلام بشرائعه ومعارفه، وهداياته وآدابه، ومفصّلات نظمه ومبسّطات مناهجه، يتجمّع وينطوي، وتتداخل حدوده وتندمج تعاليمه، حتى تكون وحدة لاتعدد فيها من وجه، هي عقيدة التوحيد التي يدين بها المسلم لبارئه، ويخضع من أجلها لقوله.

(فالإسلام هو التوحيد مجلوّ القسمات، مبين الظلال والسّمات.

(والتوحيد هو الإسلام مجمل التفاصيل، مطويّ الحدود، متجمّع

الطاقة.

(وهــذه هي الحقيقة الرائعة التي قرّرها داعية الإسلام الأول (ص) لما قال كلمته الأولى: " قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا ".. لمّا ضمن للناس الفلاح إذا هم قالوا هذه الكلمة، وآمنوا بهذه العقيدة [1]).

نعــم، وهــذه حقيقة لايرتاب فيها من عرف الإسلام، وسبر أغواره، واستبان أثر التوحيد في بناء تشريعه.

ولكن، ما معنى ذلك؟

هل يكون معنى ذلك أن تنقلب فروع هذا الدّين وآدابه أصولاً وعقائد، يحكم على من خالف في بعضها بالشرك أو بالكفر؟!

هذه نتيجة تخالفها الضرورة من دين الإسلام، ولا يمكن أن تنسب إلى واحدٍ من الأعلام.

إن عقيــدة التوحيد تمدّ المسلم في كلّ موقف، وفي كل مصدر ومورد، بما تقتضيه الإنسانية الكاملة والحياة الرفيعة الطيّبة التي ابتغاها ربّ العالمين.

ومعنى هذا أنها توجّهه للأمر المندوب كما توجّهه للأمر الواجب، وأنّها قــد تنــزهّه عن الفعل المكروه كما تنهاه عن المحرم، ولذلك كانت الشريعة في الإسلام انعكاساً كاملاً لعقيدة التوحيد فيه.

فهــذه العقيدة –مثلاً– تدعو المسلم أن تكون صلته بالله وحده، فهو بارئ خلقه ومالك رزقه.

١ـ الإسلام: ينابيعه مناهجه. غاياته. ص ٢٣٨ ط١.

ولكـــن ليـــس معنى ذلك أن يقطع المسلم كل صلة له بالكون، فيعيش كالغريب الذي لاأنيس له.

بل معناه أن ينشئ كل صلة له في الكون تحت ظلال صلته الكبرى بخالق الكون، فلا يقطع ما أمر الله به أن يوصل، ولايصل ما أمر الله به أن يقطع.

وهي -كذلك- تأمره أن يخصّ أمله بالله، فهو وحده مقدّر الأمور ومالك أزمّتها، ومسبّب أسبابها.

وليـــس معنى ذلك -أيضاً- أن يعيش مقطوع الأمل، مبتوت الرّجاء من كلّ جهة.

بل معناه أن ينيط كلّ هذه الآمال الكثيرة بأمله الواحد الأعظم.

وهكذا في كل صوب، وفي كلّ اتجاه، فلا يضرع المسلم إلاّ لله، ولايخاف غـــيره، ولايحـــبّ سواه، ولايتّجه بمشاعره إلى أحد من المخلوقين، إلاّ حيث تكون ظلاً تابعاً للمشاعر الكبرى التي تعقده بخالقه.

هذه هي الخطة العليا التي ترسمها عقيدة التوحيد للمسلم الحق.

ولكن واقع الناس؟..

ولكن الضعف الطبيعي الذي يقعد بأكثر الناس عن بلوغ تلك المرتبة؟..

ولكن الروابط المادّية التي تثقل الإنسان وتمنعه عن التحليق؟..

لابد وأن يحسب دين الله العظيم لهذه الأمور حسابها، وينظر لها نظرتها.

لابد وأن يقدّر الواقع حقّ قدره، فيكلّف الناس ما يستطيعون، ويترك هذه المراتب العظيمة لمن يستطيع إليها سبيلاً.

محتويات الكتاب

في العدل الإلهي

حول عقيدة الإمامة

في المجتمع والأخلاق

العبادة والدعوة إلى اللّه

في رحاب القرآن

في ظلال الرسول ﷺ

مع الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام

في رحاب الإمام أبي محمد الحسن عليه السلام

مع الإمام أبي الشهداء عليه السلام